المرتضى للكتب السودانية



دماءٌ في الخرطوم

عماد البليك

دماءٌ في الخرطوم

روايـــة

دار الفارابي

الكتاب: دماءٌ في الخرطوم
المؤلف: عماد البليك
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: **دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان**
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: info@dar-alfarabi.com
www.dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى 2008
ISBN: 978-9953-71-353-3

إليك مهيار في مدينتك الجديدة...

1

داخل المكتب المؤثّث على طريقة عصرية، بديكور داخلي راقٍ، رنّ الهاتف النقال على الطاولة الخشبية أكثر من مرة قبل أن يضغط عبد الحفيظ على الزِر. لقد جرت العادة ألا يستقبل أي مكالمة من رقم مجهول، لكن إصرار المتصل على تكرار المحاولة للدرجة التي استفزّت المجموعة الجالسة حول طاولة الاجتماع، جعلت عبد الحفيظ يردُّ أخيراً:

- عفواً.. من يتحدث معي؟

قالها هكذا، دون أن يردَّ تحية المتصل.

- معك اللواء طه عبد الرحمن مدير عام الشرطة.

قبل أن يكمل، نهض من على الكرسي الدوّار، وبحركة لا شعورية جرّ الكارفته تدريجاً إلى أسفل:

- نعم سيدي.. تفضل، ما الأمر؟

ليس من عادة عبد الحفيظ أن يُطيل المكالمات. لقد تعلم هذا الفن، خلال سنوات عمله بالولايات المتحدة أثناء تدرّبه في إحدى الشركات هناك، بعد أن أكمل دراسته في الهندسة المدنية، قبل أن يعود إلى الخرطوم منذ شهر، لينشِئ شركة للمقاولات بإمكانيات مادية كبيرة.

بدا له أن الضابط مرتبك وغير قادر على الإفصاح، ولثوانٍ ظلّ صامتاً، فيما كانت المجموعة الأجنبية الجالسة حول طاولة الاجتماع تراقب التوتر في تفاصيل وجه عبد الحفيظ، الذي لم يستطع أن يسمع باقي كلام اللواء.

سقط الهاتف على الأرض، وترنّح الشاب الذي يبدو في منتصف العشرينات من العمر، ليسقط فاقداً الوعي، وسط المكتب.

ساد الاضطراب المكان، وتبين لأحد المشاركين في الاجتماع أن خط الهاتف لا يزال يعمل، فتولى سماع باقي إفادة الضابط، الذي أخبره بإنجليزية ركيكة:

– لقد أعلمته بأن والده السيد عبد الله العربي قد اغتيل قبل ساعة تقريباً، في مكتبه بوسط الخرطوم في حادث غامض.

واصل مدير عام الشرطة الحديث، بصعوبة:

– نحن الآن نحمل الجثة إلى المشرحة، لقد فارق الرجل الحياة إثْر عدة طعنات بالخناجر.

أخبر مستر بروك رفاقه بما سمع، قبل أن يحملوا عبد الحفيظ في السيارة بمشاركة عدد من المهندسين بالشركة، ويتوجهوا - جميعهم – إلى المستشفى.

***

في الطريق استعاد عبد الحفيظ الوعي تدريجاً، غير مُصدّق ما سمع، وبدا له كما لو أنه يحلم أو يعيش في مكان آخر غير هذا العالم.

"هل مات والدي حقاً.. ومقتولاً؟!".

سأل نفسه بين اليقظة والحلم، وذهب في تفكيره إلى تكذيب ما سمعه من الرجل الذي اتصل به.. قال سراً:

"ربما كان كاذباً.. أو هي لعبة ما يقوم بها شخص متهوّر يدّعي أنه مدير عام الشرطة.. هذا البلد تغيّر كثيراً خلال سنوات غيابي.. بات كل شيء ممكناً.. بإمكاني تصديق كل شيء وبإمكاني أيضاً أن أُكذّب ما سمعت".

حاول تذكر نبرة الصوت الذي سمعه، ويقارنها؛ في محاولة استرجاع أخرى؛ بصوت مدير عام الشرطة الذي يُخيّل له أنه سمعه قبل يومين، يتحدث في التلفزيون أثناء الاحتفال بمناسبة ما، ليس بإمكانه تذكّرها الآن.

لم يستطع أن يصل إلى علاقة مؤكدة بين الصوتين، لأنه لم يكن يهتم بسماع مثل هذه الأصوات التي لا تعنيه، ولأنه نادراً ما يجلس أمام شاشة التلفزيون.. فقط كان يسمع في بعض الأحيان نشرات الأخبار على قناة الـ "CNN" الأمريكية، بعد أن عاد من بلاد العم سام، بطموحات كبيرة لبناء أكبر شركة للتنمية العقارية في السودان، بتمويل من مجموعة بنوك استثمارية أوروبية وأمريكية، ودعم معنوي من

والده الذي عُرِف على مدى أكثر من ثلاثين سنة كواحد من أشهر رجال الأعمال في البلد، وربّما عموم القارة الإفريقية.

طوال لحظات التفكير السريع مع الذات، والتنازع بين تصديق الوقائع أو إنكارها، لم يفتح عينيه، ولم يكن يدري أين هو بالضبط!.. وفجأة عندما فتح طرف عينه اليمنى بصعوبة بالغة، فهم أنه في الطريق إلى المستشفى، وأنه سقط على الأرض فعلاً بعد أن سمع أسوأ خبر في حياته.

***

خلال الأيام الأخيرة وفي لقاءاته القليلة مع والده لاحظ عليه شيئاً من الاضطراب، هذا الأمر الذي لم يفهمه إلا الآن، عندما وجد نفسه في المستشفى مُحاطاً بالناس من مختلف قطاعات المجتمع والطبقات كافة.

"كيف جاءوا بهذه السرعة؟.. وكيف انتشر الخبر في الخرطوم؟"، لا يهتمّ بكل هذا.. فقط كان مهتماً بمراجعة آخر مرة جلس فيها مع والده في صالون البيت الكبير، قبل يومين.

قال الوالد بنبرة مُودّعٍ، لم تكن مُدركة وقتها:

- عبد الحفيظ كنْ حذراً، وادرس الاحتمالات جيداً، لأي عمل تقوم به.

- ماذا تعني؟ فأنا من خلال دراستي وتجربتي بالولايات المتحدة أعلم جيداً أن أي عمل يكون عبارة عن مخاطرة، مغامرة ينبغي للمرء دراسة جوانبها كافة.

- لا أشكّ في خبراتك الإدارية من خلال ما تعلمته، ما أتحدث عنه أمر مختلف تماماً، فالناس الذين ستتعامل معهم هنا تختلف طباعهم عن الأمريكيين، إنهم أذكياء في الابتزاز بدرجة لا يمكنك توقعها أبداً.

لنصف دقيقة أو أكثر صمت عبد الله العربي قبل أن يُكمل حواره مع ابنه:

- توقع كل شيء حتى القتل.

تغيّرت ملامح وجه عبد الحفيظ، مع الجملة الأخيرة، حيث لم يسبق له أن سمع كلمة قتل، أو موت، على لسان والده من قبل.

"دائماً كان الوالد مشحوناً بالتفاؤل والأمل وحب الحياة، فما السبب الذي يدعوه إلى النطق بهذه الكلمة بالذات.. اليوم؟!"

سأل نفسه، لكنه لم يُعد التفكير في السؤال، الآن، في المستشفى، وسط ضجيج الناس، الذين كانوا يحاولون سماع إفادات منه، تعليقاً على ما حدث.

بعضهم جاءت به المجاملة الاجتماعية، وبعضهم جاء حتى لا يفقد مصالحه القديمة مع والد الفقيد، ذلك لأن السودان كمجتمع أبوي، يكون فيه الابن ظلّ الأب والامتداد الطبيعي له.. وهناك من كان دافعه حبّ الاستطلاع، فقد رأى عبد الحفيظ مجموعة من الوجوه المتداخلة التي لم يتعرف

إليها، ولم يسبق له أنْ رآها من قبل، والغريب أنهم كانوا يتحدثون معه كأنهم يعرفونه جيداً منذ سنوات بعيدة.

***

أمر الطبيب المسؤول الجميع بالانصراف، وقال للصحفيين الذين تجمهروا في الغرفة الصغيرة:

- عفواً يمكنكم تأجيل كل شيء فحالة الابن لا تسمح له بالحديث، راحته هي الأهم.

أغلق الطبيب الباب بإحكام، بينما ظلّ الضجيج في الخارج، في الوقت الذي كان الابن يراجع ذلك الحوار الأخير مع والده، والذي بدأ يفهم في هذه اللحظة أنه لم يكن ألغازاً أو حديثاً لا معنى له: "فقد كان الوالد يتحدّثُ عن أمر قادم، رّبما كان يتوقعه أو يعرف عنه، ولم يشأ الإفصاح عن تفاصيله إلى أن خرج المستور".

الأمر الوحيد الذي بات متأكداً منه، بعد أن وقعت الواقعة، أن الحديث مع والده لم يكن مجرد حوار عادي، وصل إلى هذه النتيجة أخيراً: "لأنه بالنسبة إلى رجل مثل عبد الله العربي لا تخرج الكلمات هكذا.. كل كلمة لابد أن تكون محسوبة بدقة، حتى مع أبنائه".

"لقد كانت للقدر كلمته النافذة.. لقد فهمت أخيراً"

قال لنفسه، قبل أن يغرق تحت تأثير حالة نفسية قوية من الألم والحزن، جعلته يعود إلى حالة اللاوعي مُجدداً.

2

غادرت زينب مطار الخرطوم عقب عودتها من لندن، بعد يوم واحد من اغتيال والدها. كانت ترتدي قميصاً أسود وبنطلون جينز، وتحمل في يدها حقيبة صغيرة، وإلى جوارها طفلها ابن الثلاث سنوات، مهند.

وهي في الطريق إلى بيت العائلة بحي الرياض في الخرطوم، غرقت في بكاء محموم ومتواصل، تزايد مع توقف السيارة من نوع مرسيدس موديل 2007 أمام بوابة البيت، حيث كانت بانتظارها مجموعة كبيرة من النساء اللائي جئن لاستقبالها كمُعزّيات.

ارتفع العويل في المنزل، مع دخول زينب الحوش الكبير، وبدأت بعض النساء اللطم على الوجوه، فيما قُمن أُخريات بالنواح بصوت عالٍ مُصطنع، تعبيراً عن حُزنهن، فمن وراء المشهد كانت بعض النساء يتحدثن بهمس عن لباس زينب وأنها أخطأت لكونها حضرت إلى مأتم والدها بهذا (الزي الفاضح)، فيما قالت بعضهن: "إنها ما زالت مغرورة ومعتزة بنفسها، حتى الموت لم يعلمها كيف تتواضع".

قُلن ذلك بعد أن انزوت داخل إحدى الغرف، ومنعت الجميع من مقابلتها أو توجيه العزاء لها، فقد كانت في حالة نفسية لا تسمح لها بسماع أسئلة النسوة أثناء عويلهنّ الذي أدركت أنه ليس إلا من قبيل المجاملة المُدّعاة، ولم تسمح لإحداهن بالدخول، إلا لسارة التي جاءت بعد نصف ساعة، مسرعة، بعد أن عرفت أن زينب قد وصلت إلى الخرطوم.

***

تدرك سارة أن زينب حساسة جداً، وتدرك أكثر أنها كانت مدللة من قبل والدها، الذي كان لا يتوانى عن تلبية أي طلب لها منذ أن كانت طالبة بكلية الطب قبل عشر سنوات.

أثناء سير الحافلة العامة وسط الشوارع المزدحمة في منتصف النهار الحار، راحت سارة تستعيد ذكريات تلك الأيام القديمة في كلية الطب بجامعة الخرطوم، عندما كانت زينب تُثير الجميع بملابسها الغريبة ورغبتها المُلحّة في التحرر من كل تقليد وموروث، حيث كان هناك من يصفها بالفتاة المغرورة والمعتزة بوضعها المادي المميّز، وبعض آخر يقول عنها إنها ساذجة تعيش في نعمة.

كانت سارة وحدها من أكثر الطالبات اقتراباً منها، واستطاعت أن تبني معها صداقة قوية استمرت طوال سنوات

الدراسة، لكنها سرعان ما تلاشت بعد أن تخرجتا بشهر أو شهرين لا أكثر، لأن زينب سافرت إلى لندن لتواصل تخصصها في مجال طب الأعصاب، فيما بقيت سارة في الخرطوم تحاول أن تحصل على وظيفة في أي مستشفى.. من دون جدوى.. وانقطعت العلاقة.

رغم مرور الزمن، ظلت سارة تحتفظ بصورة مثالية لتلك الأيام الجميلة، وبحكم طيبتها المبالغ فيها (كما يرى الكثيرون من حولها)؛ كانت تجد لزينب الأعذار، فكلما جاءت مناسبة أعادت الذكريات، أسرعت للتصدي لمن يحاول تشويه صورة صديقتها القديمة، بقولها: "لا أعتقد أن زينب إنسانة سيئة، لكن الظروف هي التي تتحكم في الناس".

لقد كان يقينها في محله، لأن زينب لم تسمح لأي أحد غير سارة بمقابلتها، والجلوس معها في هذا اليوم العصيب.

لدقائق لم تتكلم إحداهما، فقد طغت الدموع على اللقاء، وفرّت الكلمات من الألسنة.

رغم سيطرة الحزن على مشاعر زينب إلا أنها حدّثت نفسها في تلك اللحظات بالندم، على أنها لم تسأل عن سارة طوال السنوات العشر التي مضت، ولم تسعَ إلى مساعدتها بأي شكل كان، حيث كان بإمكانها أن تفعل ذلك.

قطعت الصمت، بعد أن جفّفت دموعها:

- ما هي أخبارِكِ؟

- بخير والحمد لله.

واصلت سارة الكلام عمّا حدث أمس:

- لقد كان خبراً مفجعاً.. هل كان الإنسان يُصدِّق أن تحدث مثل هذه الجريمة البشعة في السودان؟!

لم تعلق زينب.. كانت تفكر في حالة سارة من خلال ملابسها، فقد كان ثوبها من قماش متواضع السعر، أطرافه ممزقة بشكل واضح.

قطعت تفكيرها بأن سألتها من جديد، من دون أن تنتبه:

- لا تقولي لي إنك هجرت العمل في الطب؟

لم تفكّر سارة في مغزى السؤال، ولا في مظهرها هل يدلُّ على وضعها المادي أم لا!. اكتفت بالإجابة:

- هذا ما حدث، أن الطب هو الذي هجرني.. لكن دعينا من الحديث عن هذا الموضوع الآن، فنحن في وقت لا يحتمل.

- تعنين رحيل الوالد.. هذه هي سُنّة الحياة، ما الذي يمكن أن نفعله.. هو قدر الله؟

حاولت زينب أن تسأل سارة أكثر من سؤال بخصوص وضعها الحالي وحياتها وأخبار عائلتها، لكن سارة هربت من الأسئلة ووجدت أنه من العيب أن تُحوّل المأتم إلى حديث خاص عن مأساتها في الحياة. اكتفت بالإجابة عن سؤال واحد:

- لم أتزوج حتى الآن.

ردّت وقد بدا على وجهها التأثر والحزن.

فهمت زينب أن الأمر لا يتعلق بالجمال.. قالت سراً: "سارة كانت من أجمل فتيات كلية الطب.. ولا تزال جميلة".

توقفت قليلاً واستطردت مع نفسها: "يبدو أن هناك أسباباً أخرى سوف أفهمها لاحقاً، فمن الواضح أن تضامن سارة الوجداني معي لا يسمح لها بالخوض في الأحاديث الجانبية، تلك التي تخرج على نطاق مقتل الوالد ونهاية حياته بهذه البشاعة".

عاود الصمت المكان، في حين كانت أصوات النساء ترتفع في الخارج، وتبين من بعضها لهجة الاحتجاج على رفض زينب مقابلتهن.

قالت إحداهن بصرخة مسموعة:

- إنها مجنونة ومغترة، يستحق والدها أن يموت بهذا الشكل.

سمعت زينب ما قيل، لكن لم تهتم به، في حين تحركت سارة بشكل غير مفتعل.. قامت بفتح باب الغرفة، وصرخت بالنساء:

- كفى كفى، ألا يكفي الحزن الذي تعيشه، إنكن بلا ضمير وبلا أخلاق.

كاد الوضع في حوش المنزل أن يسوء وأن يتحول إلى معركة بالأيادي، ووجدت بعض النساء في المشهد متعة تزودهنّ بقصص يمكن أن تُروى في مطلع الأيام المقبلة، غير

أنَّ زينب حسمت الأمر عندما خرجت من غرفتها بناء على إلحاح سارة وبدأت باستقبال التعازي من النساء المتجمهرات.

في دقائق ازداد العويل في المكان، مع ارتفاع الهمس من قبل النساء في شؤون كثيرة تُراوح ما بين الاستفسار: عن عدد الطعنات التي وُجِهت إلى صدر القتيل، وعن سبب خروج زينب بعد امتناعها عن مقابلة الناس، وعن الثروة الكبيرة التي خلّفها المرحوم لابنه وابنته الوحيدين... وأقاويل أخرى تناقلتها بعض الصحف صباحاً تقول بأن اغتيال السيد عبد الله العربي كان مُدبّراً من قبل أفراد يتبعون للحكومة.

3

في نهار الحادثة.. في مكتب عتيق بعمارة آيلة إلى السقوط وسط الخرطوم، عقد رئيس تحرير صحيفة "المثلثة" (وهي كلمة تشير إلى العاصمة المكونة من ثلاث مدن: الخرطوم، والخرطوم بحري وأم درمان، والتي تشكل معاً أضلاع مثلث)، اجتماعاً مع فريق التحرير، يطلب منهم ضرورة التحرك لجمع أكبر قدر من المعلومات عن الجريمة، تداعياتها، وحياة السيد عبد الله العربي، لنشرها في عدد الغد من الصحيفة.

توقعوا أن يتكلم معهم بطريقته العارية عن الأدب، والتي تعودوها، لكنه كان جاداً هذه المرة:

- هذه هي فرصتنا الوحيدة للتميّز عن الصحف المنافسة، تعلمون أننا صحيفة وليدة، وقد جاء الوقت المناسب لنحقق الانتشار.

علّق أحد المحررين:

- مهما فعلنا فلن نتمكن من جمع أكثر مما هو متوافر للجميع، ما الذي تفكّر فيه بالضبط؟

حكّ رئيس التحرير رأسه ليسود الصمت الاجتماع، قبل أن يخرج بفكرة على شكل سؤال:

- ما الذي تتوقعونه من الصحف الأخرى؟

- أن ينشروا الخبر مع الصور التي وزعتها وزارة الداخلية، بالإضافة إلى تعزية رئيس الجمهورية، وبعض المقتطفات عن حياة المرحوم، وربّما بعض الاستطلاعات مع عدد من الشخصيات المرموقة في المجتمع والحكومة، ممّن كانت لهم علاقات بالراحل، أو أصحاب المناصب.

قال أحد الصحفيين ذلك، فقاطعه رئيس التحرير :

- جميل جداً.. إذن ما هو الأمر الغائب في هذه التغطيات الصحفية؟

سكت الجميع.. لم تكن لديهم إجابات محددة.. كانوا في انتظار ما سينطق به رئيس التحرير، وفي اشتياق لسماع كلمات تقتل مناخ الجدية والصرامة التي لم يتعودوها مع النصري.. لكنه خالف التوقعات مجدداً، وهو يحملق في الأفواه المفتوحة والعيون المترقبة، وأوضح لفريقه بعد أن فهم من المشهد نياتهم المستترة:

- اللياقة تستدعي مني هذه المرة أن أكون جاداً، لقد مضى زمن الضحك، هيّا فكروا معي..

لكن ليلطف الجو قليلاً، عاد إلى القول بلهجة أكثر تهذيباً بدرجة كبيرة، من طريقته المعتادة في التحدث بكلمات تافهة:

- أريد منكم أن تُشغّلوا أدمغتكم (المتعفنة)، أن أرى

خبراتكم.. ثلاثة أشهر ونحن نصدر دون أن نحقق أي سبق صحفي أو تميّز عن أي صحيفة.

***

هذا المشهد جرى في أكثر من صحيفة، لكن لا أحد يتوقع أن تحقق صحيفة سبقاً على أخرى، فالصحف كانت تصدر مستنسخة من بعضها البعض، حتى لو أنها خرجت من مكاتب مختلفة وعقول متباينة الآراء.. وحتى تلك الصحف التي تجرأت واتّهمت عناصر من الحكومة بتدبير الاغتيال، كانت تردد "أسطوانة مشروخة" في تقدير بعض المتنفذين من كبار الشخصيات ورجال الأعمال، الذين كانوا يرون أن خلافات السيد العربي مع الحكومة، بعد انشقاقه عنها قبل أكثر من عشر سنوات، لأسباب غير مفهومة.. تلك الخلافات كانت في طريقها إلى الحل، وأن القتيل كان على علم بذلك.. لكن أطرافاً أخرى كانت ترى العكس: "أن الخلاف قد تأزّم بشكل شديد قبل يومين من الاغتيال".. باختصار لا أحد كان متأكداً من شيء.

***

حمل الصباح الثاني مفاجأة غير متوقعة لرئيس التحرير

الأستاذ حسن النصري، فقد دخل مكتبه في الساعة العاشرة صباحاً ليجد شاباً مهندماً في مقتبل العقد الثالث من عمره، ينتظره في صالة الاستقبال الوسخة، رافضاً الإفصاح عن السبب الذي جاء به، مكتفياً بقوله لموظف الاستقبال في الصحيفة:

- لديّ معلومات مهمة تتعلق بجريمة اغتيال رجل الأعمال التي وقعت بالأمس، لن أرويها لأحد غير رئيس التحرير.

أخبر موظفُ الاستقبال الأُستاذ النصري، بإفادة الشاب، الذي رافق رئيس التحرير إلى مكتبه، وجلس بهدوء قبالة النافذة الرئيسة الكبيرة والوحيدة في المكتب، بعد أن وضع أمامه مظروفاً ضخماً كان يحمله، قبل أن يبدأ الحديث:

- ما سأقوله لك معلومات مهمة ودقيقة جداً، لكن قد تعتقد أنني مجنون أو فاقد العقل، لكن مهما يكن الأمر فإن ضميري أملى عليّ قول ذلك، كما أنني أحمل الدليل المُصوّر معي (أشار إلى المظروف).

- تفضل يا ابن الـ....

كاد النصري أن ينطق بكلمة من كلماته المعتادة، لكنه تراجع حرصاً على سماع إفادة الشاب، عسى أن تكون ذات فائدة.

قبل أن يسرح في نسج أحلام مستقبلية بشأن صحيفته التي

وُلِدت بعد سنوات من الانتظار في قصة تطول روايتها.. كان قد طلب فنجاناً من القهوة لضيفه.. وسحب من الدرج ورقةً وقلماً وأرهف كلّ حواسه لسماع القصة.

4

بعد خروج الشاب ولثلاث ساعات كاملة، ظلّ الأستاذ حسن النصري في مكتبه، ومنع أياً من الموظفين من الدخول إليه، حيث عاش في قلق مرعب جرّاء القصة التي سمعها، والموثقة بالأدلة التي لا تقبل الشك كما فهم من خلال خبرته الصحفية .

تحرّك في المكتب طولاً وعرضاً، يُحدّث نفسه بصوت عالٍ: "أنشر.. لا تنشر.. أنشر لا تنشر..!!".

في نهاية الأمر عندما كاد رأسه أن ينفجر، صرخ: "أنشر.. ودا في (طيزي) لو كنت خائفاً من أحد"، وهو يرفع إصبعه الأوسط من اليد اليمنى إلى أعلى بشكل غير لائق، وأسرع ليبدأ تسجيل الوقائع، بنفسه، بعكس ما تعود أن يُكلّف أحد المحررين الكتابة. لكنه قبل أن يُكمل كتابة فقرة واحدة، نهض من على الكرسي، وقام بتشغيل جهاز الفيديو أسفل التلفزيون، ليشاهد للمرة الثانية، الشريط الذي زوّده به الشاب، بعد أن قال له:

- سأترك لكَ مشاهدته بنفسك، بعد أن أخرج من مكتبك، وللعلم معي نسخة أخرى أصلية.

المشاهد التي يُصوّرها الفيديو لا تُصدق بحقّ السيد عبد الله العربي، الذي ظلّ طوال عمره ذا سمعة حسنة في تقدير عامة الناس، ومثالاً للرجل الوطني الذي خرج على الحكومة بعد أن رأى المظالم التي تقع بحق الضعفاء من أبناء الشعب، كما تردد وقتها. وكان آخرون يرون فيه: "رجل الخير الذي لا يتهاون في مساعدة الفقراء ومدّ يد العون لهم، بعكس معظم الأغنياء الكبار الذين عرفوا بالجشع المتزايد لدى العامة".

قطع النصري تفكيره وتأملاته التي تقارن بين صورة المرحوم في أذهان عامة الشعب وما يراه الآن بنفسه، وهو يكاد يُجنّ مما يرى، للدرجة التي جعلته يغلق الصوت، مراقباً الصورة وكأنه ليس موجوداً في المكان أو كمن يرى مشهداً في الأحلام والكوابيس.

حدّث نفسه: "أمس كنت تتحدّث عن السبق الصحفي الذي سيشهر صحيفتك، والآن تعيش حالة التردد.. يا للمفارقة.. ما الذي تخافه بالضبط؟.. الحكومة أم المجتمع؟.. أم أن يطاردك أهل المرحوم بقضية مطولة في المحاكم؟.. لكنك تملك الدليل.. هذا الشريط هو الدليل الدامغ".

تشتت تفكيره وعجز عن التوصل إلى قرار حاسم، وما جعله أكثر ذهولاً أن الشاب الذي خرج قبل أكثر من ثلاث ساعات، كان غير خائف من أي ردّة فعل، بل قال:

- هذا رقم هاتفي وعنوان مسكني ولك أن تلتقط لي

صورة وتنشرها إلى جوار الخبر، هذا إذا كنت شجاعاً بما يكفي.

نظر إليه النصري بغيظ مكتوم.. غير قادر على الردّ، وأخيراً سأله:

- ألا تخاف على مستقبلك يا ابني؟

ابتسم الشاب.. قال موضحاً موقفه:

- ما الذي سأخسره؟.. أنا خريج قانون عاطل عن العمل منذ خمس سنوات، وهذه فرصتي الوحيدة لكي أثبت أن بإمكاني أن أكون محامياً ناجحاً.. هؤلاء الذين يسيطرون على السوق لا يملكون ذكاءً أكثر مني.. صدقني ساعة تنشرون الخبر، وأنجح في الدفاع عن نفسي سوف يفيض عندي المال.. لن يعود أحد يتذكّر الماضي، لأن المال في هذا الزمن يمسح الخطايا مهما بلغت.

بعد ثوانٍ من الصمت، قال الشاب ثانية:

- إذا كنت صحفياً تؤمن بالحقيقة فتلك هي فرصتك لكي تقولها، وتحقق النجاح لصحيفتك (المغمورة).

الكلمة الأخيرة استفزّت النصري، لكنه لم يعلق، حيث نظر إلى وجه الشاب فرآه يبتسم ابتسامة عريضة مليئة بالسخرية، وهو يهُزّ رِجلاً على الأخرى في وضع يدلُّ على الثقة بالنفس والثبات.. أكثر من ذلك يدل الوضع على: "عقل لا يمكن التكهن بما يستبطنه". وهذا ما زاد من حيرة الأستاذ النصري أثناء متابعته بنصف عين محتوى شريط الفيديو،

وبنصف عين أخرى كان يُلقِي نظرة على الصور الفوتوغرافية للقتيل، وهو غارق وسط الدماء في مكتبه، تلك الصور المنشورة في عدد اليوم من صحيفة "المثلثة"، الملقاة أمامه على الطاولة.

***

لحظات صعبة ومشوشة في الوقت نفسه، عاشها صحفي يظنُّ نفسه مخضرماً، قضى أكثر من عشرين سنة من عمره في الاغتراب، وعمل في كبريات الصحف العربية، إلى أن عاد إلى الخرطوم ليُنشِئ صحيفته الخاصة التي لا تزال محدودة التوزيع.

ما بين التفكير في القيم والأخلاق لمجتمع يؤمن بستر الميت وعدم الخوض في عورات الناس، والتفكير في ما تمليه الأمانة الصحفية، كان عقل رئيس التحرير قد دخل في دوامة من الصداع النصفي، بحيث بات غير قادر على اتّخاذ القرار.

نظر إلى ما بدأ في كتابته على الورق، ليجد أن حالة من الرعب قد تلبّسته. وبشكل مفاجئ له قام بتمزيق الورق، رمى به في السلة أسفل الطاولة، ثم أغلق الفيديو.

سحب الشريط المشؤوم من درج جهاز الفيديو، رمى به في أحد أدراج المكتب، متذكّراً ما قاله في البداية مع نفسه:

"أنشر.. ودا في طيزي لو كنت خائفاً من أحد".. ليفهم أنه خائف، بل خائف جداً، ولذا ليس بإمكانه أن ينشر الخبر.

المفاجأة الكبرى التي كانت تنتظره في اليوم الثاني أن صحيفة أخرى قامت بنشر تفاصيل قصة شريط الفيديو دون الإشارة إلى حكاية الشاب، لتنقلب الأمور في الخرطوم رأساً على عَقب جراء ذلك الخبر المثير والجريء.

قرأ النصري الخبر في الصباح، ليفهم أن هناك رؤساء تحرير في البلد أشجع منه بكثير، وقرر أن يحتفظ بتفاصيل ما جرى معه، لنفسه، حتى لا يُتهم من قِبل محرري صحيفته بالجبن.. طالما تحدّث معهم، دائماً، عن ضرورة تمتع الصحفي بالشجاعة التي لا يوقفها متسلط أو جاهل.. وكلم نفسه بصوت مرتفع: "يا للخراء!!"

5

أول ما فعلته السلطات: مصادرة الأعداد المتبقية في السوق، من الصحيفة التي نشرت الخبر.. حدث ذلك قبل السادسة صباحاً.

الأمر الثاني: إصدار قرار بإيقاف الصحيفة لأجل غير مُسمّى.

أما الأمر الثالث فقد كان: إذاعة بيان من الحكومة وبثه في السادسة والنصف صباحاً، يؤكد، دون أن يخوض في التفاصيل: "ما نُشِر عارٍ من الصحة، وأنه ستجري معاقبة الذين تسببوا في هذه (الزعزعة الأخلاقية)".

بالطبع.. كان العديد من النسخ المتبقية في السوق قد وصل إلى القراء، من قبل رجال الأمن (أنفسهم) الذين يصادرون النسخ ثم يقومون بالمتاجرة بها سراً.. لينتشر الخبر في البلد بسرعة فائقة، خاصة بعد أن تمت إذاعة بيان الحكومة وبثه، الذي لم يُوضِح بالضبط محتوى ما نُشِر في الصحيفة، حيث اكتفى بالإشارة إلى: "أن ما نُشِر غير أخلاقي ويمس سمعة المرحوم السيد عبد الله العربي".

***

إلى الظهر لم يصل الخبر إلى عبد الحفيظ، الذي ما يزال على سرير العافية في المستشفى، يستقبل المعزّين في العنبر الذي تحوّل إلى صالون عزاء.

لم يكن لدى أحد الجرأة ليعُلِمه بخبر سيء يمسُّ سمعة والده، فيزيد الطين بلة. لكن لا خبر يُدسُّ، فقد كانت الحكومة (نفسها) هي التي قامت بإيصال الخبر، عندما وصل ممثّل لرئاسة الجمهورية إلى المستشفى وطلب مقابلة عبد الحفيظ على انفراد ليخبره بما نُشِر والقرارات التي اتّخذتها الحكومة بهذا الشأن.

أثناء جلوس ممثّل الرئاسة مع عبد الحفيظ، وهو يسمع منه رواية ما حدث صباح اليوم، كان عقله قد شرد بعيداً في استحضار لحظات متفرقة من سنوات قديمة في حياته، تتعلق بأمور حدثت لم يهتمّ بها كثيراً، وظنّ وقتها أن ما فكّر فيه مجرد ظنون عابرة، لكنه الآن بات يعيد التفكير في تلك الظنون، ويعيد تأويلها على أنها حقائق.

ففي ليل بعيد، قرّبته ذاكرة (الابن) بعد أن سمع ما قاله ممثّل الحكومة، جرت أحداث غريبة: كان عبد الحفيظ عائداً من سهرة ليلية مع مجموعة من أصدقائه، كانوا يحتفلون بعيد ميلاد أحدهم، وقد كان سكراناً تماماً نتيجة الإفراط في الشراب.

حتى لا يشعُر به والده الذي ينام في الصالون الخارجي بالمنزل، منذ أن توفيت زوجته ووالدة عبد الحفيظ، قبل أكثر

من سنة، قام الابن بإيقاف السيارة خارج البيت، ولم يدخل بها إلى الحوش الداخلي لكي لا يثير إزعاجاً بفتح الباب الخارجي فيوقظ والده.

يتذكّر أن الصالون كان شبه مُضاء، وليس من عادة والده أن يترك الإضاءة مشتعلة، حيث لابد له أن يطفئ المصباح قبل النوم. كذلك ليس من عادته أن يسهر إلى ما بعد منتصف الليل، فهو ينام مبكراً في العادة.

اتّخذ عبد الحفيظ طريقه نحو الصالون، ونظر من خلال الزجاج شبه المعتم إلى داخل المجلس الكبير، ليرى مشهداً لم يُصدقه في البداية، وحكّ عينيه أكثر من مرة عسى أن يتخلص من تأثير السُكر فيستطيع الرؤية بشكل أفضل، لكن في المرة الثانية لم ير شيئاً فمسح ظنونه وتأكد بأن خيالاته كسكران رسمت الصورة الأولى.. صورة والده وهو يمارس العادة السرية أمام شاشة التلفزيون الذي يعرض مشهداً لمجموعة من الصبية في أوضاع شاذة.. على أكثر الاحتمالات فإن المشهد عبارة عن جزء من فيلم على شريط فيديو.

لم يطرق باب الصالون، ليتأكد هل كان والده مستيقظاً بالفعل أم لا، فقد رأى الإضاءة قد غابت فجأة أو أنها لم تكن حاضرة أصلاً.. ليس بإمكانه التمييز. كان قد خاف أن يطرق الباب فيعلم والده بأنه سكران، فيحدث ما لا تحمد عقباه. لذلك ذهب إلى غرفته بالطابق العلوي من البيت، واستسلم للنوم.

في الصباح تخيل أن ما رآه مجرد أضغاث أحلم، لأن الوالد كان قد استيقظ مبكراً جداً كعادته ليؤدي صلاة الفجر في المسجد، لذلك نسي عبد الحفيظ ما حدث أو ما لم يحدث.. لم يكن يدرك وقتها، ونسي كل ذلك مع الأيام.

الآن فقط، أصبحت المشاهد تتداعى أمامه، على أنها حقيقة. وتذكّر ما قيل له ذات مرة، وظنّه قولاً على سبيل المزاح. كان ذلك من قِبل أحد أصدقائه عندما اختلفا بشأن فتاة ليلٍ من ينام معها أولاً.

تهوّر عبد الحفيظ وقال لصديقه الذي أصرّ أن ينام أولاً معها:

- لو جاء والدي لن أتركه ينام معها قبلي.

ردّ عليه الصديق ضاحكاً بسخرية:

- ها.. ها.. هي.. وهل تظنّه سيرضى بالنوم مع جسد بثديين؟

"كم هو مؤلم أن تكتشف الحقيقة متأخراً، وبعد أن يكون والدك في موقع لا يحسد عليه"، قال عبد الحفيظ مُحدّثاً نفسه سراً، قبل أن يُودّع ممثّل الحكومة بتوهان وبرود شديد، والألم يعتصر قلبه، وهو في حالة من غياب التركيز على تفاصيل الأشياء من حوله، للدرجة التي جعلته يتمنى لو أنه غاب عن العالم قبل أن يكون مقتل والده.

6

اتّخذ مرتضى طريقه إلى المنزل القائم على ناصية الزقاق المتفرع من الشارع الرئيسي، في وقت متأخر من الليل، ليجد في انتظاره النقيب فضل الله، وبمجرد أن التقت عينا الرجلين لم يكن أمامهما سوى تبادل الابتسامات، ومن ثم الضحك بصوت مبالغ فيه، يكاد يشقُّ سكون ليل الخرطوم في بيت من الطين يحتل مساحة صغيرة على أطراف مدينة أم درمان.

قاد فضل الله مرتضى من يده وسط صالة شبه مظلمة إلى أن وصلا إلى غرفة صغيرة في نهاية البهو، كان بابها مفتوحاً ويجلس بداخلها على أريكة خشبية متهالكة رجل ممتلئ الجثة يفوق وزنه مجموع وزني الرجلين.

كان الرجل يدخن بشراهة وهو يفتل شاربه الكثيف ويغني بصوت مبحوح أغنية سادت تلك الأيام لمغنٍ جديد من المغنين الشباب، ولأن الرجل لا يحفظ كلمات الأغنية جيداً، فقد عمل على إبدال بعض الكلمات بأخرى من وحي خياله، دون أن يخل بالمعنى، لأنه لا معنى أصلاً..

أشار الرجل ضخم الجثة إلى فضل الله بالجلوس، في حين بقي مرتضى واقفاً ينتظر الاذن له، لكن العقيد الضخم

(ميسرة) لم يأذن له، وبدلاً من أن يرد التحية التي وجهها مرتضى وحده، قال موجّهاً حديثه للحائط:

- يبدو أن كل شيء يسير وفق الترتيب.

فهم فضل الله أن عليه الانتظار وعدم الاستعجال، فعادة العقيد أن يثرثر كثيراً مع نفسه بصوت مسموع لمن حوله، قبل أن يشرع في الحوار المفيد والمطلوب. لكن مرتضى لم يكن يفهم ذلك، فهذه هي المرة الأولى التي يقابل فيها العقيد، لذا علق قائلاً:

- الخرطوم كلها تتحدث اليوم عن شريط الفيديو.

بشكل غير متوقع، وبطريقة مفاجئة وقف العقيد ميسرة بسهولة لا تناسب وزنه الثقيل، واستدار دورة كاملة عكس عقارب الساعة، لينهي الدورة بصفعة قوية على خد مرتضى الذي وقع طريحاً على البلاط البارد.

تُعرف تلك الطريقة من التعامل في مفهوم العقيد بالتأديب المبكّر، فهو يؤمن بأن المجندين الجدد في المجموعة يجب ألا يشعروا بالأهمية، وينبغي أن يشعروا دائماً بأنهم ذباب لا قيمة له. ومنذ أن تكونت الخلية السرية قبل عامين، كان العقيد ميسرة قد درّب أفراده على التمرحل في التعامل مع القائد إلا في حالات استثنائية كحالة مرتضى، فشخصيته في تقدير فضل الله تستحق التعامل معها بشكل مختلف احتراماً لعقله الفريد.

بدأ مرتضى الأنين، وفهم أنه قد دخل في مأزق لن يستطيع الخروج منه بسهولة، وراح يعاتب نفسه قائلاً: "يبدو أنني استعجلت في اتّخاذ القرار بالانضمام إلى هذه العصابة.. ويبدو أنني كنت أكثر استعجالاً في تنفيذ أول أمر كُلِفت به، ثقةً مني بأن القائد سيعجب بي وسيكافئني في أول لقاء لي معه، فها هو يقابلني بهذه الضربة القوية، الجارحة للقلب".

قبل أن ينهض مرتضى من على الأرض، وفق أوامر النقيب فضل الله وبلهجة صارمة، بدا معها - لمرتضى - كما لو أنه شخص مختلف غير ابن عمته الذي يعرفه جيداً، كانت يدا العقيد الثقيلتان قد جرّتا الجسد الخفيف مثل ريشة، ورفعتاه إلى أعلى. ونطقت شفتا ميسرة المتورمتان:

- مرحباً بك في المجموعة وأعتقد أن لك مستقبلاً ناجحاً.

لم يعلق مرتضى فقد أدرك من الدرس الأول الذي تلقاه قبل قليل أن عليه الصبر والاستسلام وعدم الخوض في كلام غير مدروس، لكن العقيد لم يتركه حيث صفعه مجدداً وقال له بعنف:

- لماذا لم تعلق؟

هنا جُنّ مرتضى ولم يعرف كيف يتصرف، "فهو أمام عصابة لا يستطيع المرء أن يتكهن بطباع أفرادها أو يتوقع ما

يرغبون فيه بالضبط!"، هكذا فكّر وحدّث نفسه: "يبدو أنني أحتاج إلى زمن طويل لأفهم معنى كل سؤال وما المراد وراء كل إشارة".

كاد أن يسرح في أفكاره بعيداً: "ما بين الندم على استعجاله بالانضمام إلى هذه (الجماعة الغريبة)، والرغبة في الانتقام من المجتمع الذي حرمه من أن يحقق أحلامه رغم تمتعه بشروط الإنسان الناجح والطموح ومقوماته كافةً".

لكن القائد لم يعطه الفرصة للسرحان فقد جلس مجدداً على الأريكة الخشبية وأمره بالجلوس أخيراً، وبدأ بتوجيه عدد من الأسئلة له، تتعلق بالعملية الأولى التي كُلِف بها والتي نُفِذت بالأمس.

بمجرد أن شرع العقيد ميسرة في الحوار، شعر مرتضى بأنه أمام شخص آخر غير الذي كان يصفعه قبل قليل، شخص لطيف جداً يتندر من كل أشكال الحياة والعالم، نهم للمعرفة والإدراك ويتمتع بذكاء خارق، طريقته في الحوار والمناقشة ذكّرت مرتضى بالبروفيسور ميرغني جبر السيد الذي كان أستاذه في الجامعة، ذلك الرجل القادر على تأليف نظرية عن خلق العالم في دقائق يقنعك بها ومن ثم يدحض النظرية ذاتها في أقل من زمن تأليفها، وبالطريقة المقنعة نفسها في المنطق والبيان.

بمرور الوقت كانت حالة مرتضى النفسية قد تعدلت ونسي

الصفعتين القويتين وأحس أنه أمام عقيد يستحق الاحترام بالفعل لمعرفته الغريبة والمدهشة، فحدّث نفسه بأنه لم يخطئ في اتخاذ القرار بانضمامه إلى هذه الجماعة، قال: "نعم أمثال هؤلاء الناس هم الذين يستحقون أن يكونوا على رأس هرم المجتمع".

7

قبل ثلاثة شهور.. كان مرتضى سيد أحمد قد انضمّ إلى المجموعة التي تطلق على نفسها العديد من الألقاب مثلاً: خلية، عصابة، جماعة تنويرية، وغيرها.. والتي نشأت بفكرة من (ميسرة نور الدين) الذي بدأ حياته إسلامياً "متزمتاً"، ثم تحوّل إلى اشتراكي ثم جمهوري يتبع لجماعة محمود محمد طه الذي أُعدم من قبل سلطة جعفر النميري في18 يناير/ كانون الثاني 1985 بتهمة الردة، وانتهى المطاف بميسرة أن يتخلص من أشكال العقائد كافة لتصبح عقيدته الوحيدة هي المادة، المال بكل بريقه وسطوته.

وقد لعب عقله الوثّاب وكثيرُ الأسئلة والمستفز بفكرة خلق العالم، دوراً في توصيله إلى حالة من التوهان التي لم يقدر على مقاومتها في البداية، ليصل في الخلاصة إلى نتيجة مهمة في تقديره أن على المرء أن يعيش من أجل المال لا غير فهو الإله الحقيقي للعالم، والذي يستحق الصلاة بكل خشوع، ولأجل هذا (الإله الساحر) يحل القتل وترويع الناس وفعل كل شيء. لكن لكي يحصل الإنسان على المال يجب أن يمارس الانتقام أولاً، من جميع أشكال الرأسمالية والنفوذ الذي يمارس باسم المادة.

يطلق ميسرة على نفسه لقب (عقيد)، ويوزع الألقاب على جماعته التي تعمل سراً دون علم الحكومة، بنظام شبه عسكري، ويؤمن بأن عليه أن يفعل ما بوسعه لإرضاء إلهه الجديد بجمع كميات ضخمة من الأموال، من رجال الأعمال والمتنفذين والرأسمالية الجديدة في السودان، وذلك بممارسة جميع أشكال (العنف الذكي) كما يطلق عليه، وهو طريقة في الابتزاز تقوم على تنفيذ جرائم لإرضاء (إلهه الساحر)، بحيث يجعل من يقومون بهذه الجرائم يعيشون الحالة على أنها تخصهم وأنهم يقومون بعمل جميل من أجل ذواتهم لا من أجل الآخر.. من ورطهم في الفعل .

وقد استفاد (العقيد) من تقنية العمل الجماعي لدى الإسلاميين والاشتراكيين بالسودان في بناء نظام حلقي دقيق، بلغ عدد المنتمين إليه ليلة اغتيال السيد عبد الله العربي 83 عضواً موزعين على ولايات السودان، 60 منهم بالعاصمة الخرطوم، ومن ضمن المجموعة 13 فتاة عازبة وسيدتان متزوجتان، وجميع الأعضاء من خريجي الجامعات ومن المتفوقين، الأذكياء.. الذين ضيّعوا سنوات في انتظار وظائف دون أن يصلوا إلى نتيجة.

ونسبة إلى سرية العمل وخشية اختراق المجموعة، فقد عملت على نظام صارم في تجنيد الأفراد، فهذا العدد تم تجنيده خلال ما يقارب الثلاث سنوات، منذ أن تحرّك ميسرة نحو هدفه في الربع الأول من سنة 2004، منطلقاً بخلية

صغيرة من الأصدقاء الذين التقوا حول الفكرة ومن ثم تحولت إلى واقع عملي وبدأت بالمراحل الفعلية التي "ستجني فيها ثمار الانتظار"، حسبما يردد ميسرة كثيراً: "حتماً ستقترب ساعة الخلاص.. فبمجرد أن نبدأ بجني المال سوف تتغير حياتنا وحتماً سوف نسيطر في المستقبل على البلاد، وفي ذلك الوقت الذي لن يكون بعيداً سنعمل على إعادة بناء العالم وفق مبادئنا، لنحقق الحياة التي نحلم بها، بعد أن نكون قد تخلصنا من كل السماسرة واللصوص".

***

يتذكر مرتضى بدقة الطريقة التي استدرجه بها ابن عمته فضل الله للانضمام إلى المجموعة، حيث جاء تعميده بعد رحلة استغرقت قرابة نصف العام، وبعد أن تأكد فضل الله تماماً أن مرتضى يتمتع بالمواصفات الكاملة التي تؤهله لدخول الخلية.

كان مرتضى قد أكمل دراسة القانون بجامعة الخرطوم في سنة2001 بعد رحلة معاناة وشظف، وكان يظنّ كغيره من الشباب الطامحين بأن الغد سوف يكون مضيئاً بالأحلام الجميلة التي سوف تجد طريقها إلى التحقق، وقد عجز طوال خمس سنوات أن يعثر على مجرد وظيفة تافهة، بعد أن أكمل الخدمة العسكرية.

عمل في البداية موزعاً للألبان في حي الثورة بأم درمان حيث كان يقطن مع والدته وأخته العانس سعاد التي تجاوزت الأربعين بسنتين، وعمل ثانية في كشك لبيع المرطبات بالخرطوم بحري وثالثة في مطعم بالسوق العربي، وطوال هذه التنقلات كان عاجزاً عن تدبير حياته وحياة والدته وأخته العانس، لكن وضع الشقاء والألم لم يمنعه من مواصلة هوايته القراءة المتعمقة، حيث واصل مشروعه في مطالعة الكثير من الكتب التي تتعلق بالمجتمعات البشرية والفكر والفلسفة والروح وتاريخ الإنسان والديانات، وكان كلما قرأ كتاباً جديداً وصل إلى قناعة بأن ما يحدث في الواقع يجب أن يتغيّر.

"لكن ما هي الطريقة؟!"

لم يكن يحمل إجابة معينة، إلى أن وصل به الحال إلى الكفر بكل شيء، وكاد أن يدخل في حالة من التوهان المُدمّر، إلى أن قاده فضل الله تدريجاً إلى دخول الخلية السرية.

كان فضل الله يزورهم في البيت بين فترة وأخرى، وفي الشهور الأخيرة ما قبل تعميد مرتضى كثرت زياراته وأحياناً كان يبيت معهم في المنزل.

كان فضل الله.. هو الآخر بلا عمل، حيث تخرج منذ أكثر من عشر سنوات من كلية الهندسة المعمارية بجامعة

الخرطوم، وقد فشل في الحصول على أي عمل يُمكّنه من صنع حياته، فالوظائف تقسم على الموالين للنظام الحاكم.

في تلك الليالي كانت تدور حوارات مكثفة بين مرتضى وفضل الله حول ما يعيشونه من وضع بائس، وحول الأحلام المؤجلة التي يبدو أنها ستتلاشى مع السنوات، وبالطبع لم يكن مرتضى يدرك أن لدى ابن عمته خطة منظمة ومتدرجة لجرّه نحو الانضمام إلى الخلية، خاصة بعد أن أخذ موافقة مبدئية من العقيد ميسرة على تجنيد ابن خاله.

مع مرور الأيام وبعد حوالى ستة شهور انتهى الأمر بتوقيع مرتضى عقد الانضمام إلى الخلية في حفل مُصغّر حضره أربعة من الأعضاء منهم فتاة، عرّفوا بأسمائهم وذكروا ألقابهم العسكرية، حيث كانوا من الصف المبدئي، ملازماً، ملازماً أول.

لم يدرك مرتضى هل كانت تلك الأسماء حقيقة أم لا؟.. لكنه لم ينشغل بهذا الأمر.

لاحقاً فهم أن الأسماء كانت حقيقة وأن هؤلاء الأربعة هم مثلهُ تماماً يعيشون أسوأ الظروف الإنسانية، وأنهم مستعدون لفعل أي شيء من أجل المبادئ التي يصوغها ويروّجها القائد ميسرة، الذي كان كل منهم يحلم بلقائه، وقد تحقق لمرتضى هذا الحلم اليوم.. فها هو أمام الرجل الذي سمع من فضل الله عنه كثيراً..

"أمامه ليس ثمة خيال أو حلم، بل واقع يشبه الأحلام،
عليّ أن أستمر فيه إلى النهاية المجهولة"
هذا ما قاله لنفسه سراً قبل أن يودّع قائده على أمل لقائه
في أقرب وقت يقوم النقيب بتحديده.

8

"لماذا تم اختيار السيد عبد الله العربي دون غيره من عشرات رجال الأعمال والرأسماليين السودانيين لتنفيذ أول عملية اغتيال، من قِبل قائد الخلية؟"

كان هذا السؤال يدور في ذهن النقيب فضل الله ساعة أعلن العقيد ميسرة الاسم.

شرح ميسرة أسباب اختيار الاجتماع المصغّر لمجلس قيادة الخلية، والمكوّن من خمسة أعضاء فقط :

- تعلمون أن عبد الله العربي يتمتع بشعبية كبيرة في البلد وكثير من عامة الناس يحبون هذه الشخصية ويشيرون إليه كرجل وطني ساهم في الكثير من المشروعات التي تخدم الناس بشكل مباشر.

سكت ميسرة قليلاً، ثم تابع:

- أعرف أنكم ستفكّرون أن اغتيال مثل هذا الرجل ضد المبادئ التي نؤمن بها، خاصة أننا جميعاً نفكر في البسطاء الذين هم أمثالنا، وهم يستفيدون من عطايا هذا الرجل كما تظنون.. لكن تفهمون جيداً أن (التاجر العربي) - هكذا سيصبح لقبه لاحقاً عند ميسرة - ليس إلا مجرد دجال يوزع

الفتات على الشعب، إليكم الإحصائيات التالية وهي دقيقة مائة بالمائة.

أمام العقيد ميسرة مجموعة من قصاصات الصحف المتناثرة ويلاحظ أن جميعها صحف أجنبية مصورة من الانترنت، أشار إليها واستمر في التوضيح:

- هذه المجموعة من الأخبار والتقارير التي قام عضو نشط في الخلية بجمعها من الانترنت تبرهن قولي، إليكم التالي على سبيل المثال:

* استثمر التاجر العربي 75 مليون دولار في مجال الاتصالات بإفريقيا في أقطار شبه منسية، وكان ذلك في حدود أقل من عامين.

* خلال العام الماضي قام بتبرع لجامعة في ساحل العاج بمبلغ خمسة ملايين دولار أمريكي.. سنترك الحديث عن الأسباب!

* يكشف تقرير نُشر قبل ثلاث سنوات أن التاجر العربي يحتل قائمة أبرز الأسماء المرشحة لتولي منصب رئيس غرفة التجارة الإفريقية التي وُلِدت كمشروع لم ير النور بعد، وذلك على هامش اجتماعات الاتحاد الإفريقي في أديس أبابا، ويذهب التقرير إلى أن فكرة الغرفة التجارية من بنات أفكار التاجر العربي وأنه دفع ما لا يقل عن 30 مليون دولار كرشى لدول إفريقية لتدعم مشروعه، الذي يهدف إلى مدّ نفوذ إمبراطوريته الخداعة.

لخّص ميسرة فكرته بالقول:

- في مقابل ذلك والذي يمثل مجرد إشارات إلى ما لا نعلمه، فإن حسبة سريعة لمجموع ما قدّمه كأعمال خير في البلاد - كما يدّعي - لا يتجاوز المليون دولار على مدى أكثر من عشرين سنة.

واصل العقيد بشيء من الانفعال:

- السؤال الأهم من كل ذلك كما يقولون (من أين لك هذا؟)، هذا الرجل ورث ثروة عن أبيه، بناء على صفقة تمت قبل أكثر من مائة سنة بيعت فيها أرض الوطن للمستعمرين، وهذا أمر لا يعرفه إلا قلة من الناس، لأن الخوض فيه سوف يُقلق مضاجع الكثيرين ممن ينظرون إلى والد التاجر العربي بوصفه رجل فضيلة وخير وعلم من أعلام الكفاح الوطني، ممن سيقولون إنه في الواقع لم يحدث هذا الشيء، لكن الحقيقة أن الجد كما الأب كما الحفيد الآن، جميعهم عصابة اغتنت بأموال باطلة. والمشكلة أن مثل هذه المعلومات تمّ إخفاؤها بهدف تضليل عامة الناس، لاسيما البسطاء.. والذين مارسوا التضليل هم أصحاب هوى في أن يستمر الوضع على ما هو عليه بالبلاد في سيطرة مجموعات معينة على الوضع الاقتصادي والسلطة، وللأسف فإن هذا يتمّ بأسماء مختلفة ولغات مضحكة، وفي النهاية فإن جملة هذه الجماعات التقليدية من أحزاب وطرق صوفية وبيوت مزخرفة بالولاءات، كل هؤلاء ما هم إلا جزء من لعبة التضليل التي تمارس على

عامة الناس الذين يستمرون في الشظف والعيش على الكفاف وستر الحال.

انتهى العقيد ميسرة إلى النقطة المهمة في تقديره والتي تمثل مدخلاً للتخلص من التاجر العربي:

- قلة تعرف أن التاجر العربي رغم كل هذه الصورة المشرقة في نظر العامة، رجل مصاب بالشذوذ الجنسي، وقد قمنا باستقصاء حول هذا الموضوع إلى أن وصلنا إلى التحقق من ذلك، وهذا هو المدخل الرئيسي والهام الذي سنبدأ به صياغة الخطة التي ستمكننا من القضاء على الرجل.

كان السؤال المطروح في ذهن عضو مجلس القيادة، النقيب سفيان موسى، يتمثل في الهدف النهائي من وراء العملية..

طرح سفيان السؤال، فردّ العقيد قائلاً:

- حسب (المانفستو) الذي تدركونه جيداً، فإن أولى الخطوات في تمكين المجموعة تتطلب خلق بلبلة في الدولة.. نحن نعمل على استغلال المناخ غير المستقر في البلاد لمصلحتنا، فنجاحنا في هذه العملية سوف يجعل الكثيرين يفكّرون في الحكومة بوصفها هي التي قامت بهذا الأمر، خاصة بعد أن ازدادت العداوة بين الرجل والحكومة، وأنتم تدركون أن الحكومة تمارس تضييقاً على أعمال العربي بالسودان، الأمر الذي دعاه إلى نقل بعض استثماراته إلى الخارج، وهناك أخبار نشرتها بعض الصحف أخيراً تشير إلى

أن هناك مفاوضات غير معلنة مع ابن التاجر العربي الذي يدرس في الولايات المتحدة بهدف زجّه في منصب وزاري بالحكومة عقب عودته إلى السودان أو على الأقل محاولة احتوائه من قبلهم من أجل استخدامه كورقة ضغط على والده.. ولكن في نهاية الأمر لن تستطيع الحكومة الاستغناء عن التاجر العربي، رغم الخلاف بينهما، والذي يرجع حسب معلوماتنا إلى صراعات مالية لا غير..

أشعل ميسرة سيجارة، نفث دخانها في هواء الغرفة الصغيرة، واستطرد:

- ربما يذهب الاتهام أيضاً إلى جهات أخرى مثل الجماعات المتطرفة الوليدة في البلد والتي تفكر بعقل يؤمن بنفي كل من يخالف أفكارهم العقائدية الغريبة.. في الخلاصة نحن سنعمل على استغلال هذه المعطيات كافة بهدف أن نُسيّر الأمور لمصلحتنا.. ينبغي دراسة كل شيء بترتيب ودقة قبل الشروع في العمل. وأخيراً فإن التاجر العربي بوصفه من كبار العنصريين الذين يؤمنون بعروبة السودان ويحبذون شرذمة البلاد حيث يؤيد انفصال الجنوب، لأن ذلك يخدم هدفه المادي البحت، فإن موته سيفرح الكثير من أبناء السودان من غير ذوي الأصول العربية، فهم سيكونون في غاية السعادة لموت واحد من العنصريين الكبار الذين يكرسون لعروبة السودان بالقول لا الفعل، لأن المفارقة أن الرجل يُوظّف

معظم أمواله في الأقطار الإفريقية جنوب الصحراء، لا البلدان العربية.

واصل ميسرة:

- في الخلاصة فإن المطلوب في هذه المرحلة هو خلق حالة فوضى من خلال ما سنقوم به.. جعل الأطراف الكبيرة تتناحر ذاتياً حتى تأتي اللحظة المناسبة لنا لنبرز كمُخلِّصين، لنفاوض على ما نريد.. لا تنسوا أن هدفنا النهائي هو سعادتنا من خلال الثروة، وفي الواقع سنتحول إلى رأسماليين جدد بلا أخلاق.. على الحياة أن تدخل دورة جديدة وأن يتم استبدال مجموعات متنفذة وبيوتات سيطرت على البلد لأكثر من قرن، بدماء جديدة.. هذا هو هدفنا بالتحديد.

ختم العقيد الاجتماع:

- فلسفة الانتقام هي صميم رؤيتنا، ومن لا يفهم ماهية الانتقام الذي نعنيه، لن يفهم لماذا يجب علينا أن نقضي على الرؤوس الكبيرة.. النظرية بسيطة ومعقدة في الوقت ذاته، لكن أعتقد أن الرجوع إلى (الكتاب التأسيسي) الذي من المفترض أن كل عضو قد قرأه قبل التعميد، يشرح المسألة بوضوح.

انتهى الاجتماع بوضع خطة مبدئية، طالب القائد الأعضاء بالعمل على تطويرها بالعصف الذهني الذاتي، على أمل أن يكون الاجتماع القادم بداية التحرك العملي الحقيقي لرسم الخطة.

9

في الليلة التالية للاجتماع وتحت ضوء القمر، ظلّ فضل الله يفكّر في احتمالات الأيام القادمة، مراجعاً ما قاله العقيد ميسرة، ولجزء من الوقت عاش حالة من الخوف، من المستقبل، المجهول، ما الذي يمكن أن يحدث في الغد وهل ستسير الأمور على ما يرام أم لا؟

داخل حلقات التفكير المستمر مع الذات، وهو غير قادر على النوم، يشعر كما لو أنه إنسان غير سوي، يسأل نفسه: "ما هي الخلاصة وما الذي نبحث عنه بالضبط؟.. وهل صحيح أن التاجر العربي بالصورة البشعة التي يرسمها ميسرة؟"..

واصل التفكير ليصل إلى سؤال مقلق: "هل يمكن للإنسان أن يصل إلى درجة من التيه تحوّله إلى مجرم وقاتل؟".

فكّر أيضاً، أنه من ناحية مبدئية وبالنظر إلى الأمر من غلافه الخارجي يمكن أن يتمّ تعريف ما سيقوم به والمجموعة على أنه جريمة، لكن من تصور داخلي عميق فإن الأمور تُقرأ بعكس هذه الصورة، "فالإنسان في أحيان كثيرة يتوه في

تعريف الأشياء حيث تختلط المفاهيم وتضيع القِيَم، ما هو الحد الفاصل بين القيمة واللاقيمة، بين المظلوم والمجرم؟!".

مضى ذهنه في استحضار شريط حياته العريض، دون طول، منذ أكثر من ثلاثين سنة، ساعة كان صبياً مفعماً بالتوقعات والآمال، وحيث كان يحرص على صلاة الفجر في المسجد برفقة والده، ويوم كانت والدته تبخّره كل صباح قبل الذهاب إلى المدرسة، خشية أن تصيبه العين، والحجاب الذي صنعته له عند (الفكي حمدين) شيخ الخلوة بالرميلة البعيدة التي جاء منها في شمال السودان.

كان الزمان أكثر إشراقاً، وكان الصبي يرى أن العالم سيكون محمولاً على التوقعات الجميلة.

ومرت السنوات، ليجد فضل الله نفسه في مواجهة عواصف الزمن الجديد.

يتذكّر يوم دخوله الجامعة وكيف أن الأسرة فرحت بهذا الحدث التاريخي، وكيف أن الرميلة تحوّلت إلى عرس كبير، والسرور الذي دخل قلب والده، لكن كل تلك اللحظات الحلوة والناصعة البياض، تحولت مع مرور السنوات إلى سواد عظيم يكاد يغطي السماء. فقد كانت الثقة بالعقل كذّابة وتلاشى كل شيء، إلى أن جاء اليوم الذي تعرّف فيه على ميسرة لتبدأ قصة جديدة غير مفهومة النهايات.

كثيراً ما يدخل في مثل هذه الحالات من الشك العميق

تجاه كل شيء، حتى الخلية التي أصبح جزءاً منها، بل عصباً أساسياً في تكوينها وساهم في توسعها خلال الشهور الماضية بشكل كبير. لكنه يقطع الشك دون مقدمات بالعودة إلى صورة الواقع المزري الذي يعيشه، وأحلامه التي ماتت، ووالده الذي تحوّل تفاؤله القديم بولده إلى خيبة كبيرة في العالم، بعد أن رأى ابنه الناجح يتحول إلى إنسان عاطل في نظر المجتمع، غير قادر على اتخاذ أي قرار، حتى حُبّه القديم مات، فزميلته في الجامعة سوسن عز الدين التي اتفق على الزواج منها بعد التخرج خذلته بعد أن رأت فيه عجزاً عن صناعة حياته، فكل شيء في حياته كان مؤجلاً لغيب مجهول وغامض.

تزوجت سوسن تاجر سيارات مستعملة لا يجيد كتابة اسمه، كان الخبر مفجعاً وقاسياً، وكان على فضل الله أن يتناسى لأن النسيان صعب، وبقيت الحياة تجرّ الذلّ والهوان وضيق الحال.

وصل إلى قرار ذاتي في اللحظة التي غطى فيها السحاب ضوء القمر في حوش المنزل الذي يقطنه مع مجموعة من أبناء البلد الذين يعملون بالخرطوم في مهن مختلفة من الجزار إلى العتالي إلى السمسار إلى الكمساري.

يقول له القرار: "واصل الطريق ولا تتوقف، ما الذي ستخسره.. هل ستخسر المستقبل؟ وما هو ذلك المستقبل

المشرق الذي تنتظره؟ ولنفترض أن النهاية كانت الموت في يوم تنكشف فيه الخلية وتنتهي نهاية مؤسفة، ما الذي سيحدث؟.. لا شيء.. لا شيء (كرر العبارة أكثر من مرة)".

كاد أن يصرخ.. رآه أحد الشباب ممن يسكن معهم في المنزل المكتظ بشتى أصناف البشر، فأدرك أنه لا يزال مستيقظاً، فسأله:

- ما الذي منعك من النوم حتى الآن؟

- لا شيء.. لا شيء..

ردّ متضايقاً.. واستمر في تكرار العبارة، دون أن يشعر بالأشياء من حوله، وكاد أن يدخل في حالة من الجنون الموقت، حتى عاد إلى قراره الباطني، الاستمرار في المغامرة إلى النهاية: "يجب أن تكون شجاعاً بما يكفي.. لا تخف.. لا شيء.. لا شيء ستخسره أكثر مما خسرت".

***

عندما فضفض لميسرة بهذه الحالة التي تنتابه، فسّر ميسرة الأمر كالتالي:

- مثل هذه الحالة من الدوران في التفكير والعودة إلى مربع الاستسلام، للخطوة الأخيرة، يمرّ بها غالبية الذين انتموا إلى الخلية، لكنهم في نهاية الأمر يجدون أنفسهم أمام الواقع.. المصادمة التي يجب أن تكون.

- تخّيل ما الذي سيكتبه التاريخ عنّا ذات يوم؟.. هل سيكتب أننا كنا مجرمين؟

- لا تنشغل بأشياء قد لا تعيشها، ليكتبوا ما شاءوا.. شرف الإنسان أن يعيش حراً، والحرية لا توهب بل تؤخذ بالقوة وبالعنف والدم.. ليس في زماننا هذا، كان ذلك على مدى التاريخ البشري.

- لماذا لم نتخذ طريقاً واضحاً وعلنياً؟

- تعني أن نؤسس حزباً سياسياً؟! مجموعة إصلاحية، منظمة شعبية،.. هذه المسميات الهلامية؟!..

يضحك ميسرة بسخرية وبصوت عالٍ، يتردد صداه في الغرفة الطينية الصغيرة، يشعل سيجارة، هي آخر ما تبقى بالباكيت الصغير ماركة برنجي، ينظر إلى فضل الله، يقول له:

- لا تكن جباناً، فكّر بعقلانية.. تذكّر أن في التاريخ أناساً عظماء أمثال هتلر وموسليني والحجّاج بن يوسف، وحتى أسامة بن لادن.

- أسامة بن لادن؟

- نعم.. صدّقني أنني أحترم هذا الرجل على الرغم من اختلافي معه في الأفكار التي يدعو إليها.

- في أي جانب تحترمه؟

- كونه يؤمن بشيء معين ويعمل بجدية من أجله..

- لكن أسامة خرج من عباءة العزّ والمال؟

- هذا هو مربط الفرس، وهذا ما نبحث عنه، لنصل إلى هدفنا في الحياة.. أليس كذلك؟

تتواصل الحوارات وتتشعب في موضوعات عديدة، وفي بعض الأحيان تعود إلى النقاط ذاتها التي بدأت منها، فميسرة يمتلك قدرة على جعل الأعضاء يزدادون ثقة بذواتهم يوماً بعد يوم، بحيث يصبحون أكثر تفاعلاً مع أفكار الخلية وأحلامها.. كان يختصر بعض النقاشات التي تطول وتبدو اعتباطية بعدم الوصول إلى نتائج محددة بقوله لمحاوريه من أعضاء الخلية:

- لنتأكد جميعاً من شيء واحد أننا نلعب، هذا العالم ليس إلا مجرد لعبة كبيرة، ولأجل هذا الهدف كان.. لهذا يجب أن نستمر في اللعبة إلى النهاية، صدقوني لا شيء في العالم له قيمة في حد ذاته.. القيمة تُكتسب من خلال تحويل الشيء إلى لعبة مسلية، هذه هي الحياة.

ورغم ضخامة جسده كان ميسرة قادراً بمنطقه وفلسفته على أن يبدو في نظر محاوريه خفيفاً جداً مثل ريشة، يُرى وهو يتحرك بسهولة عندما يشرع في تفنيد الأمور ووضعها في النصاب الذي يعتقد صحته، بطريقة تقنع من يجلس إلى جواره.

في نظر العديد من أعضاء الخلية يبدو القائد شخصاً بطاقة غريبة: "فهو لا ينام إلا ساعتين إلى ثلاث ساعات في اليوم على أكثر تقدير، كما أن عقله يعمل بطريقة مدهشة في

ابتكار الأفكار، كما أنه موسوعة غير عادية في تاريخ الإنسانية وتاريخ السودان بالتحديد.

كانوا يتساءلون:

"كيف كوّن هذه المعارف؟

وكيف استطاع أن يُكوّن معجماً عن تاريخ معظم الشخصيات المتنفذة في البلاد؟"..

كان ذلك أيضاً من الجوانب المدهشة في تلك الشخصية في نظر الأعضاء.

عندما ينظر إليه فضل الله يشعر بطاقة قوية تملأه وتعبئ كلّ مسامات روحه، ليُحدّث نفسه: "أي بلد هذا ؟!.. إذا كان أمثال ميسرة يضيعون هكذا في مهب الريح، فليس ثمة عدل في هذا العالم، وفي هذا البلد بالتحديد".

ما يشعر به فضل الله يكاد ينطبق على جميع أفراد الخلية الذين يرون في ميسرة الأب الروحي الذي لا مجال للخروج على طاعته، ويعتقدون: "أن له جاذبية خفية المصدر، لا يحسها إلا الناس الذين يتمتعون بعقول وثابة وبارعة في الخيال، أما الذين يعيشون في دوائر الظلام فليس أمامهم سوى رؤية كائن ضخم الجثة كأنه من حيوانات عصور ما قبل آدم".

10

في اليوم الذي اتضحت فيه الخطة النهائية لتنفيذ عملية الاغتيال، أقامت الخلية احتفالاً مُصغّراً سُمِح فيه لعدد من الأعضاء من خارج مجلس القيادة بالحضور، دون أن يتمّ إخبارهم في البدء بأن هناك مهمة قادمة سيكون على بعضهم تولي بعض الأجزاء في إنجازها.

كان الهدف من الاجتماع، يتعلق بطلب القائد ميسرة رؤية مجموعة من الأعضاء المميزين ليتعرّف عليهم عن كثب، ومن ثم يختار منهم الذين ستقع عليهم بعض المهام في العملية الرقم واحد، والتي أطلق عليها اسم (عربي).

بدت مشاعر الابتهاج على الأعضاء بسبب رؤيتهم القائد الذي طالما حلموا بالتعرف عليه، وقد مارس ميسرة طريقته المعتادة في الترحيب بقسوة، ومن ثم الانتقال إلى روحه الجوهرية كشخص مرح ومحاور ومثقف قادر على جذب الجميع.

بنهاية الاحتفال كان قد عمل على شحن الأعضاء بطاقة هائلة على الصبر والمصادمة وتوضيح العديد من البنود التي يتوجب وعيها من أجل المستقبل:

- ما نرغب فيه أولاً هو أن نكون على ثقة بأنفسنا، وأن نفهم أن جميع الذين تمكّنوا من صنع الحياة هم كائنات مثلنا ينامون ويحلمون ويستيقظون، يأكلون ويشربون ويتغوطون.. نحن لدينا قوة العقل التي ستمكننا من الإدراك والوعي التام لمهمتنا التاريخية، وستجعلنا دائماً أقوياء وقادرين على المضي إلى الأمام دون خوف.. ما الذي سنخافه؟ هل نخاف كائنات مثلنا؟ إنه لأمر مُخزٍ بكل تأكيد أن يخاف الإنسان من إنسان مثله. سأختصر لكم الأمر بفكرة مبسطة.. تخيلوا.. ليس الإنسان إلا جهاز حاسوب إذا استطعت أن تصل إلى البرمجة الخاصة بجهاز معين، بإنسان معين، تستطيع أن تسيطر عليه وتغلبه. لن أقول لكم إنني ساحر أو نبي أو مهدي أو أدّعي أي ادّعاء، أنا مثلكم وجزء من الخلية، كلنا جسد واحد. إذا آمنا بهذا الأمر سنعمل كحاسوب كبير وسنتمكن من خلق سعادة حقيقية لنا من خلال إلهنا المال.

من الطبع أن يكون لدى عدد من الأعضاء الذين يقابلون القائد لأول مرة بعض الأسئلة التي تدور بأذهانهم، وقد جاءت الفرصة المؤاتية للحصول على إجابات لها.

ابتدأ العضو جيمس البالغ من العمر 26 سنة، وهو مسيحي ينحدر من قبيلة الدينكا في جنوب السودان، تخرج في كلية القانون بجامعة الخرطوم.

طرح جيمس سؤالاً يتعلق بفلسفة الانتقام والمغزى منها:

- لقد قرأت الكتاب التأسيسي بدقّة، أعتقد ذلك،

ويشغلني السؤال التالي: هل نستطيع من خلال التخلص من كبار المسيطرين على الثروة، أن نحصل عليها، أعتقد أنّ في النظرية شيئاً من عدم الوضوح؟ بمعنى كيف يمكن أن نصل إلى حالة السعادة من خلال المال؟ لا سيما إذا كانت العمليات التي من المفترض أن تنجزها الجماعة في المستقبل، لا يوجد وراءها ابتزاز يؤدي إلى تحصيل مادي، كما يحصل في العراق على سبيل المثال، عندما يتم اختطاف شخص معين بهدف الحصول على مبلغ محدد. فمن خلال ما فهمت أن الاغتيالات التي من المفترض أن تقوم بها الخلية في المستقبل لن تُجنى منها أي ثمرة مادية مباشرة.

لم يجب ميسرة عن السؤال، بل ترك للأعضاء الآخرين المشاركة في صنع الإجابات، من خلال طرح كل منهم لأفكاره الخاصة ورؤيته حول سؤال جيمس.

بادر خالد وهو عضو يوصف من قبل عضو القيادة الذي قام بتجنيده قبل أكثر من عام، سفيان موسى، بأنه عضو نشط على المستوى العقلي، وهي صفة تكاد تنطبق على غالبية المنتمين إلى الخلية:

- في تقديري أن الأمر واضح وفق الكتاب التأسيسي، لقد قرأته أكثر من مرة وبشكل جيّد، وفيه عمل قائدنا على صوغ نظرية العمل للخلية بشكل بارع جداً.. ليس هذا من قبيل المدح، لكنها الحقيقة..

طالب سفيان، خالد بالدخول في محاولة الإجابة عن سؤال جيمس، دون طرح مقدمات مطولة:

- من المهم أن نتخلص من الكثير من العادات السلبية في المجتمع.. الثرثرة دون أن نقدم عملاً مفيداً.. من الجيّد أن تباشر في طرح رؤيتك لما استفسر عنه الأخ جيمس.

ابتسم خالد بشكل مقتضب، لكنه وسّع ابتسامته عندما رأى القائد ميسرة يرمقه بطريقة تدلّ على الرضا، فواصل قائلاً:

- سأقول للأخ جيمس إن العودة إلى الكتاب التأسيسي ستبين له الأمر جليّاً، فالطرح النظري يقوم على تمجيد الانتقام بوصفه قيمة إيجابية بعكس المُتّبع في ثقافتنا.. إنها نظرية الثأر ذاتها التي تمارسها القبائل البدائية. يعمل القائد على إعادة قراءة هذه النظرية القديمة وفق رؤية عصرية تجعلها أكثر حيوية وديناميكية، حيث يرى أن الثأر الحقيقي هو الثورة ضد القيم الخاطئة، هو مقاومة إيجابية تقوم على العنف الذكي. لكن لا مفر من استخدام القتل لكي يصل الإنسان إلى نفي القيم القديمة واستبدالها بقيم جديدة. هنا يُعيد القائد رد الاعتبار للقتل بوصفه عملاً جميلاً لا العكس عندما يُفسّر على أنه جريمة ضد الإنسانية. يظل جملة المنجز في المرحلة الأولى مجموعة من الاغتيالات التي ستطرح من قائمة الكبار والمسيطرين، لتكون النتيجة حالة من الفوضى التي يعاد بعدها

تركيب النظام القيمي والاجتماعي. هنا سنكون نحن أول المستفيدين.

قاطع النقيب فضل الله خالد، بسؤال يختبر به فهمه:

- ولكن هل تهدف الخلية إلى الإصلاح الاجتماعي في تقديرك؟ لقد فهمت من كلامك أن ثمة لحظة ما سيعاد فيها تركيب المجتمع. ما الذي تعنيه بذلك؟ فالكتاب التأسيسي واضح في طرح الهدف: الثروة الذاتية.. سعادة كل الأعضاء الذين سينتمون إلى الخلية، ولا المجتمع ككل.. بمعنى أننا لا نبحث في النهاية عن سعادة لكل الناس، بل لنا نحن وحدنا.

كان فضل الله يفهم الإجابة جيداً، وأدرك ميسرة مغزى السؤال. هنا كان خالد أمام اختبار حقيقي، لكنه نفذ منه بسهولة، عندما ردّ بسرعة:

- ماذا سيحدث لو أن كل أفراد المجتمع أصبحوا أعضاء في الخلية؟ أي أصبحت الخلية هي كل المجتمع.. (المجتمع = الخلية)؟

نظر ميسرة إلى خالد بإعجاب، ولم يجد بداً من الإشادة به علناً:

- نعم.. هنا يتضح كل شيء، وهذا عمق النظرية.. تفضل خالد في توضيح رؤيتك.

واصل خالد:

- في اللحظة التي يصبح فيها كل المجتمع هو الخلية أو الجماعة، هنا سيكون الهدف إسعاد كل الناس، كل الشعب..

ربما من ناحية عملية لا يمكن أن يحدث ذلك الأمر، لكن من ناحية نظرية هو ممكن.. وفي الرؤية العلمية يستند المرء إلى الأمور النظرية، بمعنى أنه إذا تحقق الشيء نظرياً فإنه من الممكن أن يتحقق في الواقع. المهم أن الفكرة تتضح كالتالي: إذا أردت أن تعيش سعيداً وأن تقدّس إلهك الجديد المال، فكن عضواً في الخلية، وإلا فستكون خاسراً لأن الثروة ستتمركز لدى أعضاء الخلية فقط.

طرح العضو فخر الدين النور سؤالاً ظلّ يقلقه منذ فترة. بسماعه العبارات الأخيرة من طرح خالد، جاءت اللحظة المناسبة للسؤال:

- ما يشغلني.. أين هو العدل هنا؟! هل نتحول أخيراً وبدافع الانتقام أو كما نُسمّيه الانتقام الإيجابي إلى لصوص جدد، بل لصوص مارسوا القتل أولاً قبل أن يسرقوا؟! نحن نعرف أن اللص يذهب ليسرق فإذا اعترضه الضحية، قام اللص بقتله، وما نفعله نحن أننا نعكس ذلك، نريد أن نقتل قبل أن نسرق.

كان فخر الدين يتحدّث بشيء من الانفعال، فهو مشحون بحالة من التوتر الداخلي، فما يعانيه اجتماعياً من فقر وتبطّل، يجعله لا يجد خياراً في الحياة سوى الاستمرار في الانتماء والإخلاص للخلية، بعد أن كره كل العالم.

تولى ميسرة بنفسه الجواب عن سؤال فخر الدين بعد أن

رأى انفعاله، ففهم الحالة التي يعانيها من خلال قراءة تعبيرات وجهه التي كانت واضحة لمعظم المجتمعين:

- يجب أن نكون أكثر موضوعية وأن نفهم الأمر بتجريده من فكرة الكراهية.. نحن لا نكره أحداً.. نحن نمارس لعبة الصراع، لأننا فهمنا العالم على النحو الصحيح.. وفي الفهم الصحيح لا وجود لكلمة اسمها مجرم، هناك إنسان ذكي يحقق أحلامه بجميع الأشكال التي يستطيع أن يمتلكها وأن يوظفها، على نحو ميكافيلي (الغاية تبرر الوسيلة).. لكن التطور في نظريتنا على ما تطرحه الميكافيلية أننا نوضح غاية واحدة للحياة هي المادة بفهمنا الجديد لها في الكتاب التأسيسي.

واصل ميسرة توضيح فكرته:

- لقد انتهى الزمن الذي يكون فيه الحديث عن العقل كقيمة في حد ذاته، فالعقل لا يشكّل أي قيمة مهما بلغت درجات وعيه وتفكيره. (العقل القيمي) فقط هو الذي يحمل معنى للحياة، وهو العقل الذي يخطط وينفّذ ويلعب بشكل سريع وبارع ويكون (مجرماً) باستخدام التعبير التقليدي للكلمة التي ينبغي أن تُمحى من القواميس. لا أفهم ما الذي يعنيه شخص ما عندما يقول إن فلاناً مجرم؟! لا شيء اسمه الإجرام. الإنسان عندما يكون ضعيفاً وغير قادر على صنع حياته وفق ما يرغب، يلجأ إلى ابتكار مفردات مثل ظالم، مظلوم.. مضطهِد ومضطهَد.. عادل وغير عادل.. وغيرها.. كلها

كلمات لا معنى لها، لأن المعنى يكمن في الصراع. أن يفوز من يوظّف عقله في سبيل ما يريد، وبأي شكل كان، أن يسرق، يقتل، يكون عنيفاً إلى أبعد الحدود.

واصل ميسرة وسط إصغاء تام من قبل الأعضاء:

- بمعنى مباشر نحن نريد للجميع أن يتحولوا إلى (مجرمين)!!

ابتسم ميسرة واعتذر لاستخدام الكلمة بشكل مجازي: لأنه لم يتوصل بعد إلى كلمة بديلة مناسبة، وواصل:

- ما يجمع بين طرف وآخر هو المصلحة، هذا ما يمنع وقوع (الجريمة) أياً كان نوعها.. لكن في اللحظة التي يتضح فيها لأي طرف أن الطرف الآخر يخونه أو يقف ضدّه، عليه أن لا يتوانى عن ممارسة (العنف) الذي يراه مناسباً ليصل إلى هدفه..

رأى ميسرة أن عيني فخر الدين تلتمعان، كأنما تستفسران عن نقطة معينة، ترك له طرح ما يفكّر فيه.. تحدث فخر الدين:

- إذن ما الذي يضمن مستقبلنا ككيان متوحد، لأنه بهذه الطريقة لا يوجد شرط واحد للأمان، أو ما يضمن وحدتنا في غياب قيمة الحب.. فكل عضو سيعيش حالة من الرعب والخوف الداخلي من العضو الآخر، إذا ما عشنا وفق هذا الأسلوب المربك.

ردّ عليه ميسرة، بعد أن وقف وتهيأ لمواصلة شرح ما أورده في الكتاب التأسيسي سلفاً:

- كما قلت هناك مصلحة هي التي تجمع.. تتمثل هذه المصلحة في وحدة الهدف.. لكن من حق أي عضو إذا رأى أن بإمكانه أن يقوم بفعل (إجرامي) ما، ضد عضو آخر، أن يفعل هذا الشيء دون أدنى تفكير أو إحساس بالذنب.. لكن ما أعتقده أنه من ناحية عملية لن يحدث مثل هذا في الوقت الراهن، ربما يحدث في المستقبل إذا ما نجحت الخلية في الوصول إلى الهدف، بعد أن يكون لها السيطرة والنفوذ في السودان.. وقتها ستتعدد الأهداف والمصالح وسيبدأ الصراع الحقيقي الذي سيجعل للعبة الحياة معناها.

سكت ميسرة ثواني قبل أن يُكمل:

- أريد أن أوضح أمراً هاماً، يتعلق بتفكيرنا الحالي.. وهذا بمثابة إعلان للأعضاء الذين يحضرون هذا الاجتماع.. أننا سنقوم قريباً بتنفيذ أول عملية اغتيال، سنكشف عنها لاحقاً، للأعضاء الذين سيُكلّفون تنفيذ أجزاء من المهمة المتشعبة والمعقّدة.. هدف هذه العملية ببساطة هو بداية التطبيق العملي لفلسفتنا حول رؤية العالم على نحو جديد.. بالعودة إلى المفاهيم التي سبق أن أشرت إليها في الكتاب التأسيسي وفي هذا الاجتماع.. سنكون بالطبع حذرين جداً، ولا نريد من أحد أن يثق بالآخر، بمعنى إذا رأى أي عضو من الأعضاء الذين سيشاركون في العملية أن هناك مصلحة

ذاتية بالنسبة إليه تفوق ما يقوم به، أي تفوق مصلحة الخلية، فلا داعيَ لأن يتردّد في الإخلاص لمصلحته الذاتية، حتى لو كانت هذه المصلحة إبلاغ الحكومة بما سننوي القيام به.. إذا رأى العضو أنه سيحقق فائدة مادية أو غيرها من خلال عملية الإبلاغ، فلا يتردد.

بدا كلام ميسرة الأخير مفاجئاً للجميع، لكن ميسرة أكد:

- شخصياً لا أثق بأي واحد منكم؟

وبصرامة قال:

- إذا ما كنت واثقاً بأحد فهذا يعني أنني أعتقد عكس النظرية التي قمت بصوغها في الكتاب التأسيسي.

وسط نظرات الإعجاب من الأعضاء، ختم ميسرة كلامه:

- على مدى التاريخ البشري، كانت النظرية التي أدعو إليها قائمة بالفعل، لكنها لم تكن صوغ بشكل مُرتّب يسهل فهمها.. ما قمت به أنني أعدت مصوغة ما هو موجود ومُجرّب.. وهكذا تكون النظريات.. إنها لا تأتي بجديد، لا تخترع.. بل تعيد اكتشاف ما هو قائم..

استطرد يقول:

- منذ أن قتل قابيل هابيل اتضحت الرؤية تماماً، وقبلها منذ أن خرج الشيطان على طاعة الله، وتحدّاه بأن يُغوي العالمين وبدأ مشروعه فعلياً بإغواء آدم وحواء.. الرؤية التي تقول بأن ثمة صراعاً لابد منه، يقوم بتوظيف جميع الإمكانات والوعي العقلي.. صدقوني إن الحياة لا تكتسب

جماليتها إلا من خلال هذا الشيء.. وصدقوني أكثر أن خلق القوانين في المجتمعات، ليس إلا نوعاً من (الجرائم) التي ارتكبها بعض الناس ضد آخرين، وكان هدف صانع القانون ببساطة أن يستمر في تحقيق مصلحته.. هذا (المجرم) الذي صنع قانوناً يسيطر به على الآخرين، كان أذكى من الذي حمل السكين ليقتل آخر.. وهنا يكون الجمال الأعمق، بأن نكون (مجرمين) بارعين كالذين صنعوا القوانين، وكالذين خلقوا العديد من الأنظمة التي تُسيّر الحياة والتي يراها عامة الناس أنها تصبّ في مصلحتهم، بينما هي في خلاصة الأمر تصبّ في مصلحة من قام بعملية الخلق.. فعلى سبيل المثال، عندما أشتري سلعة ما أشعر بالفرح لأنني أصبحت أمتلك هذا الشيء. لقد امتلكت شيئاً جميلاً ورائعاً بالفعل، يشعرني بالسعادة، لكنني في الوقت نفسه قمت بخدمة إنسان آخر دون أن أدري بأنني خدمته بأن جعلته يتفوق عليّ بأن خصمت من رصيدي المالي.

نظر ميسرة إلى الجميع بابتسامة واسعة. جميع الأعضاء بادلوه الابتسامة ذاتها تقريباً. كان كل من المجتمعين ينظر إلى الآخر وهو يسأل نفسه السؤال ذاته: "إلى أي مدى أنا متأكد من أن ابتسامتي هذه حقيقية ونابعة من القلب؟".

قال جيمس سراً: "مأزقٌ أن يجد الإنسان نفسه يتعلم من جديد!".

وفي الخارج عندما كان فخر الدين يرافق جيمس في طريقهما نحو محطة المواصلات العامة، قال له:

- صدقني يا جيمس، في هذه اللحظة بالتحديد، لا أعرف طبيعة المشاعر التي تنتابني، هل أنا ذلك الإنسان الذي أعرفه أم شخص آخر؟ لقد نسفت أفكار ميسرة كل أفكاري القديمة وتجاربي. أعتقد أنني يجب أن أبدأ بقراءة كل ما قرأته من قبل مرة أخرى، لكي يتسنى لي الفهم بناء على علاقتي الجديدة، التي بدأت تتشكل مع العالم.

11

في يوم اغتياله، كان السيد عبد الله العربي قد اتّخذ طريقه إلى مكتبه في السابعة صباحاً، يعتمر عمامته الكبيرة ويرتدي جلبابه الأبيض الناصع، وبالطبع لم تكن لديه أي فكرة عمّا سيحدُث بعد أربع ساعات، لكن مشاعره الداخلية حدّثته بوساوس لم يعرف مصدرها، بعد حلم رآه قبل يومين، رأى فيه نفسه مُغطى بالقطن .

فسّر الحلم بناء على معرفته بالأحلام وهي معرفة متوارثة في عائلته.. على أنه خير كثير قادم: "القطن يمثل إحدى علامات الثروة"، فجدّه كان يعمل في تجارة القطن من السودان إلى لندن، في شراكة مع الإنجليز الذين كانوا يحكمون البلد قبل أكثر من نصف قرن.

عندما قال لابنه عبد الحفيظ في ظهيرة الأمس: "توقع كل شيء حتى القتل".. لم يكن يتحدث عن مخاوف ذاتية، كما حاول الابن تفسير دلالة هذه الكلمات في المستشفى، بل كان يعني أمراً مختلفاً يتعلق بتغيرات كانت تحدث في البلد بشكل عام، فأجواء الخرطوم كانت محمومة نوعاً ما، قليل من الأشياء يمكن فهمها في الواقع الجديد، وأشياء كثيرة لا مجال لفهمها أبداً.

كان تحذير الوالد يعني لابنه الاحتراس، وأن يفهم أنه ربّما يكون لديه أعداء غير مرئيين، خاصة أن الابن وحسب مشروعه الطموح الذي جاء به من الولايات المتحدة، ومن خلال مناقشاته مع الوالد وبتقديره، سوف يصبح بعد شهور قليلة أحد كبار المسيطرين على سوق العقارات بالخرطوم.

كان عبد الله العربي يدرك هذا الأمر جيداً، وكانت لديه ثقة بأن نجاح الشركة العقارية سيحدث سريعاً، لكن مخاوفه كانت ترتبط بالمستقبل ساعة يكون الابن في مواجهة سماسرة السوق المتدربين جداً على مقاومة المنافسين.

بالنسبة إليه كتاجر قديم ويفهم خطوط اللعب بذكاء فائق، فقد اتّضحت له أساليب التحايل واللعب بالمنافسين، الذين كان يراهم مثل كرات صغيرة يعرف كيف يرمي بها في كل الاتجاهات دون أن يفكّر أو يفتح عينيه، لكن بالنسبة إلى ابنه فالوضع يختلف تماماً، لأن عليه أن يختبر الأحوال مع الأيام ليفهم أن عليه أن يمارس المزيد من الاحتراس والصبر، خاصة أن عبد الحفيظ رفض أي دعم مباشر من والده فيما يتعلق بالتدخل في طريقة العمل والتسويق.

أفهمه والده:

- لا أشك أنك سوف تنجح.. لأنك ابني، ولأن الجميع سوف يتعاملون معك بناء على هذا الاعتبار.. فأنت لن تنجح لقدراتك، لأن هناك من يملكون قدرات أفضل منك في إدارة

الأعمال من أبناء جيلك، لكن منظومة الحياة هنا تقوم على الأفضلية لمن كان له تاريخ.

- أي تاريخ تعني؟

- تاريخاً تجارياً.. سجلاً عائلياً حافلاً بالثروة والجاه.. لا غير.. هذا ما يحتاجه الفرد في بلد كالسودان ليكون ناجحاً.

يدرك عبد الحفيظ أن ما يقوله والده ليس دقيقاً إلى مدى بعيد، ففي اعتقاده أنه خلال ربع القرن الأخير تغيّرت البلاد كثيراً وظهرت طبقات جديدة من التجار الذين لم يعرف لهم أي تاريخ عائلي كما يقول والده.

وإذا كان من الصعب للابن أن يدير حواراً مع والده يقوم على الموضوعية فقد آثر أن يُبدي ظاهرياً قناعته بما يصوغ الوالد من أقوال، وأن يدرك أن والده لم يتغير منذ سنوات بعيدة، فهو الشخص ذاته الذي لا يمكن أن تحاوره أو تناقشه بشكل علمي دقيق، ولا يمكن أن تفهم مغزى ما يقوله بالضبط في اللحظة ذاتها، خاصة مع أقرب الناس إليه.

قال العربي لابنه:

- أنا كأب أتمنى لك النجاح، لكن أقول لك كن حذراً، فالسودان الذي أعرفه جيداً ليس هو السودان الحالي.

- أنا متأكد من هذا، ونحن كجيل جديد ندرك ذلك.

- لكن يا ولدي أنت تنتسب إلى جيل لا تفهمه على النحو المطلوب!

تغيرت ملامح عبد الحفيظ ورأى في عبارات والده

الأخيرة نوعاً من الاستفزاز: "رغم ما تدسّه من معانٍ مستترة قد تكون صحيحة بعض الشيء".

قطع الوالد على الابن تفكيره، وأوضح له:

- أنت تعلمت بشكل جيّد، ولا ينقصك شرط من شروط النجاح، لكنك لم تحتك بجيلك كما ينبغي لأنك قضّيت معظم حياتك بعيداً عن الجيل الذي تتحدث عنه.

كان الوالد يتخيل أنه قد خبر الكثير من صفات الجيل الجديد من خلال خبرات عملية، في مجال تخصصه الآخر، غير التجارة، أي في الشذوذ الذي يعانيه، منذ صغره.. فمن خلال هذا الجانب الخفي من حياته، كان قد تعرف بشكل سري على مجموعة من الشباب الذين كان ينفق عليهم بسخاء ويمارسون عليه ابتزازاً مادياً، يصعب التخلص منه كرجل غير قادر على كبت مشاعره كعاشق وولهان بممارسة الجنس مع شباب حليقي الشوارب، أي يفتقدون الرجولة - وفق تفسير السودانيين - الذين يرون في الشارب علامة للرجولة.

لم يكن السيد عبد الله العربي يدرك أن هذا الجيل الذي يتحدث عنه، ليس هو الجيل الجديد من الشباب السوداني بشكل مطلق، بل مجموعة صغيرة جداً من الشباب الذين يتمتعون بصفات خاصة، لا تنطبق على الأغلبية.

ولم يكن يعلم أن الصفات التي يتحدث عنها بوصفها صفات نادرة الحدوث كمهارة الابتكار والدقة في المواعيد، ليست إلا صفات ثلاثة من الشباب الذين تعرف عليهم منذ ما

يقارب العام ونصف العام، والذين داوم على ممارسة الجنس معهم بحيل لم يدركها من قبل.

أعاد في ذهنه استحضار تلك الحيل المبتكرة التي جعلته ينظر إلى الجيل الجديد بإعجاب كبير، وإيمان بذكائه، ليقول لابنه:

- يا ابني، جيلكم هذا مبدع، ولكن كل شيء هنا يسير بترتيبات وضعت سلفاً منذ زمن بعيد، ولهذا من الصعب على المرء إذا ما افتقد التاريخ، أن يجد موطئ قدم له في هذا البلد.

يتحدث الوالد عن شيء ويتحدث الابن عن أمر مختلف.. خيال الوالد وهو يلفّ أكمام جلبابه بسرعة قبل أن ينهي الجلسة مع الابن في الصالون الكبير، اعتمد على تجريب محدود مع ثلاثة من الشباب الذين اعتبرهم نموذجاً لجيل كامل، وعلى إعجابه بحيلهم المبتكرة في ممارسة الجنس.. في الوقت الذي كان فيه الابن يفكّر في أمور أخرى تتعلق بالعمل، ولم يدر بذهنه قط أن والده يستوحي أفكاره من خلال لقاءات خاصة وسرية جداً، تتم في منتصف الليل في مزرعته الواقعة في أطراف الخرطوم بجوار النيل الأزرق.

12

لم يدرك السيد العربي أنه قد وقع في فخّ الخلية السرية التابعة لميسرة، أو أن الشباب الثلاثة الذين يتحدث عنهم كنموذج للجيل الجديد، هم أعضاء في خلية لها أهداف خاصة.. لأنه لا يعرف شيئاً عن تلك المجموعة.. وبالطبع كان من الممكن لأي شخص آخر أن يقع في فخهم بسهولة، خاصة إذا كان شخصاً يعاني معاناة العربي ذاتها في عشقه لجنس الذكور.

وبحسب الخطة التي صاغها القائد ميسرة، فقد جرت الأمور بشكل دقيق، حيث تم تكليف خالد بعد اجتماع خاص مع القائد بضربة البداية:

- المهمة التي ستقوم بها سهلة جداً من حيث الإطار العملي، وصعبة جداً من حيث الإطار الخلقي.

ضحك خالد وهو يردّ على القائد:

- الخلقي.. أي أخلاق تتحدث عنها، سيدي؟!

من المفضّل أن يُخاطب القائد بلقب (سيدي)، هذا ما فهمه خالد من مُجندِه سفيان موسى عضو القيادة.

أوضح ميسرة الأمر ببساطة:

- لقد تم اختيارك لأنك في تقديري قادر على نزع هذه النقطة، الأخلاق.. ولأنك من الأعضاء الذين يؤمنون تماماً بالقيم الجديدة التي ندعو إليها، لقد بدا لي أنك تفهم جيداً ما نريد وأنا أثق بك.. لكن هناك سبباً آخر للاختيار، وهو السبب الأهم، لأن كثيراً من الصفات الأولى التي ذكرتها تنطبق على غالبية أعضاء الخلية، فأنت تعرف أننا نختار عضويتنا بدقة تامة، حيث لا مجال بيننا للعقول الفقيرة والمتعفنة.

أنصت خالد بحماسة إلى السبب الأهم في تقدير القائد، والذي قال:

- أنت شاب وسيم، وبقوام يُغري كل من يفكّر في ممارسة الجنس مع بني جنسه من الرجال.

بدأت علامات الاستغراب على وجه خالد، وفكّر مع نفسه سراً: "ما الذي يعنيه ميسرة بالضبط؟".. فهو لم يفكّر في مثل هذه الأمور من قبل.

واصل الحديث مع الذات: "صحيح أن المسألة أصبحت جدّية وأن الأخلاق قد سقطت، لكن ليس إلى هذه الدرجة!".

قطع عليه ميسرة تفكيره قائلاً:

- أفهم ما تفكر فيه.. دعني أختصر لك الأمر.. المهمة المطلوبة منك تتعلق بهذا الأمر الذي تتخوف منه، لكن ينبغي أن تكون شجاعاً وأن لا تجبُن من البداية.

تمالك خالد نفسه، وتشجع للقول:

- أنا مستعد لأي فعل، وأنت تدرك ذلك، وإلا لما قمت باختياري.

عدّل ميسرة جلسته، وأشعل سيجارة في نهار الخرطوم الساخن، ثم ردّ:

- وأنا متأكد من هذا تماماً.. (برافو)..

واصل ميسرة التمهيد لسرد المهمة:

- ستكون مضطراً في بعض الأحيان وفي سبيل أن تصنع حياتك أن تفعل أشياء كثيرة غير محبذة، إذا ما كنت مؤمناً بالهدف الذي تعمل من أجله.

- لا شك في ذلك..

- إذن دعنا ندخل في المهمة، هل أنت في غاية الراحة النفسية لنبدأ؟

- كما تراني..

- أراك مسيطراً على الأوضاع.. أنا أثق بعقلك.. الإنسان هو عقله لا جسده.

- تماماً، وقد فهمت هذا بتحليل شيق من خلال قراءتي للكتاب التأسيسي.

- لن نخوض الآن في حوار فلسفي أو جدلي، سندخل في العمل، فقد انتهت فترة التنظير.. سأوجّه لك السؤال التالي: إذا كُلِّفت دخول تجربة لممارسة الجنس مع رجل هل ترفض هذا العمل؟

أضاف ميسرة بابتسامة صغيرة:

- رجل عجوز وقبيح المنظر.

- ما الهدف؟

- سنوضّح لك الهدف الذي يتعلق بمصلحة الخلية..

- إذا كان الهدف واضحاً فلن أتردد!

قال خالد ذلك، رغم أن مشاعره الداخلية كانت تتحرك بشكل سلبي تجاه ما سيقال، فطوال حياته لم يفكّر ذات يوم أنه سيتحول إلى شاذ جنسياً.

قرأ ميسرة مشاعر خالد السلبية.. وبشكل غير متوقع قال له:

- ثمة فرق بين أن تكون شاذاً جنسياً، وبين أن تمارس الجنس مع رجل لهدف تكتيكي.. هذا ما يحكم الأمر، أظنك من العقل والثقة بقدراتك بحيث تتفهم هذا الأمر.

تدريجياً استطاع خالد السيطرة على مشاعره السلبية تجاه الفعل اللاخلقي (وفقه منظومته القديمة في الوعي) أما الآن فقد اختلفت الأشياء، فالعالم الذي يعرفه خالد ويؤمن بقيمه ليس هو العالم القديم الذي كان يدركه ويؤمن به.

ميسرة من جانبه ترك لخالد حرية التفكير لدقائق، بعد أن تركه وحده وخرج ثم عاد، ليسمعه يقول بكل ثقة:

- أنا سعيد جداً بأن أقوم بالمهمة الموكلة إليّ.

وابتسم وهو يقول أيضاً:

- الحمد لله.. أنني أتمتع بالوسامة والقوام الذي جعلني مؤهلاً لهذه المهمة، الأمر الذي يُكسبني ثقتكم سيدي.

بعد هذه الكلمات، فهم ميسرة أن قراره باختيار خالد كان دقيقاً جداً، بادلهُ الابتسامة بشكل مقتضب، ليدخل في سرد تفاصيل المطلوب تنفيذه بأسرع وقت.

13

دخل خالد في صراع نفسي، هل يقف عند هذا الحد ويغادر، أم يستمر؟.. مرّ أسبوع فاصل، دون أن يتدخل ميسرة أو سفيان موسى الذي يكاد يعرف المهمة التي كُلِف بها خالد.

بنهاية الأسبوع قرر خالد أن يستمر، بعد أن توصل إلى النتيجة التالية: "ما الذي سوف أخسره؟.. شرفي! وأي قيمة للشرف، بعد أن ضاعت كل أحلامي القديمة وطموحاتي"..

القرار الذي اتّخذه بالمُضي في المغامرة إلى النهاية، جعله يسترجع حياته التي بدأت بنجاح وانتهت بالهزيمة النفسية بعد تخرّجه من الجامعة وفشله في الحصول على عمل أو السفر خارج السودان كما يفعل أبناء جيله الذين يحلمون بعالم جديد في الغربة والمهاجر. وزاد من قلقه أنه رأى كيف أن الواقع بات مشغولاً بالمفارقات المؤلمة بالنسبة إليه.. كيف أن بعض زملائه من العاطلين عن الموهبة استطاعوا أن يصنعوا حياتهم ويصبحوا أصحاب مراكز اجتماعية، في الوقت الذي ذهبت به (هو) الحياة أدراج الرياح القاسية.. "رياح الزمن الجديد الذي التهم كل القيم".

انتهى أسبوع القَلق، ليجد خالد نفسه مشحونة بالرغبات والجنون في مواصلة المشوار، غير مكترث لكل إرثه الخلقي الذي كان قد بدأ نسفه تماماً منذ أول يوم تمّ تعميده فيه بعد أن أصبح أحد أعضاء الخلية.

"الأمور بسيطة جداً في السودان" دائماً ما يردد القائد، يتذكّر خالد العبارة.. التي فسّرها كالتالي: "لكي تنجح في شيء.. في السودان تحديداً، يجب ألا تفكر بعمق.. فأسهل الطرق هي الأقصر وهي التي تؤدي إلى النجاح.. أما إذا أراد المرء أن يضلل نفسه فلينظر إلى الواقع بشكل مُعقّد".

بناء على رؤية القائد التي تُبسّط الواقع، بدأ خالد المهمة، رغم الشكوك التي كانت تنتابه من وقت لآخر بأن خطة ميسرة تبدو ساذجة..

تحرك مع الصباح الوليد، صباح يوم الاثنين.. اتّخذ طريقه إلى الموقع المحدد الذي يجب أن يقف عنده في انتظار أن تمر سيارة السيد العربي بجواره، بعد قليل، في حوالى الساعة السابعة والنصف صباحاً.

في اليوم الأول مرّت السيارة.. ويبدو أن العربي الذي تعود قيادة سيارته بمفرده، لم ينتبه إلى الشاب الوسيم الواقف عند الشارع الصغير المؤدي إلى بيته، لهذا لم يوقف السيارة.. كما أن العربي حذرٌ بعض الشيء، لهذا تكون خياراته دقيقة ومدروسة.

لكن اليوم الثاني حمل مفاجأة سعيدة لخالد عندما رأى

عيني الرجل تقتنصان النظر نحوه بابتسامة صغيرة، لكن السيارة لم تتوقف أيضاً..

هنا دخل خالد في دائرة من اليأس، لكنه تذكّر كلمات ميسرة: "لا تيأس وتذكّر أن المهمة تحتاج بعض الوقت.. صراعك النهائي مع الوقت، ولا مع العربي.. أنا متأكد أنه في نهاية الأمر سوف يكون طوع إرادتنا".

يتوقف العربي أحياناً على جانب الطريق ليحمل معه في السيارة شباباً يشيرون إليه ليركبوا معه، أو يتوقف بمحض إرادته ساعة يرى شاباً لا يتمالك نفسه أمام وجهه الذي يطابق صورة معينة في ذهنه، للوجه الذي يبحث عنه في أضغاث أحلامه ويقظته لكي ينال مبتغاه منه. لكنه نادراً، بل من النادر جداً أن يكون شجاعاً إلى النهاية في طلب ما يبحث عنه، لأنه يخاف على سمعته كرجل له مكانته في المجتمع.. رغم أن بعض الناس يتناقلون من وقت لآخر أخباراً عن الرجل من قبيل: أنه مبتلى بعشق الذكور.. يتناقلون ما شاءوا، دون أن يحملوا تأكيدات جازمة على أقوالهم.

العربي لا يكترث كثيراً لما يُقال، حيث أنه يؤمن بأن وضعه المادي يجعله يسيطر على كل الأمور، ويدرك: "أن الناس باتوا لا يحترمون الإنسان لشرفه وأخلاقه وقيمه السمحة.. بل أصبحت هذه الصفات من مفردات الأمس، وربما لم تكن موجودة أصلاً.. فما يبحثون عنه يتلخص في

المال، إذا ما وجده أحدهم نسي كل شيء آخر وتحول إلى عبد مخلص لهذا الإله الجديد للناس".

ولكي تظل صورته مشرقة دوماً، وحتى يزيل الكلام الذي يمكن أن يتناقله بعض الناس، كان يحرص على أن يبدو أمام المجتمع بصورة رجل الخير الباحث عن الثواب، فقبل ثلاثة أسابيع فقط من توقفه بسيارته لخالد في اليوم الثالث لوقوفه في الشارع ذاته، وفي المكان ذاته.. كان قد تبرع بمبلغ كبير من المال لإقامة مسجد في قرية على أطراف الخرطوم، بعد أن زاره بمكتبه وفد من أعيان القرية، وكان الخبر يحتل الصفحات الأولى من صحف الخرطوم في اليوم التالي.

المقربون من السيد العربي، من الأعيان الكبار من ذوي الوضع المادي المحترم، كان بعضهم، يدرك طباع العربي وأنه يلعب على التناقضات في ذاته وفي المجتمع.. لكن الأمر لا يهمهم إلى مدى بعيد ما دامت مصالحهم مع الرجل غير معرضة للضرر.

يدرك العربي أيضاً هذا الأمر، ويفهم: "أن لكل واحد من هؤلاء الجالسين معه على سرج واحد، معايبه التي يمكن أن تشوّه صورته أمام الناس.. فإذا عمل طرف على أن يشوّه صورة الآخر، بناء على هذه المعايير المرتبطة بالقيمة الخلقية، فسوف تبدأ حرب شعواء لن تتوقف بسهولة، يمكن أن تستخدم فيها أنواع الأسلحة الإعلامية كافة، فبتوافر المال يفعل الإنسان ما شاء.. لهذا فإن معظم الحروب التي تدور

بين الأطراف الكبار، تقتصر على الصراع المتعلق بالمال، ونادراً ما تستخدم فيها تلك الجوانب الخفية.. أحياناً تستخدم لكنها لا تؤثر بشكل فاعل، لأنه من الصعب أن تتغير الصورة عند كثير من عوام الناس، بعد أن أعمتهم القيم الجديدة عن رؤية الأشياء بوضوح".

***

ركب خالد إلى جوار السيد العربي، وفهم من الابتسامات الأولى للرجل أنه ليس ذلك الشخص الذي طالما رآه على شاشة التلفزيون أو رأى صورته في الصحف.

أما العربي فقد كان يقود السيارة ماركة مرسيدس موديل السنة، بين شوارع ترابية غير منظمة، وينظر إلى خالد من لحظة لأخرى قبل أن يبتدر معه حواراً عادياً، بسؤاله عن اسمه ومكان عمله.

بالطبع كانت المعلومات التي أفاد بها خالد غير صحيحة، حيث ذكر للعربي أنّ اسمه سمؤال وأنه عاد قبل ثلاثة أسابيع من الخليج العربي، حيث يعمل والده هناك مستشاراً اقتصادياً بإحدى شركات النفط.

سأله العربي عن الحياة في الخليج، فأجابه خالد بعبارات معتادة ويمكن أن تُفهم بأكثر من وجه.. إجابات مثل: "الحياة تغيرت كثيراً.. أنا شخصياً عدت إلى العمل في السودان، لأن

الخليج لم يعد مُجدياً.. كما أن والدي يفكّر في العودة أيضاً".

- وهل عثرت على عمل؟

- حتى الآن لا.. أنتظر أن يقوم والدي بالاتصال ببعض الأصدقاء بهدف أن يساعدوني على الحصول على وظيفة.

- وما هو مجال تخصصك؟

- لقد تخرجت قبل ثلاث سنوات في مجال هندسة الكومبيوتر بإحدى الجامعات الكندية.

- كندا بلد جميل، لقد زرته أكثر من مرة.. لماذا لم تبقَ هناك؟

- لم تساعدني الظروف على البقاء، ذهبت إلى الدراسة ولم أذهب إلى العمل.. كما أن كندا لم تعد كما كانت في الماضي.. كثير من السودانيين الباحثين عن العمل هناك، عادوا إلى الخليج العربي.

- بالنسبة إلى موضوع وظيفتك لا تقلق كثيراً يمكنني أن أساعدك.

كان على خالد (سمؤال)، أن يُبدي استغرابه، رغم أنه كان يتوقع مثل هذا العرض من التاجر العربي.. الذي قطع عليه شروده المقصود بقوله:

- ألا تعرف من أنا؟

- عفواً.. لا أعرفك.. قد تكون معروفاً بالخرطوم، لكن لأن علاقتي بالبلد ضعيفة فأنا عشت معظم سنوات عمري في

الخليج العربي، لذا لا أعرف الشخصيات السودانية البارزة والمرموقة.. أعتقد أنك شخصية مرموقة، يبدو ذلك واضحاً من خلال سؤالك.

لم ينزعج العربي من إجابة خالد، لأنه كان يحصر تفكيره في أمر معين، قال:

- إذن دعنا من ذلك.. وتفضل معي إلى مكتبي وهناك سوف تفهم كل شيء.. ولا تقلق بشأن الوظيفة أبداً.

انتهت شكوك خالد في عدم نجاح المهمة، حيث شعر بالارتياح: "أن الخطة قد بدأت بالتنفيذ الفعلي، وقد كانت تقديرات القائد دقيقة".

للحظة تأمل وجهه في مرآة السيارة كأنه ينظر إلى شخص آخر، أو كأنه يرى شخصاً لا يعرفه، ليقول محدّثاً نفسه بسخرية: "أيكون هذا الوجه الجميل لي؟.. لم أكن أعرف ذلك من قبل.. لو كنت أعرف لما تأخرت في توظيف هذه البضاعة الرابحة في الوصول إلى أهدافي".

بعد خمس دقائق توقفت السيارة أمام موقف مخصص تحت إحدى العمارات الواقعة في الشارع الرئيسي المكتظ بالسيارات، ورأى خالد مجموعة من البشر يسرعون لإلقاء تحية الصباح على السيد العربي، في الوقت الذي كان يردّ على بعض منهم ويتغافل عن آخرين.

عبر مصعد قديم في المبنى، صعدا إلى الطابق الأول،

حيث توجد شقة كبيرة مُرتّبة بشكل أنيق، لا يعكس حالها حال المبنى من الخارج، الذي كان متهالكاً.

أولى ملاحظات خالد، وهو يدخل هذا المكان لأول مرة، أن معظم الموظفين من الشباب والصبية.. لاحقاً فهم أن معظمهم لا عمل له في واقع الأمر، حيث كانت مهمتهم الوحيدة التي يتقاضون رواتب مجزية عنها، تتعلق بإرضاء شهوات السيد، الذي ينظر إليهم بكل شغف وجنون كلما ضغط على الجرس الموضوع أمامه على طاولة المكتب، ليدخل أحدهم فيطلب منه العربي طلباً لا معنى له، وهو يُديم النظر إلى تقاسيم مؤخرة الشاب أو الصبي، تتحرك ذهاباً وإياباً.

قارن خالد بين رسم وجهه الذي رآه في مرآة السيارة وبين وجوه الشباب والصبية، فاكتشف كم هو وسيم جداً.. ولمرة ثانية أدرك أنه لم يفكّر في هذا الأمر من ذي قبل، أو فكّر في الاستفادة من وسامته في تسيير حياته.

أثناء جلوسه في صالة الاستقبال في انتظار أن يسمح له العربي بالدخول، وبعد أن تناول كوباً بارداً من عصير العنب، النادر جداً في السودان.. عادت به ذاكرته إلى مواقف كثيرة كان قد وقع فيها مصيدة لوسامته، لكنه لم يعرف توظيفها كما ينبغي.

قال لنفسه: "لو كنت قد استفدت من تلك المواقف

لكنت الآن شخصاً آخر في المجتمع، لكنني غبي.. الآن فقط بدأت الطريق الصحيح".

واصل تأملاته الذاتية: "لقد كان ميسرة دقيقاً جداً في اختياري لأقوم بهذه المهمة".

تداعى العديد من المشاهد في ذهنه، منذ فترة الطفولة إلى الوقت الحاضر.. مشاهد من ذلك النوع الذي كان فيه دائماً مطية لرغبات الآخرين، لكنه كان يُنهي البذاءة بالبصق على وجه الشخص الآخر، أو يهرب سريعاً أو يعتمد على حيله الكلامية في جعل خصمه يقتنع بأن الغد هو الموعد المحدد لإرضاء غريزته، ليأتي الغد، ويكون خالد قد اختفى.. ورغم نباهة عقله، الذي كان قادراً على توظيفه في تطويع أمثال هؤلاء الناس، وكان بعضهم من ذوي الحال الميسور، إلا أن وازعه الخلقي وقتها، كان يمنعه من الخوض في أي مغامرة تتعلق بانتهاك الشرف.

سمح له السيد العربي بالدخول، فوجد نفسه داخل مكتب مؤثث بطاولات وكراسٍ فخمة لم يشاهد مثلها إلا في الأفلام الكلاسيكية، تكاد تكون تحفاً أثرية في متحف عتيق يحكي عن عصور النهضة في أوروبا.

لفت نظره وجود تمثال في أحد الأركان قريباً من نافذة كبيرة تطل على الشارع.. التمثال يصوّر أحد ملوك النوبة القديمة.. عرفه خالد فوراً، من خلال معرفته الواسعة بتاريخ النوبة، ومن خلال مراجعة تفاصيل الوجه.. إنه الملك اسبلتا..

عاد خالد إلى الوراء وهو يُمثّل تركيز النظر على التمثال، مبدياً إعجاباً شكلياً، ليقول للسيد العربي:

- أظن حضرتك شغوفاً بالتاريخ النوبي؟

- ليس الأمر إلى هذه الدرجة، هذا التمثال هدية من نحّات نمساوي قدّمه لي قبل عدة سنوات عندما تم تكريمي هناك.

لم يوضّح العربي طبيعة التكريم وسببه، ولم يشأ خالد أن يضع نفسه منذ البداية في موقف الضيف الثقيل بأسئلته.

لاحقاً فهم أن التكريم يتعلق بمساهمة العربي في التبرع مادياً لمتحف نمساوي، كان يعمل على مشروع يهدف لجمع جزء من تراث النوبيين الذي دمّر بناء السد العالي مساكنهم.

كان خالد مقتنعاً بأن الأشياء المهمة يجب أن تُفهم، أما سوى ذلك فعلى الإنسان ألا يُضيّع فيه وقتاً، وقد اتبع هذه السياسة في التعامل مع السيد العربي، بناء على توصية القائد ميسرة، الذي ظلّ يطّلع بشكل روتيني، كل يومين على الأقل، على مسار العملية التي استغرقت أكثر من عام ونصف العام، وتكللت في النهاية بالنجاح، بسقوط التاجر وسط بركة من دمه المتدفق على المكتب الذي يجلس فيه خالد هذا الصباح.

سقط التاجر العربي تاركاً قضيبه مقطوعاً ومعلقاً على ستارة داخلية تفصل المكتب عن غرفة صغيرة، كانت بمثابة مكان للعمليات العاجلة التي يقضي فيها التاجر مبتغاه الموقوت.

14

في المزرعة التي تقع بجوار النيل الأزرق، بنى السيد العربي، قبل عدة سنوات، فيلا من طابقين اتخذها كمأوى بعيداً عن ضجة الخرطوم لممارسة أهوائه الذاتية، حيث كانت ليلة الخميس من كل أسبوع تشهد تحوّل المكان إلى ضجيج ومغامرات جنسية، يتحوّل فيها العربي إلى كائن متعطش لإرواء رغباته الحقيقية، "فكل ما عدا ذلك من شهوات أخرى في الحياة، مثل شهوة التبرع لأعمال الخير، لم تكن سوى غطاء يستعين به على المضي في تمكين ذاته كسلطة مالية في البلد والحفاظ على وضعه الاجتماعي"، كما كان مقتنعاً في نفسه.

بعد مرور شهر على بدء خطة ميسرة، دخل خالد الفيلا لأول مرة، بعد أن اشترط عليه العربي قضاء ليلة جنسية ساخنة بمفردهما. وفي ذلك المساء الذي بدأ مبكراً، أفرط العربي في شرب أفخر الخمور المستوردة من أكبر المصانع الأوروبية، في وقت كان فيه القانون يعاقب أي شخص يقبض عليه سكراناً في الشارع العام.

وظّف خالد كل الأساليب المبتكرة التي أبدعها عقله

المفتوح للخيال، في ممارسة إغراء متعمد حوّل التاجر السكران إلى كائن غريب الأطوار. وإذا أتيحت الفرصة لأي من معارفه أن يراه على هذا الوضع لما صدّق أن ذلك الذي أمامه، هو "العربي المحترم والوقور، الذي يحرص على الصلاة في الصف الأول بأكبر مساجد البلد، التي ينقل منها التلفزيون الرسمي خطبة الجمعة والصلاة مباشرة على الهواء".

خالد الذي شرب قليلاً، حتى لا يقع أسير السُكر، رغم إغراء الخمور المستوردة التي يجرب مذاقها لأول مرة في حياته.. كان قد وقع في حالة من التوتر الآني وهو يشاهد صوراً غريبة لم يكن يتخيل من قبل أنه سيشاهدها ذات يوم.. تلك الصور التي ذهبت بعقله ليعقد مقارنة بين حال العربي وهو يتحدث في إحدى المناسبات الاجتماعية أو التجارية، وبين صورته الآنية.. "حيث لا مجال للمقارنة بين الصورتين"، فقبل ثلاثة أيام شهد خالد مع العربي مناسبة خاصة لتوقيع عقد استيراد مجموعة من السلع بالشراكة مع مجموعة صينية.

كان العربي قد دخل إلى صالة الاجتماعات والعطر يفوح قَبله، ووقف الجميع من سودانيين وأجانب احتراماً للرجل الذي جلس بطريقة تدل على الغرور والعظمة، قبل أن يُلقي كلمة أكد فيها على أهمية الشراكة السودانية - الصينية، ثم انتهى اللقاء بتوزيع المرطبات والمأكول الفاخر.

"تلك الصورة وبمراجعة تفاصيل تصرفات العربي أثناءها،

تكاد تكون مغايرة لما يحدث الآن"، بعد أن راجعها خالد في ذهنه، حيث يقف وأمامه رجل عارٍ تماماً يترنح وهو يغني، ويصيح كديك مذبوح، متمايلاً ذات اليمين وذات الشمال ممسكاً بقضيب خالد، بشدة.

كلما تمادى السيد العربي في شدّ القضيب، كان خالد يرحل في مساحات أخرى من الزمن، مُفكّراً في احتمالات المستقبل، وما الذي سوف تنتهي إليه هذه التجربة الغريبة في حياته؟! للدرجة التي جعلته يشعر بالصداع، الذي تزايد شيئاً فشيئاً، ليجد نفسه قد أصبح غير قادر على التفكير.. ونظر إلى وجه الرجل فرآه مدوّراً، تكسوه الحبوب السوداء، بعد أن خلع العربي نظارته الراقية، وأصبح يرى بعض الأشياء من حوله ولا يرى معظم الأشياء لأنه يعاني ضعف البصر.

"لرجل تجاوز الستين من عمره، يبدو الأمر مضحكاً، بقدر ما يثير الشفقة"، هكذا فكّر خالد مع نفسه، وهو يعيش تغلغل الصداع في خلايا الرأس، "أمام ذلك الكائن المتوحش" الذي لن يهدأ وينام قبل أن يشعر بولوج القضيب في مؤخرته المعشوشبة بالشعر، والمتسعة كبركة مياه متعفنة.

في النهاية لم يجد خالد من خيار سوى أن يمضي في العملية وهو يكاد يتقيأ من رائحة العفن الذي يفوح من مؤخرة الرجل.. تلك الرائحة الممتزجة برائحة الخمر التي بدأت في الخروج مع العرق من جسد متعرق، كأنه مصنوع من نوع رديء من الإسفنج.

استجابة لرغبة الكائن المتوحش ولإنهاء تهور العربي وخروجه عن طوره كإنسان، قام خالد بغرز قضيبه في مؤخرة العجوز.

في اللحظة التي تمكن فيها اللحم من ملامسة نهاية الأعصاب الحساسة المتبقية في فتحة الشرج، أحس خالد برعشة صغيرة شعر معها بلذة، يكتشفها لأول مرة في حياته، حيث لم يسبق له من قبل أن مارس الجنس مع رجل أو امرأة.. فطوال حياته وهو الآن في الخامسة والعشرين، اعتمد على العادة السرية في تفريغ الشحن الزائدة، من السائل المنوي، في جسده.

في تلك الأيام، كان يشعر بلذة ورعشة كبيرتين، وهو يستحضر صوراً مختلفة لفتيات من زميلات الجامعة أو أُخريات عبر بهن في أمكنة مختلفة أو رآهن في حافلة المواصلات العامة. أما الآن فقد رأى لذة حقيقية جعلته يتناسى رائحة العفن، بل رأى في العفونة نفسها شيئاً من الراحة النفسية، كما لو أنها استبدلت برائحة أخرى ذكية، أو أن أنفه أصبح غير قادر على اشتمام الروائح بدقة، بعد أن تعطل لسبب ما.

أخيراً أفرغ شحناته الزائدة في مؤخرة العجوز الذي وقع على الأرض مثل بطة ذبيحة، بجسده القصير العاري..

***

جلس خالد على الكرسي الخشبي المتأرجح؛ يشعر بتفاقم الصداع في رأسه الذي تخيله يكاد ينشق إلى ثلاثة أجزاء، ووجد روحه تتشتت في عوالم غريبة وتائهة، يرى نفسه كما لو أنه خارج نطاق المكان والزمان، أو أنه لم يكن ذات يوم من الأيام جزءاً من هذا العالم.

ارتسمت أمام ناظريه أشكال هلامية لمجموعة من وجوه أعضاء الخلية على رأسهم ميسرة، حيث كانوا ينظرون إليه بسخرية، ورأى صورة والده الذي مات قبل عشر سنوات وهو يرمقه بغضب، وتخيّل أن والدته تطارده بماء حارق لتلقي به على جسده.

مضت نصف ساعة مشرّدة عن الزمن الأرضي، بعدها شعر بالاسترخاء تدريجاً، بعد أن تراجع الصداع والتأمت أجزاء الرأس الثلاثة التي انفصلت من قبل.

في ذلك الوقت كان العربي قد نهض من على الأرض، واتّخذ طريقه إلى الحمّام مترنحاً.. ليتغوط بصعوبة، وهو يئن بصوت مسموع لخالد الجالس في صالة الفيلا بالطابق الأرضي.

بعد أن أفرغ التاجر محتويات بطنه، عاد بخطوات أسرع من ذي قبل، حيث شغّل التلفزيون ليستمع إلى أغنية تغنيها اللبنانية هيفاء وهبي، واستمر في التمايل على نحو يثير الضحك، بشكل عبيط جداً.

ظنّ خالد: "أن الليلة قد انتهت وأن عليه أن ينام

بهدوء، وأن يحاول تناسي الجراح والألم النفسي طالما آمن بتعاليم الكتاب التأسيسي للخلية، وأنه في سبيل الهدف يهون كل شيء".

استأذن العربي، ليدخل إلى إحدى الغرف، يغلق الإنارة.. ويغرق في نوم عميق.

بعد أقل من ساعة من شروعه في النوم، فتح عينيه على شبح يتحرك في ظلام الغرفة، وظنّ في البداية أنه يحلم أو ما يزال يصارع كوابيس الألم النفسي والإحساس بالذنب، لكنه بعد ثوان قليلة أدرك أن الشبح، ليس إلا التاجر العربي.

كان الشبح لا يزال عارياً، يمرر أصابعه ببطء على صدر خالد، الأمر الذي جعله يشعر بدغدغة لم يستلذها في البداية.

وللحظة فكّر أن يدفع بالعجوز إلى الوراء، لكنه تذكّر: "أنه يجب عليه أن لا يقوم بأي فعل تهوري وغير مدروس حتى لا يُخرّب الخطة".. لذلك تغافل عما يجري واستمرّ في التمثيل على أنه نائم، في الوقت الذي كانت أطراف أنامل العربي تمضي في حركتها على الصدر إلى أسفل، إلى أن وصلت إلى فتحة المؤخرة في جسد خالد الذي كان قد نام عارياً، جراء الإرهاق.

فهم خالد أن الليلة لم تنته وأن التاجر يريد الآن أن يمارس دوره بغرز قضيبه في جسده، لتنتهي المباراة بالتعادل أو "درون" كما يقول السودانيون.

وكان أن شعر بالصداع يحاصره من جديد، وأن العالم

يتجه إلى قيامته، وأنه يغوص في بحر من النيران الملتهبة التي امتزجت بنيران ألم القضيب القوي للعجوز، ساعة دخوله بعسر في الفتحة الصغيرة للمؤخرة التي لم يتم تجريبها من قبل.

كاد أن يبكي تحت وطأة العربي الذي أصبح ثوراً، فحلاً، هائجاً، لأنه كان قد ابتلع حبتي فياغرا مستوردتين في أول المساء، ضمن استعداداته الروتينية لمثل هذه الليالي الساخنة.

رغم ازدياد شدة الألم والصداع، قرر خالد التحلي بالصبر، بعد أن قال سراً: "في سبيل الخلية يهون كل صعب".. وكان عليه الانتظار، إلى أن أفرغ العجوز شحنته الزائدة، ليهمد جسده تدريجاً.

15

جاء وقع الخبر الذي نشرته الصحيفة التي تمت مصادرتها، على زينب، قاسياً جداً، فطوال حياتها لم تتوقع أن يكون والدها شاذاً جنسياً.

حاولت تناسي الأمر واعتباره نوعاً من الأخبار المدسوسة من أحد أعداء الوالد ومنافسيه، بعد أن أعلمتها سارة بالخبر وفسّرته لها على أنه مكيدة مدبرة من جهة ما، وربما الحكومة، بهدف شغل الناس عن القضية الأساسية المتمثلة في الاغتيال.

عندما رأت سارة، زينب، تشرع في البكاء، ندمت على ما قامت به واعتذرت قائلة:

- لم أكن أتصور أن الأمر سيزعجك إلى هذا الحد، ربما لا تعرفين أن السودان قد تغيّر كثيراً عن الماضي، وأصبح الناس في سبيل مصالحهم يفعلون كل شيء.

لم تردّ زينب، حيث دخلت في حالة استحضار للحظات متفرقة من حياتها، تكاد توصلها إلى نتيجة تقول إن ما نُشِر يمكن أن يكون صحيحاً.. حالة من الاستحضار تكاد تشبه الحالة ذاتها التي عاشها عبد الحفيظ بعد أن أعلمه ممثل الحكومة بالخبر نفسه في المستشفى.

كانت زينب متأكدة أنها رغم الحزن الحالي جراء ما سمعت، سوف تتخلص من الذكريات سريعاً، لإدراكها "أنها تختلف في شخصيتها عن عبد الحفيظ بعض الشيء، فهي لا مبالية وسرعان ما تنسى، حيث دائماً تعيش لحظتها، أما شقيقها فمن الصعب عليه أن ينسى خاصة أنه يتعامل كرجل في مجتمع يُلقِي على الذَكَر تبعة أن يتولى مهمة الدفاع عن سمعة والده حياً كان أم ميتاً، وساعة يكون الوالد قد دُفِن تحت الأرض تكون المهمة قد أصبحت أكثر صعوبة، لأن صاحب الشأن قد رحل ويجب أن لا يُخدش وهو في عداد الموتى.. هكذا تقول الأعراف التي يجب على عبد الحفيظ أن يتعامل بها، وعليه منذ اليوم أن يقوم بدور الوالد اجتماعياً، ليكون ظله بعد موته.. فالعائلة ذات تاريخ عريق في البلاد، وعلى هذا التاريخ أن يستمر وهنا تقع المسؤولية على الابن الوحيد، أما الابنة فلن يلومها أحد".

أنهت زينب تأملاتها في المستقبل، في الوقت الذي غادر عبد الحفيظ المستشفى ليشيع جنازة والده بعد ثلاثة أيام من وقوع الاغتيال.. ذلك بعد أن قامت السلطات الجنائية بعملها وتمّ تشريح الجثة، وأخذ البصمات من مكان الجريمة في المكتب.

لم يكن من المفاجئ للابن، أن يرى آلاف السودانيين وهم يحضرون لدفن المرحوم في مقابر فاروق بوسط الخرطوم، فقد جاءت الحافلات السفرية الكبيرة واللواري من أنحاء البلاد كافة.

ولم يقتصر الحشد على السودانيين من عموم الشعب والوزراء وكبار رجال الأعمال والسماسرة، بل ضمّ عشرات الأجانب، منهم من كانوا سفراء لدول أجنبية في الخرطوم، ومنهم رجال أعمال وممثلو شركات أجنبية، جاءوا من مختلف بقاع العالم، لحضور مراسم التشييع والدفن.

منذ تلك اللحظة التي حوصر فيها عبد الحفيظ بالجموع الغفيرة في ميدان المقبرة، أحس "أن أمامه مهمة معقدة في الحياة بعد رحيل الوالد، إذ يكون عليه أن يتناسى تلك الصورة القبيحة التي بات شبه متأكد منها، والمتعلقة بسمعة والده. عليه أن يحاول بكل الإمكانات أن يكون إنساناً يشار إليه كخليفة لوالده في الأمور الإيجابية والصلاح، وعليه أن يحمد الله أنه غير مبتلى بعيوب خلقية كما كان والده".

كان يقول ذلك لنفسه وهو يستقبل المعزّين الذين تدافعوا من حوله، كل يريد أن يُسلّم عليه ويتظاهر أمامه بالتأثر لرحيل العربي، حتى يتأكد أن مصالحه التجارية أو منافعه مهما كان شكلها، لن تتأثر في المستقبل، بموت السيد.

أثناء العزاء في المقبرة، كان اللواء طه عبد الرحمن مدير عام الشرطة قد اتّخذ طريقه وسط الجموع، ليتوقف بجوار عبد الحفيظ، ويهمس في أذنه:

- التحريات تجري على ما يرام وخلال يومين ستسمع أخباراً جيدة.

نظر عبد الحفيظ إلى وجه اللواء، فرآه يحاول أن يبدو

كما لو أنه مهتم إلى أبعد الحدود بالكشف عن المجرمين، القتلة.. واكتشف بسهولة: "أن الرجل يقول كلماته على سبيل الطمأنة وإثبات ولائه لخليفة الوالد (لي).. ذلك حتى لا يخسر مصالحه، لا لأنه يمتلك معلومات دقيقة يريد أن يوصلها إليّ".

تجاهله، بأن ردّ عليه بشكل غاضب وبصوت مسموع لمن حولهما:

- هذا عملكم سعادة اللواء، أن تعثروا على المجرمين.. لكن أعتقد أن عملكم الأساسي هو أمن الناس، وهذا ما فشلتم فيه.. لو كنتم تقومون بعملكم فعلاً لما وقعت الجريمة.

لم يتوقع اللواء أن يحدّثه عبد الحفيظ بهذه اللهجة أمام حشد كبير من المسؤولين المتجمهرين في المقبرة، لذا آثر أن يبتعد، وتوارى عن الأنظار، بعد أن أحس بالحرج.

***

التصرف الذي قام به عبد الحفيظ لم يكن محسوباً بل كان انفعالياً وجاء بنتيجة عكسية، لأن اللواء أضمر في نفسه بأن يجعل مجريات التحقيق تبطئ في مسارها.. هذا ما فهمه الابن فيما بعد عندما مرّ أسبوع كامل دون أن تتحقق أي نتيجة مثمرة.

كان قد اتصل باللواء في مكتبه، ولم يردّ عليه في البداية، وعندما ردّ عليه في المرة الثانية، أجابه:

- أنا مشغول يا أستاذ، عندما أفرغ من عملي سوف أتصل بك.

الردّ استفزّ عبد الحفيظ، الذي تذكّر تصرفه مع اللواء في المقبرة.

في مراجعة للأمر مع ذاته، ومع صديقة مستر بروك، كان رأي بروك:

- أعتقد أنه من العقل أن تعتذر للواء.

وافق عبد الحفيظ على الفكرة.. وفي المساء انطلق بالسيارة وبصحبته بروك إلى منزل اللواء طه عبد الرحمن، الواقع في المنطقة العسكرية المخصصة لسكنى كبار الضباط.

لم يجدا صعوبة في دخول المنطقة المحظورة حيث إن عبد الحفيظ بات معروفاً لمعظم الناس، بعد وفاة والده.. كما أن منظر السيارة ماركة السنة من موديل غير معروف بالخرطوم، جعل الحارس العسكري للمنطقة، يفهم مباشرة أن من يمتلك سيارة كهذه لن يكون شخصاً عادياً.

عرف الحارس أن توقعه كان صحيحاً، عندما رأى أمامه ابن السيد العربي، وتأكد أنه الشخص نفسه الذي سبق له أن شاهد صورته في الصحف أكثر من مرة، خلال الأيام الماضية.

استقبل اللواء طه ضيفيه، ومنذ البداية أدرك أن عبد الحفيظ جاء بنية الاعتذار، لكن اللواء لم يُبدِ أي إشارة مفهومة وواضحة للسبب الذي خمّنه في ذهنه، حيث واصل

التعامل بطريقة ردة الفعل الأولى ذاتها القائمة على التجاهل.. اتضح ذلك من خلال إجابته عن سؤال عبد الحفيظ عن مسار التحقيقات:

- هذه أسرار، لن نعلن أي شيء قبل اكتماله!

توقع عبد الحفيظ مثل هذه الإجابة، لذا لم ينفعل هذه المرة، حيث عمل بوصية مستر بروك بأن يتأنى ولا يستعجل، والذي أوصاه قبل أن ينطلقا لمقابلة اللواء: "عليك أن تكون أكثر تعقلاً".

ردّ عبد الحفيظ قائلاً:

- نحن نُقدّر جهودكم وما تبذلونه من عرق.. وإذا كنت قد غضبت من الكلام الذي تفوّهت به في المقبرة، فأنت تعلم أن ذلك حدث لأنني في ذلك الوقت بالتحديد لم أكن مسيطراً على مشاعري.

بدأت ملامح وجه اللواء تتغيّر تدريجاً، وتأكد الآن من حدسه بأن الابن جاء للاعتذار، فردّ بحميمية هذه المرة:

- لدينا بعض الأمور التي نحاول الاستفسار عنها، منك شخصياً.. لا أدري إذا كنّا سنجد الوقت المناسب في أسرع فرصة؟

- تأمرون في أي وقت.. فهل هناك موضوع أهم من قضية الوالد؟!

ابتسم اللواء، ودعا الضيفين لتناول الشاي بالحليب في الحديقة الخارجية للمنزل كبير المساحة.

أثناء شرب الشاي تشعب الحديث إلى أمور مختلفة، ومن ضمن هذه الأمور جرى اتفاق مبدئي بين اللواء وعبد الحفيظ على إنشاء معمل جنائي خاص، يعود ريعه لمصلحة الطرفين.

اقترح اللواء أن يُسمّى المعمل باسم المرحوم، وشرح جدوى المشروع، قائلاً:

- مثل هذا المعمل سيكون ناجحاً دون شك، لأننا نعاني قصوراً في المعدات والتقنيات في المعامل الحكومية، وسوف تجد أن كثيراً من الجرائم سيتم تحويلها إلى معملنا من معامل الدولة، وطبعاً سيتم التعامل معها وفق فاتورة معينة حسب نوع الجريمة وحجم العمل المطلوب فيها.

ودّع الضيفان اللواء، وهما يشعران بأن الأزمة قد بدأت بالانفراج.

أثناء عودتهما في الطريق قال عبد الحفيظ لمستر بروك:

- لكي تسير الأمور بشكل جيّد، يجب أن يُقدّم المرء خدمة ما للطرف الآخر.. هل توافقني؟

ضحك بروك، وعلّق:

- هل سيكون هذا المعمل حقيقة أم سينتهي الحديث عنه بعد أيام.. كعادتكم أنتم السودانيين تتحدثون عن مشروعات كثيرة ولا تنفّذون منها مشروعاً واحداً؟

- بالنسبة إليّ نعم، فأنا أتعامل بعقلية أمريكية في الإدارة.. ولكن المشروع حقيقي، إذا ما كانت الدراسة التي سيزودني بها ناجحة من حيث المبدأ، ولكن ما أشك فيه أن ينجح في تقديم دراسة جدوى موضوعية وأمينة.

- وما السبب الذي يدعوك إلى الشك؟

- هنا يتحدثون عن مشاريع كثيرة، بعضها يظلّ أفكاراً إلى أن تموت مع الزمن، وبعضها الآخر يُنفّذ لكنه يفشل فيما بعد لأن الدراسة لا تكون قد تمت برؤية علمية صحيحة.. وبعض المشروعات ما هي إلا نوع من الحيلة لسرقة الأموال، سواء كانت أموال شخصٍ له مقدرة مالية أو أموالاً حكومية.

فكّر بروك قليلاً، قال:

- في تقديري أن اللواء، في واقع الأمر، لا يفكّر في إنشاء معمل جنائي خاص.. ما يقوله لك بشكل غير مباشر: يجب أن تدفع لي يا عبد الحفيظ مبلغاً مالياً حتى نكون أكثر جدّية معك في الوصول إلى قتلة والدك بأسرع وقت ممكن.. ألم تفهم الرسالة؟

16

بعد يومين كان عبد الحفيظ على موعد مع اللواء طه في مكتبه، عند الساعة الواحدة بعد الظهر.

استقبله اللواء بحفاوة وقدّم له مشروب الكركدي المحلي، وقبل أن يشرعا في الحوار العملي بخصوص التحقيق في قضية الاغتيال، كانت أمامهما مجموعة من الصور التي يراها الابن لأول مرة.

الصور مؤلمة وقاسية، ولذا كان على اللواء أن يستأذن قبل عرضها:

- لا أعرف إن كنت سوف تتحمل رؤيتها أم لا؟ على أية حال، يمكن تأجيل الموضوع إذا لم تكن مستعداً.

- إذا كان الأمر ضرورياً ويخدم التحقيق فليس ثمة مشكلة.

- أعتقد كذلك.. هناك أمور لابد من إيضاحها.

هزّ عبد الحفيظ رأسه علامة على الموافقة، في الوقت الذي قام اللواء بنثر مجموعة من الصور ذات المقاس الكبير على الطاولة، أمامهما، والتي من الواضح أنها أخذت بكاميرا عادية وتم تحميضها..

- الشرطة لا تزال تستخدم الأسلوب التقليدي في التصوير ولم تصل بعد إلى استخدام تقنية الكاميرا الديجتال.

أوضح اللواء، ثم قام باستعادة مشهد ما بعد جريمة القتل من خلال متابعة الصور:

- في هذه الصورة تبدو الجثة طريحة على الأرض، والدم من حولها.. ولك أن تلاحظ أن جسد الوالد، (يرحمه الله)، تعرض لعدد كبير من طعنات خنجر مدبب وحاد.. أعتقد أنها أكثر من خنجر.. المشرحة أوضحت أن ما لا يقل عن عشرين طعنة وقعت على الصدر وحده.. هذا العدد لا يمكن أن يكون قد جاء من شخص واحد.

توقف اللواء فجأة بعدما لاحظ التأثر الواضح على وجه الابن. أبدى تعاطفه قائلاً:

- أعتقد أن رؤية هذه الصور أمر قاسٍ، دعنا نؤجل هذا الجانب.

كان لابد للواء أن يؤجل عرض الصور، خاصة أن الصورة التي من المفترض أن يدور النقاش عنها، هي الصورة الأكثر بشاعة، والتي يبدو فيها قضيب المرحوم مقطوعاً ومعلقاً على الستارة الداخلية، التي تفصل بين المكتب والغرفة الصغيرة المستخدمة في العمليات الخاصة والتي تحتوي على سرير.

هذه الصورة في تقدير اللواء هي مفتاح الجريمة، "فقطع العضو الذكري وفصله عن الجسد، ثم تعليقه قريباً من الغرفة

السرية يحمل دلالة واضحة".. فكّر اللواء سراً، قبل أن يقول بصوت مسموع:

- ما نُشِر في الصحف عن الجريمة، آثرنا أن يكون معلومات عامة، كذلك فضّلنا أن يكون البيان الذي قدّمته الشرطة للصحافة عمومياً، ورفضنا الخوض في التفاصيل.

انزعج عبد الحفيظ بعد أن سمع العبارات الأخيرة، وخيّل له من خلال تعابير وجه محدّثه، أن هناك معلومات لا تزال محجوبة، خاصة بعد أن أسرعت يدا اللواء إلى لملمة الصور، بعد أن ظنّ أن جزءاً من الصورة المزعجة قد وقع أمام ناظري الابن.. كان ذلك قد حدث فعلاً.. لذا أسرع اللواء إلى سحب الصورة التي كانت مثار نقاش طويل بين المحقّقين من قبل، هل يمكن عرضها على الأقارب أم لا؟.

للأسف فإن الصورة الآن أمام عبد الحفيظ، الذي شعر بدوار يحاصره من كل صوب، بعد أن رآها خلسة.. تلك المفاجأة التي جعلته يفقد السيطرة على نفسه ويصرخ بصوت عالٍ سُمِع في المكاتب المجاورة، ليضع اللواء في وضع محرج جداً: ما الذي عليه أن يفعله ليخرج من هذه الورطة؟!.

قال اللواء لنفسه: "هذه الصورة بالتحديد كان يجب سحبها من بقية الصور".

عاد مع الارتباك ليحدّث نفسه مرة أخرى: "لكنها هي

الصورة الأهم التي كان يجب أن يراها باعتبارها مفتاح حل القضية".

لدقائق ظلّ رأس عبد الحفيظ متدلياً إلى أسفل بعد أن فقد السيطرة على أحاسيسه ومشاعره، وتداخلت في ذهنه مجموعة من المشاهد المتراكمة.

كانت هذه اللحظات أكثر إيلاماً من اللحظة التي سمع فيها بخبر الاغتيال، واللحظة الأخرى التي تم إخباره فيها بحكاية شريط الفيديو التي نشرتها الصحيفة، ساعة كان على سرير المستشفى.

قال سراً وسط حالة الدوار والصداع المزمن الذي حاصر الرأس: "أعتقد أنه لم يعد ثمة مجال للشك في أن كل ما فكرت فيه كان صحيحاً.. لا مجال لإنكار أن والدك كان..."، وكاد أن ينطق الكلمة بصوت مسموع، لولا تذكّره أنه بات محاطاً بعدد من الأفراد، الذين جاءوا بناء على تعليمات اللواء للقيام بدورهم في إسعافه، إذا ما تفاقم الحال واشتد الدوار عليه.. لذا انتبه: "أن عليه أن يثبت عكس ما يمكن أن يُفهم بأن والده كان شاذاً، فما يقوم به الآن من تصرف لن يُفسر إلا على نحو واحد، إثبات الفكرة التي تعشّش في رؤوسهم".

التفكير الأخير، جعله ينهض بقوة، ويقول بطريقة حاسمة:

- سعادة اللواء سنواصل حوارنا الآن.

وبدرت منه إشارة واضحة تعني: "أن على هؤلاء الواقفين أن يغادروا المكتب في الحال"، وقد فهموا ذلك فأسرعوا للخروج، قبل أن ينطق اللواء بأي كلمة، والذي أصبح الآن يفكّر: "أن ردة الفعل التي صدرت بشكل غير إرادي من الابن هي أكبر دليل على أنه لم يكن يعلم من قبل أن لوالده صورة أخرى في أذهان بعض الناس، صورة غير تلك التي تراها الأغلبية.. صورة الرجل المهذب وفاعل الخير والملتزم دينياً إلى أبعد الحدود".

بالنسبة إلى الضابط طه لا مفاجآت في مثل هذه الأمور، فمن خلال عمله وخبراته الطويلة، كان قد مرّ بعشرات المواقف والقصص البوليسية التي تفضح شخصيات على شاكلة السيد العربي.. ملفات متراكمة في دُرْج المكتب بعضها تم إغلاقه بناء على أوامر عُليا وبعضها تم سحبه.. فخلال السنوات الخمس الأخيرة تغيّرت الأمور كثيراً.. حيث لا نزاهة في أي عمل، كما يفهم طه.

أراد اللواء أن يقول لعبد الحفيظ: "لا تقلق كثيراً.. فليس والدك هو أول الذين تحوم الشبهات حول سمعتهم.. فمعظمهم مجرمون يظهرون في ثياب ملائكية".

لكنه آثر الصمت، ومراقبة الموقف، وانتظر حتى يهدأ ضيفه ويعود إلى وضعه الطبيعي ليواصل الحوار معه.

قطع عبد الحفيظ تأملات اللواء بقوله:

- أعرف ما تفكّر فيه.. أنتم كشرطة قطعاً لديكم الكثير من المعلومات..

تنفس بعمق، واستطرد قائلاً:

- أحياناً يجد الإنسان نفسه في مواقف محرجة، لا يعرف كيف يتصرف فيها، لكن هذا هو الواقع، ماذا بإمكان المرء غير أن يقبله؟

- لا أعتقد أن تفسير الأمور يصبُّ في الشكل الذي تفكّر فيه.. في تقديري أن ثمة تضليلاً ما تمّ بطريقة مقصودة من قبل المجرمين.. لقد تطورت تقنيات الإجرام كثيراً في السودان خلال السنوات العشر الأخيرة.

فهم عبد الحفيظ أن اللواء يعني قطع القضيب وتعليقه، لكنه استحى أن يُفسّر ذلك بعبارات صريحة.. وأدرك أن ما يقصده يعني به: " قد يكون المجرمون من أي نوع.. وقد يكونون قاموا بالجريمة لأي هدف كان، لكنهم فصلوا القضيب عن الجسد بهدف خلق بلبلة، استناداً إلى ما يثار حول سمعة الوالد، لا لأن طبيعة الخلاف الذي أدى إلى القتل يصبُّ في موضوع يرتبط بالجنس وفكرة الشذوذ".

اللواء كان يدرك أنه كان صادقاً في الجزء الأخير من كلامه والمتعلق بتطور تقنيات الإجرام، وكاذباً في الجزء الأول المتعلق بالتضليل المرتبط بقطع القضيب.. فهو يعلم "أن سمعة السيد العربي كانت سيئة إلى أبعد الحدود لدى

المتنفذين في البلد، لكن وضعه المادي القوي جعله يسيطر على الأمور ويدفع كل شبهة يمكن أن تقف في طريقه".

لم يستمر اللواء في الوسوسة الداخلية، حيث رأى أنه من المفيد أن يقوم بخطوة عملية حتى يحقق نتائج إيجابية في القضية، وحتى يكسب الاتفاق المبدئي بشأن إنشاء المعمل الجنائي الخاص الذي تحدّث بشأنه سابقاً مع عبد الحفيظ، وهذا هو الأهم بالنسبة إليه.. أضف إلى ذلك فهو يشعر بأن موقفه سيكون غير مطمئن إذا لم يستطع أن ينجز عملاً ملموساً في القضية خلال شهر على الأكثر، لأن هناك عيوناً ترصده، وحتماً لن يتركوه وشأنه.. فالتباطؤ لن يفسر من قبل من هم أعلى منصباً منه، من المسؤولين، إلا بنتيجة واحدة: "أن المدير العام للشرطة لديه مصلحة ما تجعله يتأخر في تقدم القضية بشكل جيّد"..

حدّث نفسه: "كل شيء جائز.. وقد تجد نفسك خلال أيام في البيت.. لاسيما أن الأمور غير واضحة إلى هذه اللحظة.. فالآراء تتباين حول من يكون القتلة".

أسرع اللواء إلى توجيه السؤال مباشرة إلى عبد الحفيظ دون مقدمات:

- من تعتقد أن يكون قتلة والدك؟

- ليس لدي أدنى فكرة..

- ألا يوجد لديك أي تصور مبدئي.. ألا ترى أن هناك طرفاً أو جهة معينة، يمكن أن تكون لها مصلحة فيما حدث.

- ليس بإمكاني التكهن، فأنا كنت غائباً عن السودان كما تعرفون، ولم أحضر إلا أخيراً لبداية مشروعي التجاري.. وحتى بعد عودتي لم أكن أقابل والدي كثيراً رغم أننا نعيش في بيت واحد، فكلٌّ كان يطارد همومه اليومية.. ولكن قبل يومين من مقتله....

كاد أن يتحدّث عن حواره الأخير مع والده، والذي نبّهه فيه بأن يكون حذراً، وأن يتوقع أي شيء في بلد افتقد الأمان وأصبح مطية لكل توقع.. لكنه توقف فجأة محدّثاً نفسه بأنه لا داعيَ لذِكْر ذلك، حيث أنه لن يفيد القضية.

شعر اللواء بأن ثمة أمراً كان سيقال.. لم يلاحق عبد الحفيظ ليفهم ذلك الأمر بناء على فكرة بسيطة: "إذا كان ما سيخبرني به مفيداً ويخدم القضية، إذن لما تردد في قوله.. فالضحية هو والده لا والدي".

امتدّ الحوار بين الطرفين لأكثر من ساعة، وفي تقدير اللواء أنه لم يحقق أي نتيجة إيجابية، يمكن أن تخدم القضية، غير أنه لم يُبدِ أي مشاعر سلبية، بل على العكس تماماً حاول أن يكون إيجابياً في ختام اللقاء، باعتبار أنه كان يفكّر في مشروعه القادم الذي رآه في أحلامه ليلة الأمس يصبح ماثلاً للعيان، ويجني أرباحاً كبيرة.

قبل أن يفترقا بدقائق معدودات، فاجأ عبد الحفيظ، اللواء، بسؤال لم يكن يخطر على باله:

- وزير الداخلية أشار في التلفزيون قبل عدة أيام إلى

احتمال تورط جهات أجنبية في الاغتيال.. أنا سمعت هذا الخبر مثلي مثل الآخرين، ما الذي يقصده الوزير بالضبط؟

لم تكن لدى اللواء إجابة محددة، ولم يكن واثقاً ما إذا كان الوزير يتحدث بناء على معلومات معينة أم لا؟.. وما لم يقله للابن: "أن ملف القضية بيدي.. لذا فإن أي معلومات تقال من المفترض أنها تخرج عن طريقي.. هذا الوزير ربما يتحدث لمصلحة محددة، أنا نفسي شخصياً، لا أعرف ما هي بالضبط؟.. فنحن في الواقع في دولة تُحكم من أكثر من طرف".

أحس عبد الحفيظ بأن اللواء صمت لبعض الوقت، وحدّثته نفسه بأن ثمة أمراً غير واضح أو لا يرغب اللواء في الإفصاح عنه، لهذا كان سؤاله الثاني:

- هل تعتقد أن للحكومة صلة بالجريمة؟

من الممكن أن يتوقع الضابط السؤال الأول حتى لو أنه كان مفاجئاً وغير قابل للتفسير، أما السؤال الثاني فقد كان مربكاً بدرجة كبيرة لمدير عام الشرطة، والذي رأى أن استمراره في الصمت، يمكن أن يفسر على أن هناك ما يعمل على إخفائه.

فكّر بماذا يردّ!. لكنه عجز فقد تشتت ذهنه وأصبح عاجزاً عن الحصول على إجابة مقنعة. وتساءل سراً: "هل يعني ما يردده بعض الناس في الشارع والذين يقولون إن الحكومة لها دور في الحادثة، وهم يشيرون إلى الخلاف القديم بين العربي

والحكومة، وخروج العربي على الحكومة.. أم أن لديه تصوراً شخصياً معيناً؟! ولو كان الأمر كذلك فهذا مخيف جداً، فهذا الشاب رغم ما يبدو عليه من بساطة إلا أنه سبق أن رفض عرضاً من الحكومة بتولي منصب وزاري، كما أنه مدعوم من جهات خارجية في عمله وخطواته"..

لاحظ عبد الحفيظ ارتباك اللواء، وعجزه عن الجواب، فقد مضت أكثر من دقيقتين دون أن يسمع منه أي كلمة.. لذا أسرع بإلقاء تحية الوداع عليه دون أن يصافحه، وخرج تاركاً باب المكتب مفتوحاً، يفكّر في الاحتمال الثالث الذي يرى أنه قد يكون ضمن الاحتمالات الأكثر واقعية، والذي توصل إليه بعد أن دنا من الثبات النفسي وأدرك ألا قيمة في إدمان النظر إلى الأمس، بعد أن فارق حالة الإحساس بفقدان الوزن.

في الاحتمال الثالث ذهب خياله إلى "أن والده مات مقتولاً على يد بعض الخصوم غير المرئيين الذين هدفوا من وراء قتله، إلى دخول الجنة، لكونهم وحسب اعتقادهم أنهم عبر عملهم هذا يتخلصون من رجل شاذ جنسياً، ينبغي أن يقام عليه الحدّ".

فكّر: "مثل هؤلاء يرون في قتل الإنسان تجارة رابحة يثابون عليها من قبل الخالق.. ويعتقدون أن الله قد وكّلهم دون سواهم من بني البشر لبناء دولة الشريعة وإقامة الحدود دون الالتفات إلى أن هناك حكومات أو دولاً".

تبقى احتمال أخير، رأى عبد الحفيظ أثناء هبوطه درجات السلم المتهالك في المبنى، أنه قد يكون ممكناً أيضاً.. وهو أنه ربما كان القتلة مجموعة من الذين ربطتهم مع والده علاقات جنسية شاذة: "ففي عالم الجنس، كما في عالم المال، كل شيء ممكن والاحتمالات تظلّ مفتوحة".

من جديد شعر أن رأسه مشوش وخطواته ثقيلة..

فكّر أثناء قيادته السيارة عائداً إلى البيت، أن أنسب حل أمامه لكي يهرب من هذا الجحيم، أن يُصفّي حسابات والده واستثماراته بالداخل، ويهاجر نهائياً لمواصلة عمله في الولايات المتحدة والإقامة بشكل نهائي هناك، ما دام معه الجواز الأمريكي.

.. وبخصوص زينب فقد رأى أنها سوف تعود قريباً إلى لندن، قال لنفسه بصوت مسموع: "لن تطيق البقاء هنا، ولن تترك زوجها وحده في لندن.. وهي في الأساس لم تحبّ هذا البلد ذات يوم".

17

بمجرد أن غادر عبد الحفيظ مكتب اللواء طه، أسرع مفتش عام الشرطة إلى تشغيل جهاز الفيديو الذي أمامه، ليبدأ بمشاهدة الشريط الذي تمت مصادرته من الصحيفة التي أُغلِقت أبوابها بعد أن نشرت الخبر الذي أسرعت الحكومة إلى نفيه.

كان اللواء قد شاهد الشريط أكثر من مرة، دون أن يكون قادراً على رسم خطة ذهنية معينة للاستفادة من محتوى المشاهد التي يتضمنها الشريط، والذي يظهر فيه شاب في منتصف العشرينات من عمره - تقريباً - يمارس الجنس مع السيد العربي في وضع فاضح.. وتستمر المشاهد حوالى عشر دقائق، دون أن يكون وجه الشاب واضحاً، فالشخص الذي صوّر الفيديو ركّز على جعل الكاميرا تفضح وجه السيد العربي، في حين لم يظهر من الطرف الثاني، سوى باقي جسده ما عدا الرأس.

أمام اللواء على الشاشة الصغيرة ماركة بانسونك المعلقة على الحائط، جسدان عاريان تماماً، يتقلبان على أريكة خشبية في مكان يبدو كما لو أنه صالة واسعة، بأثاث فخم،

وقد فهم المحقق الرئيسي في القضية أن هذا المكان ليس مكتب القتيل قطعاً.. لأن حجم المكتب أصغر من هذه الصالة، كما أن شكل الأثاث الذي تنقّلت فيه الكاميرا في بعض اللقطات، يكشف أنه من النوع المنزلي، الذي يصل سعره إلى ملايين الجنيهات، فالأريكة وحدها مصممة بطريقة عجيبة، حيث تنتهي من أعلى بأيادٍ فضية على شكل رؤوس أفيال بخراطيم.

أيضاً يظهر في الصالة، تمثال صغير لجسد رجل عارٍ، يمسك بقضيبه.. لا يعرف الضابط أين تم تصنيع هذا التمثال!، وبخبرته المتواضعة في الفنون قال لنفسه: "من الواضح أنه تم الاشتغال عليه بواسطة نحّات محترف".

لاحظ اللواء للمرة الأولى أن قضيب السيد العربي مشدود بشكل مبالغ فيه، رغم قصره.. وقد ظلّ محافظاً على انتصابه، حتى بعد أن انتهى الشاب من مصّ القضيب، وتساقط السائل الأبيض الثقيل على الأريكة، كما لو أنه مطر خريفي مثلج.

"لرجل تجاوز الستين من العمر، يبدو من المدهش أن يظلّ بهذا العنف الجنسي".

هذا ما فكر فيه اللواء، قبل أن يغلق الجهاز ويدير كرسيه البلاستيكي الدوّار تجاه النافذة، متنفّساً بعمق، ومتسائلاً: ما هي الخطوة القادمة التي يمكن أن يقوم بها حتى يسارع في إنهاء هذه القضية المربكة؟.

الإرباك الذي يراه يتمثل في الضغوط التي يتعرض لها من المسؤولين الذين هم أعلى درجة منه، مع تضارب تصريحاتهم التي يسمعها في أجهزة الإعلام، دون أن يفهم ما هو الأمر الذي يفكّر فيه كل طرف بالضبط؟!.. مع اقتناعه التام بأن جميع الأطراف التي تتحدث عن القضية بشكل رسمي لا تملك أي حقائق ملموسة.

قبل أن يغادر الكرسي الدوّار إلى الحمام الملاصق للمكتب، سمع رنين هاتفه الجوال.

كان المتصل وزير الداخلية الذي لم يسبق له أن تحدّث معه بشكل مباشر منذ أن وقعت الحادثة قبل أسبوعين، بل إن محاولات اللواء للاتصال به، أكثر من مرة من قبل، باءت بالفشل، فالوزير لا يردّ عليه، أو أنه مشغول كما يقول سكرتير مكتبه ساعة يكون الاتصال عبر تلفون المكتب.. أو أنه في مهمة خارجية غير معلنة..

فكّر اللواء مع نفسه: "ما الذي يريده الوزير بالضبط؟".

لم يكن لديه أدنى تصوّر، "فقد بات من الصعب على الإنسان أن يتكهن بأي شيء، فالحياة في هذا البلد، لم تعد على سجيتها القديمة"، يفهم اللواء ذلك، ويدرك أكثر: "أن ثمة أموراً يكون عقله عاجزاً عن فهمها، في ظلّ الارتباك الحادث وتضارب الآراء الناتج، دون شك من تضارب المصالح".

قال الوزير للواء بلهجة حازمة وبانفعال:

- ألا تعتقد أنكم تأخرتم كثيراً في قضية العربي.. لقد جعلتموني في وضع محرج جداً، وتركتموني أخترع التصريحات أمام أجهزة الإعلام.. إذا كنت غير قادر على الوصول إلى نتيجة محددة، فمن الأفضل أن تقدم استقالتك اليوم قبل الغد.

سكت اللواء لثوانٍ.. لم يكن شجاعاً ليقول للوزير: "إذا كنت حريصاً بالفعل على أن تنتهي القضية، لماذا كنت تتغافل عن مكالماتي إليك؟".. على العكس قال:

- سعادة الوزير، أمهلني ثلاثة أيام على الأكثر، أعتقد أنني قادر على لمّ الخطوط التي اتضحت لي وبدأت في التشكل أمامي.

في الواقع لم تكن هناك أي خطوط. وكان اللواء يدرك في نفسه أنه تباطأ كثيراً، وأنه مثل غيره من المسؤولين، يفكّر في مصالحه الذاتية، ففي اللحظة التي كان يقول فيها هذه الكلمات، كان يرى أمام عينيه بخياله صورة المعمل الجنائي الخاص الذي طالما حلم بإنشائه منذ سنوات بعيدة، وقد جاءت الآن الفرصة المناسبة لأن يحقق حلمه.

***

الوزير من جهته، لم يكن ليُجرِي هذا الاتصال لولا أنه تعرّض لحصار من قبل مجلس الوزراء صباح اليوم، في

جلسة غير معلنة، بعد أن شنّ عليه بعض الوزراء هجوماً عنيفاً، خاصة بعد تصريحه الأخير بأن هناك جهاتٍ أجنبية وراء حادثة الاغتيال، والذي كان يُدرِك أنه: "تصريح لا يستند إلى أي دليل، حيث كان الهدف منه شغل الرأي العام وإقناعه بأن ما جرى لا يشبه طباع السودانيين وأن الحكومة بريئة من دم العربي".

حاول الوزير الدفاع عن رؤيته الأخيرة أمام الوزراء، لكن عدداً قليلاً وقف إلى جانبه، وكان منطقهم الذي عبّروا عنه جهراً أمام مجلس الوزراء: "الحكمة تقتضي عدم إشعار الناس بأن الوضع الأمني في البلاد يسوء يوماً بعد يوم.. لابد من التصريح بأي شكل كان حتى يسكت الناس ويجدوا ما يشغلهم لحين، إلى أن يحدث أمر جديد يكون أقوى تأثيراً من الأمر الأول".. أما الجزء الذي احتفظوا به لأنفسهم: "ما فعله الوزير كان ضرورياً، خاصة أن الأحداث تتلاحق في البلاد على الصُّعُد كافة وبشكل مزعج".

الذين عارضوا الوزير، تلخصت أفكارهم في: "أن تصريحات الوزير تهدد علاقة السودان بعدد من الدول، تلك العلاقات المتوترة أصلاً، ولا داعيَ لزيادة التوتر"، ورأى بعضهم: "أن ما قاله الوزير في التلفزيون، يعتبر تصرفاً فردياً يجب أن يعاقب عليه، خاصة أنه لا يستند إلى أي دليل.. لاسيما بعد أن وصلت مذكرات احتجاج من سفارات بعض

الدول الأجنبية التي أخذت التصريح على محمل الجدّ، وتضمنت بعض الاحتجاجات تهديدات بسحب السفراء".

أمام هذا الوضع كان على الوزير أن يحاول إنقاذ الموقف بأسرع وقت وبشكل ذكي، بخلاف ما كان يفكّر فيه قبل أيام: "مسألة وقت وسوف ينسى الناس كل شيء، فهذا الشعب أصبحت ذاكرته خربة.. إذا أردت أن تجعلهم ينسون الموضوع الأساسي بإمكانك فعل ذلك، بجعلهم يفكّرون في شيء آخر وبطريقة مبتكرة".

غادر الوزير الاجتماع، وأثناء اتّخاذه طريقه نحو مكتبه أجرى الاتصال باللواء طه، في محاولة لفعل أي شيء.. أي شيء ممكن.. على الرغم من يقينه التام: "أن المُضي في التحقيقات قد يفضح أموراً لا تُحمد عقباها لأطراف في الحكومة، خاصة بعد أن أصبح الشارع يتحدث بشكل مسموع عن هذا الأمر".. كان ذلك أحد تبريراته التي ساقها أمام الوزراء:

- أحببت أن أغيّر وجهة النظر التي تقول بأن الحكومة قد تكون لها علاقة بما حدث.

في تقدير الغالبية، لم يكن تبريره الأخير كافياً.. "ها نحن نعلم جميعنا أننا أبرياء من دم العربي" قال أحد الوزراء.. في الوقت الذي كان كل وجه ينظر إلى الآخر بشكٍ مستبطن، وقال الوزير نفسه سراً: "الله أعلم.. إذا كان المجرم وسطنا هنا في هذه القاعة.. أم لا؟!".

كان الوضع معقداً جداً في تقدير الجميع، في ظل الشكوك المتبادلة، "لكن ما يجب أن يتخذ على وجه السرعة، يتلخص في ضرورة فعل ما يدلّ على أن الحكومة جادة في القبض على المجرمين الحقيقيين" ، هذا ما فكّر فيه وزير الداخلية وهو يرفع الهاتف النقال ليجري مكالمته مع اللواء.

بعد أن طلب اللواء مهلة ثلاثة أيام، رأى الوزير أنه من المجدي أن يعقد اجتماعاً عاجلاً مع اللواء والفريق المُكلّف بالتحقيق في القضية.

ختم مكالمته بأمر واضح للواء:

- خلال ساعة من الآن يجب أن تكونوا جميعكم في مكتبي.

أغلق الوزير الخط، تاركاً اللواء منتظراً، والذي ظنّ لثوان أن المكالمة لم تنتهِ بعد، ليكتشف وهو في حالة إرهاق نفسي أن الهاتف قد تمّ إغلاقه من قبل الطرف الثاني.

***

بعجلة قام اللواء وبناءً على الأوامر المعطاة له، بالاتصال بأفراد التحقيق، واتضح له أن اثنين منهم لن يحضرا الاجتماع، الأول لأنه كان قد سافر دون أن يخبره لأداء العمرة.. والثاني لأنه كان قد سافر أيضاً دون أن يعلمه، ولكن إلى القاهرة، لإجراء عملية جراحية تجميلية لأنفه.

كان الموقف محرجاً، وفهم اللواء أنه كان مهملاً، وعليه أن يتوقع أي ردة فعل من الوزير، الذي يبدو أن الأمور عنده ليست على ما يرام.

خلال عشر دقائق كان ثلاثة أفراد قد انطلقوا في العربة ماركة لاندكروزر، ذات الدفع الرباعي، بصحبة السائق، وهم اثنان من المحققين المسؤولين عن ملف القضية، واللواء الذي ظهر عليه الإرهاق النفسي والتوتر، لدرجة أنه لم يشعر بأن السيارة أصبحت أمام الموقف الخاص بالوزارة، توقفت.. وخرج الآخرون.

فجأة انتبه اللواء أن عليه أن يسرع لأن ثلاث دقائق فقط تبقت على الموعد، ولم يكن ليحسّ بشيء من حوله لولا أنه شعر بسخونة الجو بعد أن فُتِحت أبواب السيارة ودخل الهواء الساخن من الخارج، طارداً الهواء المبرد داخل المركبة.

وجد اللواء طه نفسه يجري مسرعاً دون أن يلتفت إلى من هم حوله، ليقف مباشرة أمام مكتب الوزير ممسكاً بمقبض الباب الخشبي ويفتحه، لتقع عيناه مباشرة على الوزير واقفاً في منتصف المكتب معطياً ظهره للباب، لكن بمجرد أن تقدم اللواء أول خطوتين إلى الداخل، استدار الرجل الرفيع، ببذلته الزرقاء، ذات الأكمام القصيرة، مُوجّهاً نظراته بقوة تجاه الرجال الثلاثة.. أشار إليهم دون أن يتكلم بالجلوس حول طاولة الاجتماعات الدائرية في ركن قصي من المكتب..

كان اللواء قد نسي الباب مفتوحاً، فأسرع سكرتير الوزير لإغلاقه ببطء.

قبل أن يتحدّث أي من الأربعة، ارتفع رنين هاتف اللواء، الذي نسي أن يغلقه قبل الدخول، فوجد نفسه في موقف محرج أن ترك الهاتف مفتوحاً، خاصة بعد أن رمقه الوزير بعصبية.

الأكثر إحراجاً أنّ المتصل من الطرف الآخر، شخص مهم جداً في تقدير اللواء، تربطه معه علاقة مرتبكة منذ أن وقع حادث الاغتيال: "لذا يجب عليه أن يردّ على مكالمته".. لكن نظرات الوزير جعلت اللواء يشعر بالرعب، فأسرع لإغلاق الهاتف في وجه المتصل، على الرغم من علمه أن "ما فعله لن يمر دون مساءلة وتقريع شديدين من قبل ذلك الشخص المهم والذي لن يسكت على هذا التصرف".

على الطرف الآخر، كان المتصل محجوب العوض (مدير عام الأمن) قد شعر بالضيق الشديد لهذا التصرف الذي قام به اللواء.

كان العوض يعتقد أن طه لم يصل بعد إلى اجتماعه مع الوزير، فأراد أن يوجّه إليه تعليمات معينة تتلخص في: "عدم التراخي أمام الوزير!".. دون توضيح السبب: "أن لدي معلومات مؤكدة أن الوزير سوف تتم إقالته من منصبه قبل

نهاية اليوم، نتيجة تصرفاته الحمقاء من خلال تصريحه الأخير الذي لم يستشر فيه أحداً".

لم يترك الوزير الوضع على حاله، ليبدأ الاجتماع بشكل طبيعي، فقد أسرع إلى خطف هاتف اللواء من بين يديه، وشغّله مراجعاً قائمة المتصلين، ليتوقف على الرقم الأخير، الذي عرف من يكون صاحبه في الحال.

كانت ردة فعله المباشرة أن رمى بالهاتف أرضاً وداسه بحذائه الإيطالي الثمين.. قبل أن يبصق في وجه اللواء قائلاً:

- من المفترض أن تتذكر أن الهاتف يجب أن يكون مغلقاً قبل دخولك إلى هنا.

قبل أن ينطق اللواء بأي كلمة، بعد أن شعر بالغبن، لكنه التزم الهدوء لثوانٍ.. كان الهاتف قد رنّ من جديد، فضغط عليه الوزير بشدّة؛ بكامل قوته. وبدلاً من أن يغلق الخط في وجه مدير عام الأمن كان قد شغّل مكبر الصوت، ليسمع الجميع محجوب العوض، يصرخ بصوت عالٍ:

- أيها الجرذ لماذا لا ترد؟

كان يعني بالجرذ اللواء طه، الذي ارتفعت حرارته، وبدأ غضبه بالفوران، ليجد أن وضعه بات غير ملائم لمواصلة الاجتماع مهما كانت النتيجة، بعد أن قال لنفسه: "لن أفقد كرامتي حتى لو فقدت وظيفتي".. وارتفع صوته بغضب شديد وانفعال، مسموعاً للحضور ولمحجوب على الخط:

- كلكم كلاب!!.. إذا كانت هذه القضية سوف تُخلّد

اسمي في التاريخ، فلن أستمرّ فيها، ابحثوا عن كلب مثلكم لتسيير مصالحكم.. سأغادر هذا المكان النتن فوراً.

ارتفع الصراخ في المكان.. الوزير من جهة، ومدير الأمن على الخط من جهة أخرى، واللواء من جهة ثالثة.. فيما كان عضوا لجنة التحقيق يراقبان ما يجري بخوف شديد، وهما غير قادرين على الجلوس أو الوقوف.. في الوقت الذي اتخذ اللواء طريقه نحو الباب ليفتحه بعصبية ليخرج، ففوجئ أنه مغلق بالمفتاح، حيث لم تُجدِ محاولاته اللاإرادية لسحب المقبض أكثر من مرة، في فتح الباب.

فهم محجوب العوض من خلال الأصوات التي سمعها أن اللواء لا يزال موجوداً في مكتب الوزير، لكن هذا لم يوقفه عن استمراره في توجيه الإهانات، حيث قال للواء:

- هل تريد أن تكون عبداً لهذا الحمار الأحمق؟

لم يجب اللواء، وكان أن ردّ الوزير بغضب، أثناء محاولته توجيه ركلة سريعة بساقه الطويلة إلى طاولة الاجتماع بعد أن فقد السيطرة على نفسه:

- سترون أنتَ وهذا العبد.

وداس الهاتف بقوة مغلقاً (المايك)، ثم توجّه نحو اللواء، جرّه من ياقة قميصه العسكري، قائلاً:

- اجلس هنا.. هذه أوامري.

ضحك اللواء بشكل (هستيري)، قائلاً:

- هل نسيت أنني عسكري.. وأنني لا أتلقى أوامر من مدنيين؟!

كلمات اللواء الأخيرة استفزّت الوزير الذي كان قد وصل إلى وضع يصعب السيطرة عليه، وبشكل خاطف أخرج من درج مكتبه مسدساً صغيراً، صوّب منه طلقتين تجاه اللواء، استقرتا في الحائط بعد أن قفز اللواء في الهواء، وارتمى على الأرض بسرعة فائقة.. في حين تحرك المحققان الموجودان في المكتب لأول مرة، بعد أن وصل الأمر إلى هذه الدرجة، ساعة انسحبت يد اللواء تجاه جيبه لاستخراج مسدسه، وهو يحاول النهوض بصعوبة.

تولى كل من المحققين سريعاً، الإمساك بأحد الطرفين، في محاولة لتهدئته، وما نجحا فيه أن قاما بسحب المسدسين ورميا بهما بعيداً أسفل المساحة الضيقة تحت الطاولة الرئيسية لمكتب الوزير.

فجأة انفتح باب المكتب من الخارج، والذي كان قد أُغلق من قِبل سكرتير الوزير بتعليمات مسبقة..

انفتح الباب ليجد من هم في المكتب أنفسهم أمام رجل قصير ببذلة واسعة ملتصقة بجسده الممتلئ، عرفوه في الحال.. إنه السيد (مدثر البكري)، الذي كان يشغل منصب وزير الداخلية قبل أربع سنوات، وتمت إقالته لأسباب غير مفهومة إلى الآن.

دخل البكري المكتب على نحو واثق، وخلفه ثلاثة من

أفراد الأمن، الذين تقدّم أحدهم ليقول للحضور داخل المكتب بمن فيهم الوزير:

- عفواً سادتي.. أقدّم لكم سعادة السيد مدثر البكري وزير الداخلية الجديد.

أسرع رجلا الأمن الآخران إلى الإمساك بوزير الداخلية المقال من منصبه، دون أن يكون لديه سابق علم..

سحباه بقلة ذوق إلى خارج المكتب، دون أن ينطق بأي كلمة، لكن وجهه كان قد تحوّل في عيني اللواء، الذي شعر بالانتصار.. إلى باذنجانة سوداء جداً.. ذلك الوجه الذي كان أسود بما فيه الكفاية.

أراد اللواء وصاحباه أن يخرجا دون أن يُعلّقا، بعد أن باركا للوزير الجديد تعيينه، لكن البكري أشار إليهما بالبقاء، بعد أن أغلق باب المكتب بنفسه، وتنفس بعمق قائلاً:

- أعتقد أن أول مهمة يجب أن أقوم بها هي الفراغ من موضوع هذه القضية.

قال (القضية) دون أن يُسميها، وكان كل من الحضور يعرف عن أي قضية يتحدث.

18

إلى ما بعد أسبوعين من اغتيال (التاجر العربي)، كان ميسرة متأكداً تماماً، أن خطته قد نجحت في القضاء على الهدف الرقم واحد، في سلسلة الأهداف غير المعلنة، والتي ينبغي أن تُعلن وتنفذ متسلسلة واحدة تلو الأخرى، إلى أن تأتي اللحظة المناسبة التي تحدثُ فيها الفوضى وتتمكن الخلية من بسط نفوذها على البلاد، وتنفيذ مشروعها الطموح في السيطرة على المال وعبادة الثروة.. ذلك المشروع الذي لا يدرك تفاصيله غير شخص واحد؛ هو ميسرة نفسه.

كان ميسرة يتعامل على أن لديه من الذكاء ما يكفي ليجعل خططه تمضي وفق أهدافها بالضبط، دون أن يعلم أعضاء الخلية، بمن فيهم القادة، بما يخبئه للغد..

هذه الطريقة من التعامل بين القائد وعموم الأعضاء لم يبتكرها ميسرة، فقد كان يراها: "أحد ملامح العمل التنظيمي في السودان، فدائماً هناك قيادة تُصرّف الأمور وتضع التقديرات النهائية، وهناك من ينفذون دون أن يفهموا أحياناً مغزى ما يقومون به".

بالفعل وقع حادث اغتيال السيد العربي، في اليوم

المحدد نفسه وفي الوقت نفسه.. وكان على أعضاء الخلية الذين نفّذوا العملية، أن يتّبعوا التعليمات بدقة، وهذا ما نجحوا فيه بحرفية عالية، رغم أنه لم يسبق لأي منهم، أن قام بعمل إجرامي من هذا النوع من قبل، حيث تولى خالد عملية مراقبة المكتب من الخارج أثناء جلوسه في غرفة السكرتارية باعتباره مديراً لمكتب العربي، منذ حوالى السنة.. ومنع أي أحد من الدخول بحجة أن السيد العربي مشغول باجتماع هام مع اثنين من موظفيه، هما هيثم والسر.. اللذان قاما بإغواء العربي داخل المكتب، حتى أنهيا حياته.. ذلك الإغواء الذي مثّل طقساً دأبا عليه منذ ثلاثة شهور تقريباً، بعد أن أصبح كل من السر وهيثم وخالد (أعضاء الخلية) يمارسون الجنس بشكل شبه يومي مع السيد في مكتبه، وفي الفيلا بالمزرعة في نهاية الأسبوع.

لم يكن السيد العربي يدرك أن علاقته مع الشباب الثلاثة، يقف وراءها تنظيم دقيق، ووصلت ثقته بهم إلى درجة أنه جعل بعض من أعماله تحت تصرفهم وأصبح لا يبخل عليهم بالمال الذي كان يتمّ تسليمه مباشرة لميسرة.. كل ذلك جرى بيسر بعد أن شعر العربي بالرضا، بمجرد أن وجد من يشبع شهوته يومياً، وبسرية لا مجال للشك فيها، كما كان يعتقد.

أولاً كان أن تطورت العلاقة مع خالد، الذي أصبح

جزءاً لا يتجزأ من جسد السيد، ومن ثم عرّفهُ خالد على هيثم والسر..

كان أحدهما، وهو السر.. شاذاً جنسياً منذ صباه، دون أن يكون للخلية علم بذلك، فيما قاوم هيثم مشاعره وأخلاقه التي انطبع عليها منذ الصغر حتى استطاع أن يقوم بدوره في الخطة، بعد أن آمن بقناعة تامة بالمبادئ التي يدعو إليها ميسرة عبر الكتاب التأسيسي للخلية.

كان على الخلية أن تسرع في تنفيذ الخطة واغتيال السيد، لأن خالد اكتشف من خلال دراسته لشخصية التاجر أنه سريع الملل فيما يتعلق بشهوته الجنسية، وأنه قد يقوم في أي لحظة بالاستغناء عنه مع رفيقيه، بعد أن يجد شباباً أو صبية آخرين يقضي معهم شهوته المستمرة، حيث سبق أن استغنى عن مجموعة الصبية الذين كانوا معه في المكتب، بعد أن جاء خالد.

أوضح خالد مخاوفه للقائد، فردّ عليه قائلاً:

- أنت من الذكاء بما يكفي لتنهي هذا الأمر، قبل أن ينقلب التاجر علينا.

وافق خالد من حيث المبدأ على تعليمات القائد، لكنه في باطنه كان متردداً، وذلك بالنظر إلى مصلحته الذاتية، فخلال الشهور الماضية تحسنت صحته كثيراً، وصار يأكل أطيب أنواع الطعام ويحتسي أفخر الخمور المستوردة،

ويمارس الجنس بطريقة محترفة، بعد أن أصبح يجد متعة في ذلك.

بتأمل هذه الفوائد الكثيرة، رأى خالد أن إنهاء المشروع من قبله، يعني خسارته شخصياً في الوقت الراهن، وأيضاً في الغد المجهول، عندما يضع نفسه أمام تهديد مستقبلي كمشارك في جريمة قتل، فقد تقبض الشرطة عليه مع رفيقيه السر وهيثم، وهنا ينتهي كل شيء.. وهنا يكون قد دمّر حياته..

كانت هذه الخواطر تجول في ذهنه رغم إيمانه بتعاليم الخلية وما يدعو إليه القائد في الكتاب التأسيسي، لكن تفسير هذه الحالة في منظوره يرجع إلى طبيعة النفس البشرية كما يقول ميسرة في الكتاب التأسيسي: "الإنسان لا يعرف غير مصلحته.. إذا وجد المكان الذي يحقق له ما يريد؛ بقي فيه".

***

يوم الخميس أثناء وجوده ليلاً في فيلا العربي في المزرعة، نهاية آخر أسبوع قبل وقوع الجريمة، التي تمت في صباح السبت، وفق الموعد المحدد حسب الخطة.. كان خالد قد وصل إلى قرار حاسم بأن يستمر إلى النهاية مع الخلية، قال لنفسه:

"يظلّ العربي في نهاية الأمر حلقة ضمن الحلقات التي

يجب أن يُقضَى عليها في هذا البلد.. تفكيري في مصلحتي بالخروج على طاعة الخلية والاستمرار معه، سيكون مغامرة لا يمكن التكهن بما ستفضي إليه.. خاصة أن السيد، حتى لو وجد فيّ رفيقاً مهماً، فهذا الأمر قد لا يستمر.. فكم من الشباب والصبية كانوا إلى جواره ورمى بهم؟!.. سأقول إنني أعتمد على ذكائي في تحريكه، لكن أمثال هؤلاء الكبار لا يمكن أن تفهمهم جيداً أو تطمئن إليهم، فشخصية العربي الصارمة أثناء الاجتماعات الرسمية والعمل لا تشبه شخصية ذلك الرجل المتأوه، المتعب جداً الذي ينتظر اللحظة التي يُشبع فيها شهوته".

استحضر مجموعة من المواقف في ذهنه تؤكد صحة ما ذهب إليه.. تذكّر أن الأيام الأولى من علاقته مع العربي، كانت الأقوى من حيث تأثيره في الرجل، عندما كانت الشهوة في قمتها.

بمرور الزمن، قلت الحماسة، لولا أن خالد كان يُوظّف ذكاءه في جعل الوقت يمتدُّ لأطول مدة ممكنة، حتى يستطيع أن يُدخِل العضوين الآخرين إلى الخلية هيثم والسر في علاقة جنسية مع العربي. ونجح في ذلك، ليفهم من القائد ميسرة: "أن ساعة النهاية قد اقتربت.. يجب أن نُنهي الخطة خلال أقل من ثلاثة أشهر".

حدّث خالد نفسه بوضوح تام: "إن إيماني بعقلي، وبالخلية.. يجعلني أقرر الآن كراهيتي لأمثال هذا الرجل..

حتى لو أنني عشت معه أياماً من المتعة الحقيقية التي ربما أنساها لاحقاً.. ما يجب أن يبقى هو الخلية وأهدافها الكبيرة.. ذلك هو المستقبل".

واصل حديثه مع نفسه أثناء تجواله في الفِناء الخارجي من الفيلا، ساعة كان السيد نائماً في الصالة.. واسترجع آخر حوار له مع ميسرة في ليلة أمس، متذكّراً ما قاله القائد:

- أعرف أن ثمة مخاطرة في ما نقوم به، خاصة أنها العملية الأولى التي تنفّذها الخلية، لكنني واثق أن الأمور سوف تجري على ما يرام.

شعر خالد بشيء من الارتباك والخوف، ولم يقدر على دسّ مشاعره السلبية أمام ميسرة، الذي راقب ذلك، فتحدّث محاولاً إعادة الثبات إلى عضو الخلية:

- علينا أن نُفكّر أن أي مغامرة، تقوم على احتمالين: الفشل أو النجاح.. والفشل قد يعني الموت، هل أنت خائف يا خالد؟

أراد ميسرة استفزاز مشاعر خالد بأن يقول له بشكل غير مباشر: "إنك جبان، هل تريد أن تتراجع عن العملية في اللحظات الأخيرة؟"

غير أن ما فهمه خالد كان مختلفاً، فهو لم يتعامل ذات يوم مع ميسرة على أنه شخص يفكّر داخلياً بعقلية الاستفزاز.. فقد كان ينظر إليه على أنه قائد مختلف عن الرموز المعروفة على الساحة السودانية: "أولئك الذين يفكّرون في مصالحهم

فقط".. بل على العكس كان يرى: "أن ميسرة يكرّس وقته وحياته من أجل الخلية.. التي سوف تنجح في أهدافها وستتمكن ذات يوم من تمكين وضعها في البلد"..

قال للقائد رداً على سؤاله الأخير:

- سيدي، في سبيل أن نصل إلى ما نرغب فيه لابد من ضحايا.. إذا فشلت العملية الأولى، فسوف تكون هناك عمليات أخرى بالطبع.. هناك من سيتولون المهمة من بعدنا.

نظر إليه ميسرة بإعجاب، دون أن يفصح عمّا يفكّر فيه باطنياً: "هذا ما أبحث عنه بالضبط، أن يصل أعضاء الخلية إلى درجة الطاعة العمياء بعد أن تذوب مصالحهم الذاتية، داخل مصلحة القائد، الذي هو الخلية".

نفث ميسرة دخان سيجارته في الهواء الساخن، وأوضح لخالد التالي:

- بمجرد أن ينتهي أمر (التاجر)، ستفرون في الحال إلى خارج العاصمة بسيارتك التي هي إحدى هبات المرحوم (قالها ميسرة ضاحكاً).. ستصلون إلى النقطة التي سوف أحددها لك بعد قليل، وهناك سوف تجدون عضوين من الخلية لم تتعرفوا عليهما من قبل، سيقومان بتعريف نفسيهما بكلمة سرّ معينة.. هي (........).. هذان العضوان سيتوليان عملية نقلكم بسيارة خاصة إلى الحدود مع أثيوبيا، حيث ستمكثون هناك حتى هدوء الأوضاع، ونجاحنا في العملية الثانية فالثالثة.. لن تتأخروا كثيراً في الانتظار بالخارج، ففي

تقديري أن سيطرتنا لن تكون بعيدة.. قريباً جداً سوف تأتي اللحظة التي نساوم فيها الحكومة على المشاركة في الحكم، أو قد نتمكن قبل ذلك من خلل البلبلة التي نتوقعها في البلاد، فيكون المناخ مناسباً لنا لتنفيذ برامجنا المستقبلية.. هذا موضوع آخر سوف تعلمون به في حينه.

كاد خالد أن يدخل في حالة من الشك، حيث إنه لم يكن يدرك من قبل أن لدى الخلية إمكانات مادية تُمكّنها من اقتناء سيارات، فميسرة يحصل على ثمن السجائر التي يُدخّنها من الأعضاء ويعيش على هبات العضوية، بما فيها ما يُحصّله خالد من العربي ويقوم بتسليمه مباشرة إلى الخلية ممثلة في قائدها.

راقب ميسرة مشاعر خالد، وفهم بسهولة ما يُمكن أن يدور بذهنه، فطمأنه بقول ملفق:

– أدرك ما تفكّر فيه، لكن يجب أن تعلم أن ما تعرفه كعضو عن الخلية لا يتعدى سوى أمور قليلة، فهناك من بدأوا فعلاً بمساندتنا ودعمنا من داخل البلاد وخارجها، لن أفصح لك عن هويتهم، ويجب أن تبقى هذه المعلومة سراً.. لكن تأكد أنه مهما حدث لن يصيبكم شر، ثِقْ بذلك.. هل تثق بالقيادة أم لا؟

ضحك خالد بعد أن صدّق ما سمع واطمأن تماماً، حيث لا مجال للشك في كلام القائد الذي لا يكذب.. وردّ بابتسامة كبيرة، قائلاً:

- نعم أثق بك سيدي.

بعد هذه المعلومة التي يعرفها لأول مرة، شعر خالد براحة نفسية، وكان عليه بناء على تعليمات القائد أن يقوم بطمأنة العضوين السر وهيثم وتعريفهما بخطة الفرار.

لم ينسَ أن يسأل ميسرة قبل وداعه:

- أعتقد أن سيارتي سيتم التخلص منها بعد فرارنا؟

أوضح له ميسرة:

- بالطبع.. سنتخلص منها بحرقها.. في هذه المرحلة لا نريد أن نترك شبهات.. ولا تهمنا قيمة سيارة، فالمال سوف ينزل علينا كالمطر في الوقت المناسب، وقد بدأ هذا الحدث السعيد فعلاً.

19

في اللحظة التي وصل السيد العربي إلى ذروة النشوة، وهو يغرس قضيبه في مؤخرة السر، داخل المكتب.. كان هيثم قد قام بتكميم فم الرجل الغارق في شهوته، وباغته بتوجيه طعنة قاتلة في موضع القلب تماماً من خنجر صغير لم يره السيد وليس بإمكانه أن يرى أو يسمع أي شيء في تلك الدقائق التي خرج فيها عن الزمن، تحت تأثير اللذة.. ومن ثم أكمل الشابان نشوتهما العالية معاً!!.. قبل أن يواصلا طعن الجسد بالخنجر في أكثر من موضع كما بيّن التحليل المشرحي.

قاما بقطع القضيب وتعليقه على الستارة، قبل أن يلبسا ملابسهما بسرعة، ويعلما القائد بالهاتف النقال بأن كل شيء قد انتهى.

خرج السر وهيثم بعد أن فتحا الباب الذي كان مغلقاً من الداخل، وغادرا الشركة في الحال، في حين بقي خالد حوالى الدقيقة، قبل أن يغادر بحجة الذهاب إلى الحمام، معتذراً لشخصين كانا يجلسان في صالة الاستقبال في انتظار الدخول على السيد:

- عفواً سيد (علي)، عفواً سيد (عبد اللطيف)، عليكما الانتظار بعض الوقت، لأن السيد يُجري مكالمات مهمة.

قال ذلك بعد أن رنّ هاتف مكتب الاستقبال، وتحدّث مع خالد شخص، ظنّ علي وعبد اللطيف، أنه السيد العربي يتحدث من داخل مكتبه، في حين كان المتصل هو السر من أمام بوابة العمارة، يخبر خالد:

- السيارة مستعدة للانطلاق.. هيّا لا تتأخر.

ظلّ علي وعبد اللطيف، وهما سمساران يتعاملان مع العربي في صفقات لبيع الأراضي وشرائها، جالسين حوالى عشر دقائق وأكثر يثرثران في موضوعات تجارية، حول سوق الأراضي، ويحاولان حبك قصص وحكايات لإقناع العربي بشراء أرض مسورة لورثة بالخرطوم بحري، دون أن ينتبها إلى أن خالد قد تأخر في الحمّام (الذي لم يدخله أصلاً).

كانت تلك المرة هي الأولى التي يدخل فيها السمساران هذا المكتب بالتحديد، فقد سبق لهما أن اجتمعا مع السيد في أكثر من مكان، حيث تتعدد مكاتبه وشركاته التي يتنقل فيها.. لكن قلة من الناس تعرف هذا المكتب، الذي يستغله لأهوائه الخاصة.

***

زيارة السمسارين للمكتب السري، كانت جزءاً من الخطة التي وضعها ميسرة بناء على معلومات خالد:

- سوف تتصل بهما صباحاً وتخبرهما أن التاجر العربي في انتظارهما لعقد بعض الصفقات العقارية.. وبهذا سوف يكون السمساران، ضحيتين أوليين، تنشغل بهما الشرطة، لأنهما سيكونان في المكتب بعد الحادثة تماماً.. لا أعتقد أن أحداً آخر سيكون موجوداً..

- هذا ما سيحدث بالفعل.. فلا أحد لديه علم بالمكان.

بدر لخالد سؤال مفاجئ: "ولكن كيف ستعلم الشرطة بالجريمة في الحال؟.. فأغلب الظنّ أن السمسارين لن يُبلغا بالجريمة فيدخلا في ورطة، وإذا اكتشفا شيئاً سيسرعان في الهروب"..

كان ميسرة قد قرأ ما يفكّر فيه خالد، فأسرع لطمأنته قائلاً:

- لا تقلق كل الأمور مرتبة من قبل القائد.. الشرطة ستعلم وبواسطتنا نحن!.. وستكون في موقع الحدث قبل أن يغادر السمساران.

تعجب خالد من الطريقة التي يرى بها ميسرة الوقائع "إذ كيف يُبلغ الشرطة؟! فهذا يُشكّل خطراً عليهم!!"، لكن إيمانه بالقائد جعله يتوقف عن الكلام بعد أن قال:

- إذن سيدي...

فهم ميسرة مخاوف خالد أن تلحق بهم الشرطة، في حال معرفتها على الفور بالخبر، فردّ:

- سيكون أمامكما الوقت الكافي للفرار، أنا أعرف

الطريقة التي يُفكّر بها رجال الشرطة هنا، سوف يضيّعون الوقت في أمور تافهة. لو كانت لدينا شرطة عاقلة لما كان هذا حالنا، إنهم يرمون بزبالة المجتمع في سلك الشرطة.

***

نجحت الخطة، لكن السمسارين لم يكونا ضحيتين تلعب بهما الشرطة إلى أن تتضح الحقائق إذا حدث ذلك، فقد شعرا بعد مضي بعض من الوقت أن عليهما أن ينصرفا، حيث من الواضح أن السيد مشغول جداً، فمن عادته أن يتصل بالناس ثم يتناساهم، ليس هذا غريباً عنه.. كان مبررهما: "أن هذه العادة سببها الظاهر: كثرة الانشغال مع العمل، لكن مبررها الحقيقي يرتبط بعادة السيد ترك كل شيء إذا ما رأى أن شهوته قد أقلقته"، وقد تأكد لهما ذلك بعد أن شاهدا حركة الشباب (المائعين) في المكتب.

قال علي لعبد اللطيف:

- هيا بنا ننصرف، يبدو أننا ضيّعنا الوقت في أمر لا يجدي.. فالسيد مشغول مع أموره.

فهم عبد اللطيف المقصود بكلمة (أموره).. ابتسم ابتسامة صغيرة، ولم يعلق.

قبل أن يغادرا دون أن يفكّرا في الشاب الوسيم (مدير مكتب السيد)، أين ذهب؟، وكنوع من حب الاستطلاع قام

عبد اللطيف الذي لا ينتبه كثيراً لتصرفاته، بمحاولة تحريك مقبض باب مكتب السيد العربي؛ ليجد أن الباب غير مغلق، حيث فُتح معه بسهولة تامة.

أطل السمسار بطرف رأسه داخل المكتب، متوقعاً أن يرى السيد جالساً منهمكاً في مكالماته الهاتفية، أو أي عمل آخر، ولكن بدلاً من ذلك كانت المفاجأة، أن رأى جسداً يسبح في الدم.

كاد عبد اللطيف أن يصرخ لهول ما رأى متجمّداً في مكانه، في حين شعر علي بأن ثمة أمراً غريباً يحدث، عندما رأى أن رفيقه غير قادر على الكلام وقد دخل في حالة من الذهول المفاجئ.

وبدافع حب الاستطلاع - أيضاً - لفهم ما يدور كان أن أطل علي بطرف رأسه داخل المكتب، ليرى المشهد ذاته الذي رآه رفيقه، فما كان منه إلا أن أطلق ساقيه للريح، مغادراً المكان، عبر الدَرج القديم في المبنى، وتبعه عبد اللطيف دون أن يتكلم أحدهما مع الآخر، أو يراه بعد ذلك اليوم.

ظلّ الباب الخارجي للمكتب مفتوحاً، والشركة خالية، في مكان نادراً ما يدخله أحد، باعتبار أنه غرفة عمليات خاصة للسيد، إلى أن دخلت الشرطة المكتب متأخرة، بعد حوالى الساعة، من وقوع الجريمة، وذلك بعد أن تلقى رقم البلاغات والطوارئ (999) مكالمة من مجهول، عبر أحد هواتف الشارع العام من أم درمان، ولم ينطق المجهول بغير

جملة واحدة: "رجل الأعمال المعروف السيد عبد الله العربي تمّ اغتياله في (مكتبه السري) الواقع في شارع البرلمان".

تمّ أخذ المكالمة على محمل الجدّ لتضمنها عبارة (المكتب السري)، والتي اعتبرها اللواء طه (شيفرة) خاصة لا يعلمها أي إنسان عابر، فقد كان اللواء على علم بقصة هذا المكتب الخاص جداً.. ولولا اللواء طه لما وصل أفراد الشرطة العاديون ولا صغار الضباط إلى موقع الجريمة، أو أخذوا البلاغ المجهول على أنه صحيح.

كان ميسرة دقيقاً في تقديره أن الشرطة ستأخذ البلاغ بجدية، غير أن ما أخفق فيه هو تقدير ميقات وصولهم، فقد تأخروا كثيراً إلى أن فرّ السمساران.. هذا ما فهمه لاحقاً من خلال ما تابعه في الصحف عن تفاصيل الجريمة، لكنه لم يحفل بما جرى: "طالما أن الخطة نجحت"، قال لنفسه: "كل تخطيط لابد أن تكون له درجة معينة من الخطأ.. لكن يجب ألا يكون الخطأ كبيراً بحيث ينسف كل شيء".

أخيراً تنفس بعمق.. محاولاً أن يفهم ما الذي يخبئه القدر في الأيام القادمة.. أثناء استغراقه في ضحك جنوني وهو يقرأ الصحف التي لم تشر إلى الطريقة التي علمت بها الشرطة بالحادثة، ولا إلى أمر المكتب السري.. فهم ميسرة أن الشرطة أخفت هذين الأمرين عن الصحافة حتى لا تبدو في موقف الساذج.

20

وصل عبد الحفيظ إلى البيت، في الساعة الثانية والنصف بعد الظهر.. أوقف سيارته في الموقف الداخلي، وهو مرتبك الحواس؛ يفكّر في احتمالات المستقبل، وكيف أن الأمور تتحرك ببطء في هذا البلد.

تذكّر ما قاله له بروك قبل يومين: "ألا تعتقد أن الجهات المختصة تأخرت كثيراً في متابعة القضية والوصول إلى المجرمين؟.. ما يحدث يدعو إلى الشك، للدرجة التي يمكن أن يتصور فيها المرء أن ما يحدث مقصود ولا عفوي".

يشعر عبد الحفيظ بشيء من النعاس، لكنه لم يكن راغباً في النوم، فعقله يعمل بشكل مزعج.. متنقلاً في الأفكار من مكان إلى آخر.. وللمرة الأولى بدأ بأخذ احتمال أن يكون للحكومة دور في اغتيال والده؛ على محمل الجد، خاصة بعد أن شرع في مراجعة تفاصيل اجتماعه مع اللواء طه، والذي خرج منه قلقاً وغير مقتنع بالنتائج.

حدّث نفسه: "لم يكن اللواء واضحاً معي في أي شيء، ولم تكن له إجابات محددة.. كما أن تصريحات وزير الداخلية تُخفي وراءها لغزاً ما!".

واصل تفكيره: "أعتقد أن اللواء نفسه خارج اللعبة لا يدري بالضبط ما حدث.. ثمة أمور غامضة في جملة ما جرى!".

وسأل نفسه: "لماذا أربكه سؤالي(هل تعتقد أن للحكومة صلة بالجريمة؟)".

قبل أن يصل إلى أي نتيجة، حيث عاد إلى التفكير مجدداً في مغادرة البلد نهائياً والهجرة إلى الولايات المتحدة للاستقرار هناك، سمع زينب تناديه من الصالة الداخلية للبيت، بصوت عالٍ:

- تعال لتسمع هذا الخبر في التلفزيون؟

- أي خبر.

- تعال بسرعة.. قبل أن ينتهي الخبر.

كان الخبر هو نبأ إقالة وزير الداخلية من منصبه، والذي جعل عبد الحفيظ بمجرد أن سمعه يعيد التفكير من جديد: "هل لهذا الخبر علاقة باغتيال والده.. أم لا؟".

طرح السؤال بصوت مسموع على زينب:

- هل تعتقدين أن للخبر علاقة بمقتل الوالد، وتأخر الحكومة في كشف المجرمين؟

لم تكن لدى زينب إجابة بالطبع.. ردّت قائلة:

- أعتقد أننا لا نعرف هذا البلد كما يجب لنحكم على الأشياء أو نحللها بشكل دقيق.

وواصلت:

- في مثل هذه البلدان، تغيير وزير ليس أمراً مفاجئاً ويمكن أن يحدث لأسباب تافهة أحياناً، لقد قرأت رواية بالإنجليزية قبل عدة سنوات لكاتب من ساحل العاج، يتحدث فيها عن شيء من هذا القبيل يحدث في بلده.

ابتسم عبد الحفيظ، الذي يعلم بأن معلومات زينب غالباً ما تشكّلها الروايات، لا المعايشة.. قال لها:

- الأمر لا يتعلق برواية.. نحن هنا نتحدث عن واقع نعيشه، نحن طرف فيه.. هل نسيتِ أنهم تأخروا كثيراً في الوصول إلى مرتكبي الجريمة؟.. وهل نسيتِ أن الوزير ذاته اتهم جهات خارجية بأنها وراء ما حدث؟!..

- كل ما تقوله لا يحمل معنى مفيداً.. لقد قالت لي صديقتي سارة، مرّةً: لا شيء يمكن أن يُفهم هنا، حيث لا يوجد شيء يسير بنظام.. هل تصدّق أنها ومنذ تخرجها معي في الطب ما زالت عاطلة؟

- أف.. كل هذه السنوات.

- نعم.. أشعر بتعاطف معها، لقد كانت الصديقة الوحيدة المخلصة من أصدقاء الماضي في الجامعة.. كانت الوحيدة التي جاءت للعزاء في الوالد.

- مجرد التعاطف لا يكفي، يجب أن تقومي بعمل إيجابي تجاهها.

ردّ عبد الحفيظ بلهجة حازمة على زينب قبل أن يتوجه إلى غرفة النوم، في محاولة لأن ينام إذا استطاع.

قبل أن ينام، حيث ظلّ يفكّر لأكثر من عشر دقائق، وبطريقة مشوشة.. توقف عند فكرة أرقته كثيراً: "هل من الممكن أن يكون رفضي تولي منصب وزاري في الحكومة، هو السبب وراء كل ما حدث؟ وهل من الممكن أن تكون رغبة الانتقام قد وصلت في هذا البلد إلى هذا الحد؟"..

هذا التفكير الأخير، أعاده من جديد إلى الحوار الأخير مع والده، والذي حذّره فيه بتوقع أي شيء .. حتى القتل..

سأل نفسه: "هل كان والدي يعني أنه من الممكن أن يفكّروا في قتلي لسبب كهذا؟.. وصدق كلام الوالد ليكون الضحية (هو).. ولا أنا.. كنوع من التأديب لي والانتقام مني".

***

في المساء طرح أفكاره الأخيرة على صديقه الإنجليزي بروك، فاقترح عليه بروك التالي:

- لكي تكون عملياً، يجب أن تنسى الماضي وأن تقوم بعمل يحترمك من أجله الناس هنا.. عموم الناس.

- ماذا تعني بالضبط.. حاول أن توضح لي؟

- (أوكي)..

قال بروك قبل أن يرجع إلى الوراء على الكرسي المتأرجح، في حديقة بيت السيد العربي، ومن ثم يواصل توضيح ما يفكّر فيه:

- أن تعود مجدداً إلى الاستقرار في أمريكا، هذا تفكير غير عملي.. لأن مستقبلك هنا، في هذا البلد.. قد تكون الأوضاع غير مستقرة، والحياة بها صعوبة هنا.. لكن أنت معروف في السودان، من خلال معرفة الناس لوالدك، ومن قبله جدك، أعني تاريخ العائلة.

كانت لدى بروك فكرة كافية عن عائلة العربي، وقد كانت صداقته مع عبد الحفيظ في الأساس، تُمثّل امتداداً لعلاقة قديمة بين عائلة بروك وعائلة العربي، منذ زمن الاستعمار، حيث ربطت العائلتين استثمارات تجارية مشتركة منذ ما لا يقل عن ثمانين سنة.

استمع عبد الحفيظ بإصغاء تامّ إلى بروك، وقد كان يرى أن أفكاره دائماً موفقة ومنطقية.

واصل بروك:

- إذا سمعتني بشكل جيّد، فما يجب أن تفعله يتلخص في التالي: أن تقوم فوراً بإجراء اتصالات مع جهات متنفذة في الحكومة، تعلن لهم فيها استجابتك لدعوتهم القديمة بتقلد منصب وزاري.

قاطعه عبد الحفيظ:

- لكنك تعرف أنني أكره السياسة.

ضحك بروك بصوت عالٍ جداً.. ونهض من على الكرسي قائلاً:

- لا أظنك تجهل مدى التعقيد في عالم اليوم، بحيث أصبحت السياسة والتجارة شيئاً واحداً.

- نعم هما لا ينفصلان.. لكنني نفسياً لا أجد نفسي في لعبة السياسة.

- عليك أن تعمل بعقلك لا بقلبك.. فكّر أنك إذا قمت بارتكاب أي حماقة سوف تخسر كل شيء.. الحماقة التي أعنيها أن تظنّ أنك سوف تواصل عملك بالخرطوم بكل هدوء وتحقق النجاح.. هذا كان ممكناً ساعة كان الوالد حياً، أما بعد أن رحل الوالد، فسوف تجد أنك قارب بلا شراع في بحر مضطرب، ولن يقف معك أحد، إذا لم تتعامل مع الجميع بذكاء.

- تريدني أن أصبح نسخة عن والدي، إذن.

- هذا ما يجب أن يتم بالضبط.. وليس في الأمر عيب، أرقى الأسر في العالم باتت تتعامل بناء على نظرية الاستنساخ، كما لدى عائلة بوش على سبيل المثال، أن يواصل الابن دور الأب.

شعر بروك أن عبد الحفيظ قد دخل في دوامة معقدة من الأسئلة المشوشة، وكان يعرف: "أنه يعاني حالة توتر منطقي، جراء ما حدث، فالصدمة التي تعرّض لها بأن تنتهي حياة والده بهذا الشكل غير المتوقع، كان لها تأثيرها القوي فيه".

لكن بروك بطريقته البراغماتية في فهم الواقع لخّص الأمر بقوله:

- أعرف أنك ترفض أن تكون حليفاً لمن تظنّ أنهم قد

قتلوا والدك، لربما لخلافات قديمة أو أي سبب كان.. لكن عليك أن تفهم شيئاً واحداً.. والدك مات وذهب، وأنت الحي.. ويجب أن تفكر بعقلانية حتى لا تكون أنت الضحية الثانية.

بدأ عبد الحفيظ الشك: "هل يفكّر بروك في مصلحتي أم في مصلحته؟!"، سأل نفسه سراً. لكنه في الوقت نفسه شرع في أخذ فكرة بروك بجدية.. حيث ظلّ في انتظار الصباح الجديد بفارغ الصبر حتى يتّخذ خطوة عملية فعلاً، بعد أن قرر: "رسم صورة جديدة للعائلة، عكس تلك التي انتهت بها حياة الوالد"، بذلك المشهد الذي لا يزال يؤلمه كثيراً كلما أعاد التفكير في الصورة التي رآها في مكتب اللواء طه.. مشهد القضيب المعلق على الستارة.

قال لبروك:

- سأبدأ غداً العمل بناء على نحو عقلاني وواقعي.. هذا ما يجب أن يحدث.. هذا عين العقل.

تنفس بروك بعمق، رغم سخونة الهواء.. أشعل غليونه، وراح يتأمل القمر هارباً في سماء الخرطوم من بين غمامات قاتمة، ثم قال مبتسماً بصوت مسموع؛ كأنه يُكلّم نفسه:

- يبدو أنها ستمطر بعد قليل.

21

قبل أن يبدأ الوزير الجديد اجتماعه مع اللواء طه والعضوين الآخرين في لجنة التحقيق الخاصة بالقضية، رنّ جرس هاتفه النقال، ليتلقى أول تهنئة من خارج المكتب من مدير عام الأمن، محجوب العوض، الذي تحدّث معه بطريقة ودّية، قائلاً:

- سعادة الوزير، ثق بأننا سوف نتعاون معك بكل السبل للوصول إلى المجرمين.. صحيح أن الوقت قد مضى، لكن لا عليك فنحن لدينا معلومات جيدة لا تتوافر للشرطة.

استمع الوزير البكري إلى كلام العوض بكل اهتمام، وفي الوقت نفسه كان ينظر إلى جهة اللواء طه من فترة لأخرى، كلما ورد ذكر الشرطة من قبل مدير الأمن، وتركّزت النظرات بشكل أكبر، في اللحظة التي سمع فيها العوض يقول:

- أعرف أن هذا الجرذ ربما يكون معك الآن في المكتب، لا تضع الوقت معه، لو كان لديه شيء مهم لقام به من قبل.. أعتقد أن الاجتماع معه مضيعة للوقت.. لدينا معلومات جيدة ومؤكدة لا مجال لطرحها بالهاتف، سوف نلتقي بأسرع فرصة لمناقشة كل شيء..

يدرك السيد مدثر البكري: "أن اللواء طه من الشخصيات التي تبحث عن مصالحها الذاتية، فحسب، وفي سبيل ذلك يمكنه أن ينسى أي أمر آخر".. ويفهم من خلال تجاربه السابقة: "أن اللواء طه شخص سريع الانفعال، لكنه غير شجاع.. لا يستطيع أن يقتل بعوضة، ولعل هذا هو السبب الذي جعله يحتل منصب مدير عام الشرطة لسنوات طويلة، فهو قادر على تحمل أنواع الإهانات كافة.. في سبيل أن يستمر في مكتبه".

ما فكّر فيه البكري قد يكون صحيحاً بدرجة ما، ليس الآن.. ولكن في الماضي، لأن اللواء طه تغيّر كثيراً في السنة الأخيرة، بعد أن تولى محجوب العوض رئاسة الأمن، وبات يمارس عليه دوراً فوقياً استفزازياً، ويعامله بقلة ذوق، أمام الجميع، في إهانات مباشرة لا يمكن السكوت عليها.

***

في الماضي كان العوض من أكثر المقربين للواء طه، حيث زامله في رحلات تدريبية عديدة خارج السودان في فترات مختلفة، وفي تلك الفترة كان كل منهما لا يفترق عن الآخر.

توطّدت العلاقة بينهما، إلى أن صعد طه في المناصب وتدرّج بسرعة اعتماداً على أسباب كان العوض يدركها جيداً،

وهي: "ثقة الكبار به، لأنه يُنفّذ أوامرهم بكل سهولة ودون اعتراض، في سبيل أن يحافظ على مصالحه"..

كان العوض على العكس، يرى: "أن الإنسان يجب أن يكون صريحاً في طرح آرائه وأفكاره ومصادماً"، وقد أدى به هذا النوع من التعامل مع الكبار إلى الوقوع فريسة التهميش والإقصاء.. إلى أن راجع نفسه قبل أقل من سنتين، ليبدأ الحياة على نحو جديد، بنسف الماضي.. فكسب كثيراً، بأن رأى نفسه يصعد سريعاً، ليكون الرجل الأمني الأول في البلد.

***

ظلّ اللواء يراقب عيني الوزير وهما ترمقانه، وأدرك في الحال، أن محجوب العوض يحكي بلهجة ليست في مصلحته

قال طه لنفسه: "هذا الرجل لم يفتر بعد، عن مطاردتي.. لا أدري السبب الذي يجعله يمارس هذا الهجوم عليّ في كل مناسبة!".

رجع اللواء بذاكرته إلى الوراء، يُعيد ذكرى سنوات جميلة قضياها (هو والعوض) معاً، كصديقين يُحسدان على العلاقة الحميمة التي تربط بينهما.

واصل تفكيره سراً: "من المؤسف أن يصل هذا الإنسان إلى هذه الدرجة من الوقاحة.. لكنها الدنيا".. كان يحدّث

نفسه وهو غير قادر على تحديد مشاعره الحقيقية تجاه العوض: "هل يكرهه فعلاً أم لا يزال قلبه يحمل تلك المودة القديمة؟".. كان من العسير عليه أن يصل إلى إجابة محددة.

لم ينتبه اللواء إلى أن الوزير أنهى مكالمته مع العوض، فقد سمعه يخاطبه فجأة:

- سعادة اللواء.. سنؤجل هذا الاجتماع إلى موعد لاحق.

- هل نقول في الغد مثلاً.. أو مساء اليوم؟

نظر إليه الوزير بشيء من الوقاحة، ففهم اللواء أن عليه ألا يسأل، فقط يجب أن يطيع الأوامر.. ومن جديد تذكر أن الشخص الذي أمامه ليس عسكرياً فكيف يطيع أوامره، لكنه في هذه المرة لم يكن جريئاً ليواجهه كما واجه الوزير السابق، حيث اكتفى بوضع الاستعداد للنهوض من الكرسي، منتظراً إشارة من الوزير تفيده بالانصراف.

انشغل الوزير بترتيب مجموعة من الأوراق على الطاولة، واتصل بالهاتف الداخلي موجّهاً أوامره إلى رئيس الشؤون الإدارية بالوزارة، بأن يُغيّر أثاث المكتب:

- لا تعجبني هذه الألوان.. في الصباح أريد أن أرى طاولات جديدة.. اللون الأسود للأثاث مناسب جداً.

- ....

- الأسود المحروق المائل إلى البني.. هو رائع جداً أليس كذلك؟

- ....

دارت في ذهن اللواء أفكار كثيرة مشتتة، في حين كان يستمع إلى الوزير مستمراً في توجيه أوامره بخصوص الأثاث، ووصل الأمر إلى مقعد الحمّام الداخلي الملاصق للمكتب:

- لم أتعود الجلوس على مقعد حمام جلس عليه شخص غيري من قبل.

- ....

- تحتاجون يومين.. لا بأس.. لكن الأثاث غداً كما اتفقنا.

أنهى الوزير المكالمة الثانية، وقف سريعاً يحرك يديه أعلى رأسه.. ودون مقدمات كان قد مدّ أطراف أصابع اليد اليمنى كأنه يقول للحضور في مكتبه: "هيا انصرفوا".. وقد فهموا الإشارة، فغادروا دون أن يسمعوا الوزير يقول لهم "مع السلامة".

قبل أن يُغلق باب المكتب جيداً، أسرع الوزير إلى إجراء اتصال هاتفي من هاتفه النقال، ليتحدث مجدداً مع مدير الأمن، ويتفق معه على اللقاء مساءً بخصوص موضوع القضية.

وضع الهاتف في جيبه الكبير، ووقف بصعوبة.. تذكّر أمراً ما كان عليه فعله.. لقد أنسته المكالمة الأخيرة ما الذي كان يفكّر فيه قبل دقائق..

مرر يده على كرشه المندلقة، ليُعطي عقله إشارة إلى

بطنه، ويفهم أنه كان يفكّر في قائمة الطعام التي وضعها في جيب البذلة.

أخرج الورقة الملونة، وبدأ مراجعة القائمة، يسأل نفسه: "هل يتغدى اليوم سمكاً أم لحمة مفرومة؟". وقال بصوت مسموع حيث لا أحد يسمع: "السمك جيد فهو يساعد على التركيز في التفكير.. سيكون اجتماع المساء طويلاً كما أتصور، ولابد من شحن طاقة العقل بشكل جيد". كان يقول ذلك جهراً وفي سره يفكّر في أمر آخر جعله ينشغل بالسمك دون سواه من الأطعمة.

من جديد ضرب على كرشه المندلق، قبل أن يُحدّث سكرتيره بأن يحمل الحقيبة والملفات إلى السيارة.. ولم يكن يشغله أي شيء مطلقاً، سوى وجبة السمك الشهية التي سوف يتناولها بعد ربع ساعة على الأكثر، مدة الوقت الذي تستغرقه السيارة من الوزارة على شارع النيل إلى مطعم (الأرائك) في الخرطوم (3).

آخر مرة كان الوزير قد تناول فيها الغداء في المطعم نفسه، كانت قبل أربع سنوات، في اليوم الأخير الذي غادر فيه الوزارة.. أراد العودة إلى المطعم ليعلن لجميع رواده والذين يتركزون في فئة كبار الشخصيات ورجال الأعمال: "أن السيد مدثر البكري قد سيطر من جديد على الأوضاع".. ربما كان هذا الهدف الأخير أهم لديه بكثير من دور السمك في تغذية العقل..

توقفت السيارة أمام المطعم في المنطقة المحاطة بعدد من المطاعم الراقية.. نزل الوزير بخفة لا تضاهي وزنه الزائد؛ يستنشق بعمق الهواء الساخن الممتزج برائحة شواء السمك، وهو يغني بصوت خفيض.

22

تجمعت السحب في سماء الخرطوم، لتعلن بداية فصل الخريف.. خريف جديد ومشحون بالغموض، لاسيما لعبد الحفيظ الذي ودّع بروك، ليجد زينب ترتب أغراضها وأغراض طفلها في حقيبة صغيرة، استعداداً للسفر إلى لندن.

ألقى عبد الحفيظ نظرة عليها وهي منهمكة في التجهيزات دون أن يكلّمها، ولم تشعر زينب بأن ثمة أحداً غيرها في الغرفة القائمة بالطابق الثاني من البيت الكبير.

بعد أن غادر عبد الحفيظ الغرفة إلى الصالة، عاد من جديد ليسألها:

- ماذا تفعلين؟

قبل أن تردّ عليه، أجاب بنفسه:

- ألا تعتقدين بأن الوقت ما زال مبكراً لعودتك إلى بريطانيا؟

تأكد بأن ما كان يفكّر فيه كان صحيحاً فزينب لن تظلّ هنا طويلاً، لكنه لم يتوقع أن يكون قرار زينب بالعودة سريعاً إلى هذه الدرجة.

بإمكانه أن يتحدث معها وأن يحاول إقناعها بالبقاء حتى

تتضح الأمور، فهو يحتاج إلى من يقف إلى جواره حتى يبدو نصف الأفق الغائب، غير أنه آثر الصمت، وسمعها تقول:

- لن أبقى في هذه المزبلة.. هذا صندوق قمامة لا بلد.

ليس من عادة عبد الحفيظ أن ينفعل وهو يخاطب زينب، لكنه شعر بضيق نفسي؛ لم يفهم له مبرراً واضحاً غير الأسئلة الكثيرة التي احتشدت في ذهنه، بالإضافة إلى حواره الأخير مع بروك.. وجد نفسه يتكلم بغضب:

- ليس من الشهامة أن تتركيني أواجه الرياح وحدي وتهربي.. إذا كنت تفكرين في أن لندن ستشكل ملاذاً آمناً بالنسبة إليك، مع زوجك الذي لا أعرف حتى الآن السبب الذي منعه من الحضور لأن يعزي في وفاة الوالد، فلكِ أن تعلمي بأنني أنا الآخر أفكر في الاستقرار نهائياً في الولايات المتحدة، لكن ليس الآن..

قال العبارة الأخيرة "الاستقرار في الولايات المتحدة" كنوع من الاستفزاز لشقيقته، لكنه داخلياً كان متردداً بعد الذي سمعه من بروك.

ردّت عليه زينب ببرود:

- وماذا تنتظر هنا؟

- أنتظر أن أفهم ما الذي يحدث بالضبط؟

- صدقني لن تفهم شيئاً.. الوالد الذي كان يفهم كل شيء عن هذا البلد، انتهت حياته بالموت بهذه الطريقة

البشعة، فما بالك بنا نحن الذين لا نفهم أي شيء.. خاصة أنت.. فأنت الذي ستكون في واجهة الانتقام.

***

تتحدث زينب بعقلية صديقتها سارة، فمعظم الأفكار التي تطرحها عن السودان، لم تكن من بنات أفكارها، فهي تعتقد أنها لا تعرف سوى القليل جداً عن الخرطوم في السنوات الأخيرة..

كانت سارة قد قالت لها: "القرار الصحيح والمنطقي يا زينب أن تعودي إلى لندن.. هناك مستقبلك وحياتك مع زوجك وطفلك.. ولن تواجهكم مشكلة ما دمتم تحملون الجواز البريطاني.. هنا لن تعيشي سوى أرق متواصل".

ذكرت لها سارة ذلك بعد أن خاضت معها زينب حديثاً مطولاً عن جدوى العمل في السودان والاستقرار، وأفصحت لها عن أنها تعيش في لندن سعيدة جداً فالمال معها وليس لديها أي مشكلة لتحقيق ما تريد، لكن ما تفتقده في لندن هو الإحساس بأن للأشياء التي تفعلها قيمة:

- أشعر كما لو أنني وحيدة في عالم مغلق.. هنا يكون للأشياء طعمها فالناس يعرفونك بشكل جيد.

ضحكت سارة، قبل أن تردّ عليها، وهي تفكّر: "لا أعتقد أن الإنسان يجب أن ينشغل كثيراً بمن هم حوله، إذا

كانوا يعرفونه أم لا، ليقولوا عنه إنه مميز أو ناجح.. مجرد الإحساس بالذات يكفي" :

- سعادتك الحقيقية يا زينب في أن تخلقي عالمك الخاص في أي مكان تشائين، العالم الذي نعيش فيه لا يحترم فكرة المكان.

أعادت زينب استرجاع ما دار بينها وسارة بطريقة سريعة في ذهنها، واستعانت بتلك الأفكار في محاولة لتبرير موقفها أمام شقيقها، الذي فضّل السكوت والانصراف إلى غرفته عسى أن ينام إن استطاع، بعد أن شعر لأول مرة في حياته أنه أمام تحدٍ جاد في الحياة.

***

فكّر مع نفسه: "في الماضي كانت الأشياء سهلة، وكان من الصعب على المرء أن يتصوّر أنه سوف تأتي لحظات قاسية كالتي أعيشها اليوم.. لحظات أكون فيها مضطرّاً إلى رسم خططي في الحياة وفق أهواء الآخرين لا وفق ما أرغب.. قد يكون بروك واقعياً في كل ما طرح، وقد تكون لزينب مبرراتها أيضاً.. لكن ما هو موقفي الشخصي.. أنا؟.. ما الذي يجب عليّ أن أقرره وأنا متأكد تماماً أنه قراري الشخصي وليس ما يمليه الآخرون من أفكار؟".

مضى عبد الحفيظ في تفكيره، متقلباً على السرير، معانياً حالة من الأرق الشديد:

"زينب ستعود إلى لندن لتكون إلى جوار زوجها، وطفلها.. وأنا سأجد نفسي مضطراً إلى البقاء هنا.. سأتنازل عن الكثير من أفكاري التي كنت أؤمن بها، كوني كنت أؤمن بأن أبني إنجازاتي في العالم بعيداً عن الاعتماد على والدي، وبدأت ذلك بالفعل، ثم جاء هذا الحادث الشؤم ليعطلني ويربكني.. يبدو أنه لا فرار من الالتفاف حول هذا التاريخ الذي يطاردني.. تاريخ العائلة.. الذي سيظلُّ يلاحقني كالظل".

إلى أن انتصف الليل الجديد بعسر، وسط السحب التي ما زالت تتراكم من كل صوب لتحاصر السماء، كان عبد الحفيظ لا يزال قلقاً، متوحشاً.

لم يغيّر من حالته صوت الرعد القوي ولا شارات البرق التي غمرت الغرفة بالضوء أو رذاذ المطر الذي هرب بعض منه من الخارج إلى داخل الغرفة محمولاً مع غبار خفيف، مع رائحة دعاش أعاده للحظات متفرقة من طفولته..

... توقف بالتحديد عند اليوم الذي تُوفّيت فيه والدته، وقتها كانت زينب في سن السابعة، ربما أقل بشهور.

كانت وفاة الوالدة قد جاءت لتدمّر الألفة في البيت، فالوالد كان مشغولاً بتجارته..

"ولو لم يكن مشغولاً بها لكانت قد ربحت.. فالأشياء تجري بهذا الشكل في هذا البلد، تاريخك فقط هو الذي يصنع مستقبلك"، قال عبد الحفيظ سراً بألم وحرقة دون أن يفهم السبب، ليجد ذاته تغرق في تلك اللحظات والأفكار

القاسية التي يرى أنه يجب أن يتخلص منها: "صورة الأب الشاذ الذي انتهت حياته بما يمكن أن يظنه الشامتون غضباً إلهياً ونهاية كانت ضرورية لأمثاله".

قطع أفكاره مع تزايد صوت الرعد، مع ارتفاع شدة المطر وتكاثف القطرات الهاربة إلى الغرفة من الخارج، حيث قام بتثاقل ليغلق النافذة ويدلي الستارة الزرقاء، لا يرى أمامه سوى الظلام الدامس الذي يسرقه البرق بين دقيقة وأخرى.

اختلط الماضي بالحاضر، الغضب بالارتياح الذي لا مفسر له.. كان عبد الحفيظ قد نام، لتدخل روحه في أحلام لم يفهم لها تفسيراً في الصباح، فهو لا يفهم تفسير الأحلام ويشكّ في ما تتناقله العائلة عن الجد ثم الأب بشأن قدراتهم على تفسير الأحلام، كما يقولون: "لمنحة إلهية نتجت من مباركة السماء لهذه العائلة التي عاشت على مساعدة الناس وفعل الخيرات".

"لكن إذا كان من الصعب على الإنسان أن ينزع ذاته من جيناته المتوارثة"، كما دار في خاطره، فقد وجد روحه تسرع لتَغْرِف ممّا توارثته العائلة من قدرات تفسير الأحلام، لتأويل ما رأى على أنه العودة إلى الولايات المتحدة والاستقرار هناك.

كان قد رأى نفسه يسبح في نهر هادئ من الماء الشفاف، وفي الماء رأى كائنات جميلة اكتشف فيما بعد - أثناء الحلم - أنها مركبات فضائية.. إحدى المركبات حملته

وصعدت به إلى ساحة قريبة من النهر، حيث اكتظت مركبات فضائية أخرى.. كان يوجّه أوامره لسائقي المركبات بأن يستعدوا للانطلاق إلى كواكب بعيدة جداً عن الأرض.

فسّر الساحة التي تجمعت فيها المركبات الفضائية على أنها أرض الولايات المتحدة، حيث وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا)، وحيث كان يحلم ذات يوم أن يدرس علوم الفضاء ليصبح أول رائد فضاء سوداني.. لكن والده قتل هذا الحلم، حيث أراده أن يكون مهندساً مدنياً ليحقق أحد أحلامه في بناء أكبر شركة عقارية في الخرطوم.

بمرور الزمن، وجريان نهر الحياة، لم يعد عبد الحفيظ يُفرّق بين رغباته ورغبات الوالد.. اكتشف هذا الأمر متأخراً جداً، صباح هذا اليوم.. عندما بدأ يحكي لبروك عن حلمه ليلة البارحة والتأويل الذي فسّر به الحلم.

قال بحرقة مرتشفاً الشاي بالحليب، في صباح باردٍ، بفعل مطر الأمس:

- إذا كان قدر المرء أن يعيش في العالم الثالث، فعليه أن ينزع أحلامه، حتى لو كان ينتمي إلى عائلة توفّر لأبنائها كل الإمكانات التي تُمكّنهم أن يكونوا ما شاءوا.

بروك الذي كان قد استيقظ باكراً في الفندق، ووصل إلى بيت السيد العربي.. أشعل غليونه بهدوء.. ضحك بشكل هستيري، ثم علّق قائلاً على جملة ما قاله عبد الحفيظ:

- دع عنك أمنيات الماضي وما كنت ترغب فيه.. ودعك

من عالم الأحلام ومحاولاتك لتأويلها وفق رغباتك الباطنية.. تذكّر أن الأمر الوحيد الذي أمامك هو الواقع؛ الذي يجب أن تتعامل معه بذكاء.. وإذا استطعت أن توظّف خيالك فلا ترهقه في تفسير الأحلام وذكريات الماضي، بل استنزفه في الغد.. ماذا ينبغي أن يحدث؟

23

جاء اللقاء بين البكري والعوض مُطوّلاً، وفيه استمع الوزير إلى إفادات مهمة في قضية الاغتيال، ليتأكد أن جهاز الأمن كان يملك من المعلومات من البداية ما يُمكّنه من قطع خطوات ملموسة في القضية، لكن الوزير لم يكن متأكداً من مدى مصداقية هذه المعلومات.

ومنذ بدء الاجتماع رأى البكري، أن العوض يتحدّث بثقة مطلقة ودون تحفظ، بشكل يشير بطريقة غير مباشرة إلى أن عهد الشرطة قد انتهى وأن الأمن بات يسيطر على كل شيء في البلاد.

التطور الذي حدث في جهاز الأمن لم يتم في السنوات الأخيرة؛ بتولي محجوب العوض الإدارة، بل حدث قبل ذلك، لأن كثيراً من المتنفذين في الحكومة كانت لديهم رؤية تتلخص في: "أن حماية مصالحهم تتطلب في المقام الأول جهازاً سرياً محكم البناء، يتابع كل صغيرة وكبيرة، أما الشرطة فيمكنها أن تكتفي بدور شكلي".. وبعد أن أصبح العوض على قمة الهرم، كان هدفه الرئيسي: "أن يحوّل الجهاز إلى شبكة معقدة تخدم مصالح من يعمل على تمويلها

أو التعاون معها، أما الذين يُغفلون هذا الجانب، فليس للأمن علاقة وطيدة بهم ولا يضع في اعتباره توفير الحماية اللازمة لهم".

تعرّف الوزير على هذه المعلومات المقتضبة من العوض، الذي كان جريئاً في طرح مقاصده كما بدا للوزير، لاسيما عندما قال في بداية الاجتماع بشكل مباشر:

- سعادة الوزير.. تعاونك معنا هو الطريق الأقصر لتكسب الجولة، أما إذا حدث العكس فلن نشعر بالندم، لأن هناك من يقفون معنا بقوة.

لم يفهم البكري مغزى عبارات العوض بشكل كامل، ولم يشأ أن يطلب إليه توضيح معنى ما يقول بدقة، فقد رأى في هذا الطلب نوعاً من الإحساس بالضعف، لكنه فكّر مع نفسه: "عليّ أن أكون حذراً ما أمكن لأن الصفعة التي تلقيتها قبل أربع سنوات، كانت كافية لتعليمي أن البقاء لأطول فترة من الزمن في المنصب، يتطلب إرضاء الجهات القوية بشكل خاص.. أما بقية الجهات فلا داعيَ لإضاعة الوقت معها".

قبل أن ينطق الوزير بأي كلمة، أراد العوض أن يطرح مطالبه بطريقة واضحة:

- ستفعل ما نمليه عليك فقط، فإذا كنت تريد أن تنجح فلكَ ذلك.. لكن مجرد تفكيرك في أنك ستحقق نجاحاً من

خلال أجهزة وزارتك التقليدية، فلن يفيدك ذلك شيئاً.. وستجد نفسك في نهاية المطاف في وحدتك.

الآن فهم الوزير المطلوب بالضبط.. الطاعة لا غير، وأن يكون من الذكاء بما يكفي لتصريف الأمور وفق ما يراه العوض مناسباً، لخّص جوابه بقوله:

- في النهاية لابد من مصلحة مشتركة.. أعتقد أنك تعني هذا الأمر؟

قاطعه العوض:

- المصلحة موجودة، لكن الخيانة مرفوضة.. أي تفكير يجعل المرء يبدو بوجهين، سيؤدي به في النهاية إلى الهزيمة.. ولي أن أُذكّرك بأمر مهم.. قبل أربع سنوات كانت الأمور تدار بشكل مختلف عن الآن، هذا هو الدرس الأول الذي يجب أن تفهمه جيداً.

وجد الوزير نفسه بعد دقائق قليلة، يدخل موقف التلميذ الضعيف، والمستجدي، وأن عليه أن يسمع فقط ويُنفّذ لكي يحافظ على منصبه لأطول فترة، حيث فكّر: "من الواضح أن سلطة الأمن باتت هي التي تحرك كل الخارج من الداخل".

تأكّد لمدير الأمن: "أن شخصية البكري الانتهازية لا تسمح له بأن يتحرك في أكثر من مربع، فرجُل بتاريخه المتقلب من حكومة لحكومة، ومشاركاته المتكررة كوزير متنقل من وزارة لأخرى عبر أكثر من ثلاثين سنة، جعلته لا يُفكّر إلا في نفسه.. فهو سريع الاستجابة للطلبات التي تخدمه

فحسب، وما سوى ذلك قد يتغاضى عنه، دون أن يُشعر الطرف الآخر بأن قيمته قد تراجعت أمامه".

بمجرد أن دخلت حواس العوض مساحة اليقين الكافي، وجد: "أن الوقت قد آن لطرح الأمور بشفافية أكثر.. ذلك النوع من الشفافية الذي يقوم على التخويف، والإدراك بأن الطرف الآخر ليس نداً في كل الأحوال"..

لكن قبل دخول التفاصيل المهمة، يجب أولاً على مدير الأمن الذي يفهم عمله جيداً بناء على مبدئه: "تفحص خصمك كسيارة تنوي قيادتها في طريق وعر.. لا تضع الثقة ببريق المعدن الخارجي"؛ كان عليه أن يقوم بعمل اختبار بسيط يُثبت به أن الوزير قد رهن نفسه لإرادة الأمن.

المفاجأة التي لم يتوقعها الوزير، أن يضع العوض أمامه شيكاً على بياض ويطلب إليه كتابة المبلغ الذي يرغب فيه!

احتار الوزير وسرعان ما توتر وتعرّق جسمه رغم أن نسمات الهواء البارد مع أول قطرات المطر، كانت تحرّك الأوراق على الطاولات.. كان سبب حيرته أنه فكّر بشيء من الشك في كل ما ذكره العوض من قبل.. سأل نفسه: "هل يريد اختباري، وهل كان جاداً في كل ما قال، أم أنه يمارس لعبة ما؟".

تذكّر أنه سبق له أن مرّ بمثل هذا الموقف من قبل، عندما شغل أول منصب وزاري قبل سنوات بعيدة، لم يفكّر في عددها الآن.. وفي تلك المرة الأولى سقط في الاختبار،

لأنه جرّ القلم وكتب المبلغ.. (خمسة وعشرون ألف دولار فقط لا غير).. كان ما يزال في بداية الحياة، وكان يظنّ أن هذا الرقم كبير جداً.. فوجئ فيما بعد بأن مبالغ أكبر قد ضُخّت إلى حسابه في البنك، أضعاف ما طلبه بعشرات المرات.. لكنه إزاء ذلك، كان عليه أن يفقد منصبه، لأنه كان يعتقد نفسه ذكياً، برفضه عدم دفع نسبة من المال للطرف الذي طلب كتابة المبلغ وقتذاك .

"ليس مهماً من هو ذلك الطرف.. فكل الألعاب في هذا البلد تُحْبَك بالطريقة نفسها منذ أكثر من خمسين سنة"، قال البكري محدّثاً نفسه سراً، قبل أن يدخل سؤالاً مقلقاً: "الآن يعيد التاريخ نفسه، هل يُوقِّع أم لا؟".. كان عليه أن يفكّر بعمق ليتخذ القرار.

لاحظ العوض أن البكري في غاية الارتباك والتشوش، فاستأذن للذهاب إلى الحمّام، دون رغبة حقيقية في التبول أو التغوط. عاد بعد دقيقتين، ليقرأ الرقم المكتوب "$2.500.000" (مليونان وخمسمائة ألف دولار).

لم يفاجأ العوض بالرقم: "ففي السابق طُلِبت أرقام أكبر من ذلك بكثير، من قبل أشخاص آخرين كان عليهم أن يقوموا بالدور البهلواني نفسه الذي سيلعبه الوزير".. لكن مدير الأمن أبدى امتعاضه بطريقة تشير إلى أن المبلغ المطلوب كبير جداً، وقال سراً: "في لغة التجارة، لابد من المساومة،

خاصة إذا كانت تجارة ترتبط بشراء سلعة الضمير.. يجب أن تسقط أي شفقة من طرف على الآخر".

توقع البكري ردة فعل العوض، فهو خبير بهذه الأساليب التمثيلية.. لم ينتظر رداً منه، أسرع في القول:

- لن ينقص المبلغ.. يجب أن تباركه.

استطرد قائلاً:

- أعلم أن هناك نسبة مئوية لكم، ولهذا فإن أي نقصان، يعني أن المسألة سوف...

قاطعه العوض:

- هذا صحيح.. لكنني أتحرك بموازنة معينة، وهناك من يراجعون هذه الأرقام.. لكن الجانب الأهم....

قبل أن يكمل.. عدّل نظارته السوداء الكبيرة، ثم ابتسم بغرور قائلاً:

- ثمة درجات معينة، كل درجة لها مبالغ محددة.. يتوقف الأمر على (قيمة) الطرف الذي سيتعاون معنا.. عموماً مبروك ولكن بإجراء تعديل بسيط.

ضحك العوض كثيراً.. بعد أن مزّق الشيك، وكتب على شيك جديد "700.000$" (سبعمائة ألف دولار).

شعر الوزير بأنه أصغر من نملة، وأتعس من ذبابة، فكلمة (قيمة) التي تفوّه بها العوض جرّحته كثيراً جداً، الأمر الذي جعله يسترجع بذاكرته: "كيف أنه فقد هيبته بمرور السنوات، في الوقت الذي كان يمكنه أن يكون شخصاً مهماً بطريقة

محترمة.. الآن لا مجال للعودة إلى الوراء وتعديل الماضي".

فكّر الوزير بحزن مُحدّثاً نفسه: "ثمة صورة انطبعت في الأذهان ومن الصعب محوها.. كما أن وضعك لا يسمح لك بأي مواجهات وإلا فقدت كل شيء. فمن السهل أن تجد نفسك من جديد في بيتك مع الوحدة والوحشة.. حيث لا زوجة ولا ولد".

الوزير الذي ظلّ طوال حياته عازباً، وغير قادر على خلق متعة في العالم، سوى أن يأكل ويشرب ويسكر، ويجمع الأناتيك؛ حيث أنه يعاني الضعف الجنسي.. فضّل الصمت، في انتظار ما يوجّه به الطرف الثاني، الذي لم يُوضّح له النسبة التي سوف تخصم لمصلحته، إلا في نهاية الاجتماع عندما قال: "50% فقط".

كشف العوض عن النسبة بعد أن انتهى من سرد المطلوب بدقة وإيراد المعلومات التي لديه، والتي شكّ الوزير إن كانت صحيحة أم لا؟.

"لكن في كل الأحوال، ما الذي سأخسره بعد أن قبضت نصيبي من (صفقة الإذعان)"، قال الوزير لنفسه.. وأضاف: "ليس مطلوباً مني أن أشغل بالي بالتفكير في ما قدمه من معلومات. ما يجب أن أنشغل به هو كيف أنفّذ الأمور على الوجه المُرضي.. فقط لا غير".

***

في البدء كان العوض قد قدّم تفسيراً مُبسّطاً للوزير عن سبب تأخر جهاز الأمن في التحرك، قائلاً:

- كانت هذه القضية فرصة مناسبة للتخلص من وزير الداخلية السابق، وقد كان ذلك.. وقريباً سوف ينتهي دور اللواء طه، فهو في الرمق الأخير.

واصل كلامه، في حين كان الوزير يُصغي بدقة:

- اغتيال السيد العربي، لا علاقة له البتة بشذوذه الجنسي.. لا يتعلق الأمر بجماعة دينية متطرفة.

نطق العوض بكلمة شذوذ، دون أن تبدو على وجهه أي مشاعر محددة.. مضيفاً:

- الأمر يتعلق باحتيال من نوع ما.. سنتأكد منه لاحقاً.. المعلومات المتوافرة لدينا أن هناك مجموعة من الشباب الذين كانوا يعملون مع الرجل، مارسوا عليه لعبة من أجل الحصول على المال، وعلى ما يبدو أنهم في النهاية قاموا بقتله وهربوا.. وفي تقديرنا: لم يكن العربي غبياً طوال حياته، لكن ما حدث في النهاية كان مخططاً له بشكل جيد.. وما نعتقده أيضاً: أن هذه المجموعة التي قد تكون نفّذت القتل، تتحرك بأيدٍ خفية، لا نستبعد أن أطرافاً من داخل الحكومة هي التي تحرّكها (لسنا متأكدين بعد).

أوضح العوض للوزير النقطة الأخيرة المتعلقة باحتمال تورط أطراف من الحكومة في الاغتيال، قال:

- تعرف مدى الصراعات الداخلية والمصالح المتضاربة،

وكل شيء بات متوقعاً، خاصة بعد الشائعات التي تم تناقلها عن عودة العربي قريباً إلى المشاركة في الحكم من جديد.

لم يكن أمام الوزير فرصة، ليستفسر عن كيفية توصل الأمن إلى هذه المعلومات، لأن العوض لم يعطه تلك الفرصة، بل عندما رأى أن تعابير وجه الوزير تحاول أن تفهم أكثر، أسرع في حسمه:

- لا تسأل، ويجب أن تدرك دورك جيداً.. هذا هو المطلوب منك.

عدّل الوزير جلسته، ليكون هادئاً، وحاول إخفاء أي نوع من التعابير التي تشي برغبته في الاستفسار وحلّ الفوازير التي يقولها مُحدّثه، فيما واصل العوض:

- سنقبض على هذه المجموعة الهاربة حتماً وسنتمكن من فك جميع الخيوط.. لكن ليس هذا مربط الفرس.. المطلوب منك أن تُعلِن عبر أجهزة الإعلام أنه تمّ القبض على المجرمين. سوف تتسلم بياناً مكتوباً من قِبلنا وشريطاً جاهزاً للبث، يُصوّر مجموعة مكونة من خمسة أفراد، غير معروفين لعامة الناس.. سيظهرون على أنهم المجرمون الحقيقيون، وسوف يدلون باعترافات مسجلة في الشريط، في رواية منسوجة من قِبلنا.. هذه التفاصيل ليست مهمة، فكل شيء جاهز، ينتظر منك فقط أن تقوم بالمهمة غداً.

وجد الوزير نفسه يقطع الحديث، ليسأل:

- وماذا لو تمّ القبض على المجرمين الحقيقيين، سواء كانت مجموعة الشباب الذين كانوا يعملون مع العربي كما ذكرت، أو غيرهم؟

ضحك العوض، خلع نظارته وردّ على الوزير:

- سأجيب عن سؤالك، رغم تحذيري لك بألا تسأل، وأن تقوم بدورك فقط.. باختصار مثل هذه المجموعات تتمتع بذكاء مطلوب من طرفنا.

- يعني أنكم سوف تعملون على توظيفهم والاستفادة منهم في جهاز الأمن؟

- هذا ما سيحدث بالضبط؟

- وماذا سيكون مصير مجموعة الخمسة التي ستُعلن أمام الشعب؟

- أعتقد أن الموضوع سوف ينتهي بمرور الزمن، فالشعب سرعان ما ينسى.

- ولكن أهل الضحية العربي، لن ينسوا؟!

- آوووه.. ألم أقل لك لا تسألني كثيراً.. فقط عليك أن تُنفّذ.

***

إلى أن عاد الوزير إلى بيته، وجلس إلى ما يقارب الفجر يتأمل قطرات المطر، كان ذهنه غير مستقر، ولم يفهم

بالضبط: "أين تكمن الحقيقة في كلام مدير الأمن!.. هل المعلومات التي أفاد بها صحيحة أم لا؟!".

قال لنفسه: "من الواضح أنه لا معلومات لديهم.. وأنهم فقط يبحثون عن طريقة لإسكات الشارع وأهل الضحية".

سحب زجاجة ويسكي من الثلاجة الصغيرة في الصالة.. فتحها بصعوبة، ثم وضعها أمامه على الطاولة الصغيرة ماداً رجليه على كرسي آخر.. يُفكّر في البيان الذي لا يعلم محتواه حتى الآن، والذي سيكون عليه أن يقرأه ظهراً للإعلان عن عملية إسدال الستار على قضية اغتيال السيد العربي.

مع مذاق الويسكي وثقل الرأس شعر الوزير البكري بخفة في التفكير.. كان يضحك وهو يخاطب ظله على الحائط المقابل، ظله الخفيف، المُتكوّن نتيجة الإنارة الخافتة في الصالة:

"لا عليك أيها الظل.. إنها لعبة ويجب أن تستمر.. هكذا يقولون.. وهكذا يجب عليك أن تقول.. إذا كنت تبحث عن الحقائق فهذا البيت سوف يسعك، أما إذا كنت تبحث عن راحتك فلا تسأل".

ارتفع الضحك في المكان، واستمر البكري في الشراب حتى النهار الجديد، يتأمل الأناتيك التي جمعها من عدة دول وفي أكثر من رحلة.. يتخيل نفسه "لو أنه كان محل واحدة من هذه الأناتيك بدلاً من كونه مجرد كائن لا يعرف ما الذي يحكم علاقته بالعالم؟"..

مثل هذه التصورات التي تمتزج بالتأملات الفلسفية تواتيه كثيراً، لكنه يتخلص منها بالتمادي في الضحك والنظر إلى كرشه الممتدة، يضربها بقوة، ويهزّ قضيبه الذي ظلّ ساكناً منذ أن تعرّف عليه في صباه.

24

قبل أن يغادر اللواء طه مكتبه في الثانية ما بعد الظهر، فوجئ بإطلالة الوزير مدثر البكري على شاشة التلفزيون السوداني.

كان الصوت خافتاً، فأسرع مُحرّكاً (الريموت كنترول) لكي يسمع بشكل جيّد، في الوقت الذي انشغل ذهنه بالسبب الذي دعا الوزير إلى الخروج مبكراً إلى عامة الناس.. فكّر بسرعة قبل أن ينصت بهدوء: "ربما كان هناك أمر غائباً عني.. لابد أن شيئاً ما قد حِيك في الليل".

كان توقعه في محله، لكن بمجرد أن بدأ سماع البيان الذي يتلوه وزير الداخلية، دخل حالة من الشك: "هل يعرفون كل هذه الحقائق ويقومون بإخفائها عنّي؟!".

وزاد من شكّه عند سماعه فقرة من البيان تُشيد بجهود الشرطة ودورها في القبض على المجرمين الذين نفّذوا جريمة القتل.. ليس هذا فحسب.. بل ذكر البيان بعبارة صريحة اسمه.. (اللواء طه عبد الرحمن).. وكيف أنه.. "بذل جهوداً كبيرة طوال الأسبوعين الماضيين، حيث كان يعمل بكل طاقته لتحقيق العدالة".

كان ذكر اسم اللواء، مُستغْرَباً.. فطه يعلم أنه لم يقم بشيء مما تم ذِكره، وبدأ في التفكير في الجهة التي حاكت البيان: "قطعاً ليس الوزير البكري.. إنه بلا تردد محجوب العوض، يريد الانتقام مني بعد أن تخلص من وزير الداخلية السابق".

زادت الغرابة والدهشة في ذهن مدير عام الشرطة، بمجرد أن شرع التلفزيون في عرض الشريط المُصوّر الذي يُدلِي فيه خمسة أفراد باعترافاتهم على أنهم مجرمون نفّذوا عملية الاغتيال.. كان ثلاثة منهم بلحى طويلة سوداء.. شكّ اللواء من خلال خبرته العملية، أنها لحى صناعية مُركّبة.. وبمتابعته لطريقة سرد الاعترافات المقتضبة فهم: "أن ثمة مؤامرة ما"، كما كان قد توقع منذ أن رأى الوزير يطلّ على الشاشة.

تُلخّص الاعترافات سبب الجريمة كما قال الشخص الأول في الشريط: "أردنا إقامة الحدّ على هذا الفاجر الذي يرتكب ...... (تمّ حذف الصوت هنا)، ويظهر أمام الناس بمظهر المتدين الحريص على الحق والفضيلة"..

ورداً على سؤال تمّ توجيهه من قبل شخص لم يظهر كامل وجهه: "ولكن ألا يخالف ما قمتم به القانون والشرع؟".. قال الشخص الثاني في الشريط: ".... ونحن والحمد لله رأينا أن تنفيذ الحد في هذا الفاحش يُكسبنا ثواب الدنيا والآخرة، فهو واجبنا كمسلمين".

مدة الشريط لا تتجاوز الدقيقتين..غير أنه كان كافياً لإعطاء اللواء فكرة شبه متكاملة عن الهدف من ورائه.

وصل إلى الاستنتاج التالي: "إنها حيلة مدبّرة لشغل الرأي العام، والإعلان عن إغلاق باب الجريمة، حتى يسكت الناس عن الحديث، لاسيما في ظلّ الجدل الذي يدور في الشارع، بشأن الحكومة ودورها فيما حدث".

بعد أقل من نصف ساعة من بثّ الشريط وبيان الوزير، انهالت المكالمات الهاتفية على مدير عام الشرطة من الصحافة المحلية والعالمية، يطلبون إليه توضيحات حول كيفية القبض على المجرمين..

بالطبع لم يكن لدى اللواء طه أي معلومات مؤكدة حول ما حدث، وأدرك أنه قد وقع في مطب، وبدأ يسأل نفسه: "كيف يخرج منه؟.. هل يواصل اللعبة ويُصرّح بأي كلام، حتى يردَّ على أسئلة وسائل الإعلام، أم يمتنع عن التصريح؟.. وفي هذه الحالة، ربما تهاجمه بعض الصحف في اليوم التالي.. خاصة إذا تسربت معلومات لبعض الصحف، تُشير فيها إلى أن اللواء لم يكن له علاقة بما حدث، وأن اسمه زُجّ به في (إنجاز) لم يشارك فيه.. هذا إذا كان حسن النية متوافراً من قبل الجهة التي حبكت السيناريو".

لكن اللواء كان قد غلّب سوء النية، إذ كيف يشار إليه كصاحب إنجاز من قبل أناس يرون فيه خصماً وعدواً؟!.

تيقّن أن ثمة مكيدة ما في الأمر.. غير أنه لم يكن قادراً

على وضع تصوّر متكامل في ذهنه لما ينوي العوض ورفاقه القيام به: "لابد أنهم يفكّرون في لعبة كبيرة ما.. عليّ أن أكون حذراً.. لكن مهما حاولت أن أبدو حذراً، فأمامي الآن موقف مربك وصعب، كيف سأردُّ على هؤلاء الصحافيين الذين تجمعوا أمام مكتبي يطلبون توضيحات وتفاصيل حول ما تمّ بثّه".

تغاضى عن الردّ على المكالمات، وأخبر مدير مكتبه، بأن يقول للمنتظرين في الخارج: "سعادة اللواء مشغول الآن.. وفي الأيام القادمة، سوف يُعلن مؤتمراً صحافياً لإعطاء المزيد من التفاصيل حول كيفية القبض على المجرمين".

في اليوم التالي كتبت الصحف الصادرة في الخرطوم: "إن مدير عام الشرطة صرّح بأنه سوف يعقد مؤتمراً صحافياً في الأيام المقبلة لتوضيح الحقائق".. كانت تلك أفضل طريقة يتعامل بها اللواء - بحسب تقديره – مع المشكلة التي وجد نفسه محشوراً فيها، وكان ذلك حلاً موقّتاً، إلى أن يرى ما سيحدث لاحقاً ومن ثم يقرر ما يراه مناسباً.

***

من جهته كان العوض مساء إذاعة البيان، يتخيل أنه قد وضع اللواء طه في وضع لا يحسد عليه، ساعة كان يحتسي

القهوة في مكتبه بجهاز الأمن، قبيل المغرب بقليل، وهو يقهقه ويحدّث نفسه بصوت عالٍ: "عليه أن يتأدب ويخرج على اللعبة.. أخيراً سوف يكون بإمكاني تحريكه مثل ورقة في مهبّ الريح.. عندما أكون أنا، هذه الريح العاتية التي سوف تقتلع هذه الأذناب التي طال بقاؤها في مواقع لا تستحقها".

في الصباح اختلف الوضع مع ما كتبته بعض الصحف مشيدة باللواء طه بطريقة مبالغ فيها انتقصت من جهاز الأمن، لكونه لم يقم بأي دور، وهو الأمر الذي لم يكن يتوقعه العوض الذي كان يتحرك بأهداف شخصية بحتة، فقد كان تقديره: "أن اللواء من الشخصيات التي لا يدور حولها كثير جدل لدى المتنفذين في الحكومة، بل على العكس يراه الكبار، مطيعاً ومنقاداً للأوامر وسهل التحريك من جهة إلى أخرى، ومن هدف إلى آخر، ولهذا سوف يعلم الكبار أن اللواء ليس هو البطل الأول، وأنه ثمة أبطال سريون وراء ما حدث.. وسوف تكتب الصحف ذلك بتعليمات الكبار الذين يعرفون كيف يسيطرون على معظم الصحف".

ما حدث جاء بعكس توقعات العوض.. على الأقل في المرحلة الحالية، فاللعبة بحسب تقديره طويلة جداً..

... وفكّر العوض: "أن ما قام به من فعل توريطي للواء في تصرف ربّما لم يكن مدروساً بشكل جيّد، وقد يتمّ اكتشافه مستقبلاً.. كل ذلك ليس إلاّ نوعاً من المغامرة المؤذية للذات، بقدر ما يبدو هذا الفعل حالياً إنجازاً عظيماً".

أيضاً راجع نفسه بعض الشيء، في أنه "ربما تسرّع في الزجّ باسم اللواء في البيان الذي ذاعه الوزير، فقد كان من المفترض أن يكتفي ببث الشريط وخبر القبض على المجرمين، أما أن يتضمن البيان إطراءً للواء وإشادة بدوره، وهو ما لم يحدث في الواقع، فتلك لعبة ربما لم تكن محبوكة جيداً".

ووجد العوض أنه يدخل حالة من التوتر النفسي، بمجرد مطالعته صحف الصباح، حيث كانت بعض الصحف قد كتبت بمانشيتات كبيرة وعريضة في الصفحات الأولى: (القبض على قتلة العربي.. واللواء طه بطل السيناريو)..(اللواء طه نجح في تحدي قضية العربي)..

لم يقف الأمر عند هذا الحد، فما زاد نفسية العوض سوءاً ما كتبته صحف أخرى على شاكلة مقالات افتتاحية، أشارت فيها بشكل غير مباشر إلى: "أن الشرطة تظلُّ هي البطل الأول في الحفاظ على الأمن.. وأن هناك جهات تمارس باسم مفردة (الأمن) انتهاك الحريات الخاصة وتقلق حياة الناس".

مثل هذه الآراء جعلت مدير عام جهاز الأمن، يخرج من مكتبه إلى الصالات الخارجية في مبنى الجهاز، بعد أن خرج طوره، يتفوّه بعبارات غير مهذبة، وهو يصرخ: "سوف أنتقم منهم".. كان يعني: "تلك الصحف التي شككت في دور

الأمن"، ويعني كذلك: "اللواء طه الذي تحوّل بين ليلة وضحاها إلى بطل بسبب خطأ وسيناريو لم يدرس جيّداً".

... وما زاد الأوضاع سوءاً، وجعل العوض يعيد التفكير مع نفسه: "كيف أنه لم يحسب هذه اللعبة من جوانبها كافة"، ذلك الإعلان الذي جاء ظُهراً من رئاسة الجمهورية عبر الإذاعة والتلفزيون، والذي يفيد بأن الرئيس سوف يُكرّم الشرطة بعد يومين، وسوف يمنح اللواء طه وسام الجمهورية من الدرجة الأولى لنجاحه في عملية القبض على قتلة العربي.

سماع العوض لهذا النبأ في التلفزيون، جعله يشعر بالدوار، بل شرع في بكاء عنيف مع الألم النفسي الشديد الذي حاصره، ومعاتبته لذاته: "ما كنتُ أفكّر فيه أن اللواء طه سوف يقع في الفخ، ساعة تنفضح الحقائق فيما بعد لدى الكبار، بالقبض على المجرمين الفعليين.. وبالتالي يُرمى به في الشارع ويتبعه الوزير الذي كنت أخدعه ساعة قلت له إننا عندما نقبض على القتلة الحقيقيين سوف نوظّفهم لمصلحتنا؛ بينما كنت في الواقع أهدف للإعلان عنهم إذا قبضنا عليهم، ليكون بإمكاني فضح اللواء طه والوزير معاً من خلال هذا السيناريو، ليعلم الجميع أنهما مجرد مخادعين.... كل ذلك تم تخريبه في مجرد ساعات، فوصول الأمر إلى الرئيس يعني أن كل شيء قد انتهى وأنه مهما حاولت أن أُثبت لهم بأن اللواء طه لم يكن له علاقة بالأمر، فلن يصدقوا.. أيضاً لن يصدق الرئيس ولا الذين حوله، أن الأمر كان مجرد لعبة من

الأمن، وأن هؤلاء الذين تمّ القبض عليهم لا علاقة لهم البتة بجريمة الاغتيال".

راح يسأل نفسه: "كيف فاتني أن مشاعر الجميع هنا موقّتة؟ يتأثرون بالأفعال العابرة ويخلقون ردود أفعالهم حولها، ويتعاملون بناء على هذه الردود.. ومهما حاولت أن تقنعهم بعد أن يحدث ما يحدث بأن الأمر مجرد لعبة، لن يصدقوك أبداً".

حاول أن يبني حبكة درامية في ذهنه لمحاولة إقناع من هم أكبر منه: بـ "أن خطأ ما قد وقع وينبغي تصحيحه".

لكنه عاد ليقول مع نفسه: "إذا كان ممكناً تصحيح الوضع مع هؤلاء الذين هم قريبون مني نفسياً ويتعاملون معي بناء على مصالحهم.. هؤلاء الذين يدركون شكل اللعبة.. بإقناعهم بأن اللواء طه يجب أن يذهب إلى الجحيم، يتبعه وزير الداخلية الجديد، كما ذهب وزير الداخلية السابق.. فلن يكون من السهل تصحيح الوضع مع الذين يقفون على الخط المعاكس، أولئك الذين وجدوا فرصتهم الآن.. ولابد أن اللواء سوف يعمل على استغلال الوضع أكثر مما أتوقع للانتقام مني، خاصة بعد أن يُكرّمهُ الرئيس".

التحدي الأساسي الذي يقف أمامه العوض في هذه اللحظة، كما تأكد منه جيداً بعد أن كفكف دموعه ودخل مكتبه جالساً بهدوء؛ يتعلق بـ: "محاولة إثبات أن المجموعة التي تمّ القبض عليها لا تمثل المجرمين الحقيقيين".

فكّر أنه: "إذا ما نجح في ذلك، فسوف ينجح في تشويه صورة اللواء، الذي سوف يمضي في اللعبة، ليتسلم وسام التكريم من الرئيس، وهنا يمكن ضبط اللواء متلبساً، بإقناع الكبار بأنه منافق وكذّاب".

***

قال العوض لأحد مُعاونيه المقربين في الجهاز:

- لابد من تصرف ذكي يجعلنا المنتصرين، وينتهي بهزيمة اللواء.

- لكن سعادتك، كيف فاتك منذ البداية أن اللواء يمكن أن يستغل الأمر.. أعتقد أن البيان في حد ذاته كان كافياً، دون الإشادة باللواء شخصياً؟

- لقد فكّرتُ في هذا الموضوع بالطريقة التي تُفكّر بها، وكان أمامي خياران.. خيار بأنْ لا أزجّ باسم اللواء في البيان، بمعنى أن يكون مُعمّماً.. وهنا ربما يقوم اللواء بشكل ما، لا نعلمه، بترويج أن ما حدث غير صحيح..

- لكن كيف سيكتشف ذلك؟

- هذا صديقي وأنا أعرفه جيداً.

قاطعه مُعاونهُ مستوضحاً:

- تقصد أنه كان صديقك؟

- نعم.. دعْنا في الموضوع الأساسي.. طه من الذكاء

بحيث يمكنه بسهولة أن يكتشف أنني أقوم بلعبة ما، هذا ما كان يُخيفني.. لهذا كان الخيار الثاني بأن أجعله بطلاً في اللعبة، وبالتالي يمكنني أن أسكته.. أنا أعرف أنه ضعيف الشخصية وسوف يحاول أن يستغل المجد المُزيف لمصلحته، وهذا ما حدث الآن، ولكن بشكل مبالغ وغير متوقع بالنسبة إلي..

- لم تكن تتوقع إذن أن يصل الأمر إلى الرئيس ويُصدّق الجميع أن ما تمّ كان حقيقة، وبالتالي أن يتحول الهزل إلى جدّ؟

- الوضع مُربك بشدة!.. خاصة فيما يتعلق بمصير هؤلاء الشباب الذين تبرعوا من أجل مصلحتنا بإعلان أنفسهم كقتلة.. ليس من السهل في الوقت الراهن إقناع الرئيس على وجه التحديد بأنه لا علاقة لهم بما حدث.

- من الممكن إقناع أطراف أخرى تستطيع التأثير في الرئيس؟

- هذه الأطراف التي تتحدث عنها لن تخدمنا.. نعم هناك من سيتفهمون الأمر جيداً.. أما الرئيس فسوف يسرع بتوجيه القضاء لإنهاء القضية، والاحتمال الأكبر أنه ربما أُسدِل الستار على حياة هؤلاء الشباب دون محاكمات استناداً إلى الاعترافات المسجلة التي أدلوا بها، وهذا يعني أن هؤلاء (المساكين) سوف يذهبون ضحية في كل الأحوال.. أنت

تعرف مدى تهور الرئيس وأن لا أحد يستطيع أن يوقفه عن قرار ما، يتخذه ويطالب بسرعة تنفيذه.

تنهد محجوب العوض، وقال أخيراً لمعاونه:

- فعلاً الوضع صعب جداً، لذا طلبت عونك.. وأمامنا وقت قصير.

- سعادتك.. هل كنت تتوقع مثلاً أن يقوم اللواء برفض جملة ما حدث، والثورة عليه؟

بدا للعوض أن السؤال الذي طرحه معاونه، غير منطقي ويدلُّ على خبرة هزيلة: "فكيف سيكون باستطاعة اللواء أن يُقنع الكبار بأن ما أُذيع غير صحيح؟!" ..

ردّ بانفعال:

- هذا غير منطقي أصلاً.. من سيسمع له.. بعد أن جاء البيان من الوزير وهو سلطة أعلى من اللواء؟.. ويجب أن تعلم أن كل ما يذاع يتحول إلى حقيقة لدى الناس.

***

تبدو جملة هذه الوقائع، في ذهن العوض، كما لو أنها كوابيس، لم تحدث في الواقع، "لكنها وللأسف الشديد.. حدثت فعلاً" حدّث نفسه وهو يقود سيارته ليلاً تحت المطر في شوارع الخرطوم، مرتبكاً، وغير قادر على تحديد الخطوة القادمة!..

واصل حديثه مع نفسه: "كنت أتوقع أنني ذكي لكن مسار الأمور كان أذكى مني.. ففي مثل هذه الدول من الصعب عليك مهما كنت ذكياً أن تحرك الأشياء وفق ما ترغب فيه، لأن هناك أشياء غير مفهومة تحدث فجأة ودون مقدمات.. ولأن نفوس الناس يصعب فهمها لمدى طويل، فالشخص الذي تُحدّثه اليوم بشيء معين، تجدهُ في الصباح قد أحرجك أمام الآخرين، من هم أعداؤك!".

سأل نفسه، أكثر من مرة، دون أن يصل إلى إجابة دقيقة: "هل أنا الذي خططت لما حدث، في واقع الأمر.. أم أنني كنت أتّبع آراء وأفكاراً، أو توجيهات جهات أخرى.. أناس غيري؟"..

بعد ساعة من التوهان، ترك العوض سيارته بجوار النهر ووقف يتأمل مياه النيل الذي بدأ الفيضان قبل ثلاثة أيام، في موسم غير مسبوق، ربما يشبه ما حدث في العام 1988 ساعة غمرت المياه، القرى والمدن وشرّدت الآلاف من السكان.

... ولم يكن يرى في الماء غير ثورة مكبوتة، تكاد تكون داخله.. إحساس يقول: "إن كثيراً من خيارات الماضي وإلى هذه اللحظة لم يكن صحيحاً قط.. لكن ماذا سيفعل بعد أن تورط، وكيف سيكون بإمكانه الخروج من هذا المطب؟!.

أجاب عن سؤاله الأخير، بأن كلّم نفسه بصوت مسموع:

"لقد كنت أظن أنني أنا الذي أفكّر، لكنني في الواقع كنت أُنفّذ توجيهات".

... "في ظلّ غياب المصداقية المتبادلة، وسيادة لعبة المصالح المشتركة، بحيث بات كل طرف يطعن في الآخر، وتحول كل طرف إلى مجموعة أفراد يطعن بعضهم بعضاً، أجد نفسي ضحية دون أن أدري"...

فهم العوض الأمر كذلك، وتوصّل إلى النتيجة التالية: "لم أكن ذكياً بما يكفي.. لقد كنت غبياً إلى أبعد الحدود.. هؤلاء الذين زجّوا بي في اللعبة، هم الآن خارجها.. وأنا الذي وجدت نفسي أتألم نفسياً".

انتابه خاطر أن يُسرِع في تقديم استقالته والخروج من اللعبة كلها، لكنه فكّر: "أن ذلك لن يحدث، لأنهم لن يتركوه وشأنه؛ حتى لو خرج.. فهناك المئات من عامة الناس الذين لن يتوقفوا عن النظر إليه كمجرم، يجب أن يُحاسب حتى لو من غير الرجوع إلى الدولة والقضاء، فهم يريدون أخذ ثاراتهم بأيديهم دون الرجوع إلى أية سلطة لا يعترفون بها في واقع الأمر.. كما أن بجعبته الكثير، الكثير جداً من الأسرار التي يجب أن تبقى داخل الصدر، إلى أن يذهب الكبار الحاليون.. هل يتركونه يمضي ومعه كل هذه الأسرار؟.. بالطبع لا.. فمنطقهم الذي سيتعاملون به، هو: الإسراع في تصفيته حتى لا تنسكب الفضائح على الملأ".

حسم موقفه بمغادرة "هذا العالم القذر" فوراً، ولم يتردد

في اتّخاذ القرار.. وفي اللحظة التي رمى فيها بنفسه في الماء، دون أن يسبح أو يقاوم التيار، كان أكثر ما يؤلمه:
"مصير هؤلاء الشباب الذين تورطوا في القضية، ولن يكون بإمكانهم الدفاع عن أنفسهم، حيث لا مجال لأحد أن يسمعهم بعد أن قُضِي الأمر".

في ثوانٍ كانت روحه قد فارقت الحياة الأرضية، وغاب مع تلك الروح الكثير من الأسرار..

... كان العوض قد غادر العالم بناء على رغبته لأن ذاته القديمة قد سيطرت عليه من جديد، تلك الذات التي كانت تتمتع بالشفافية والمصداقية والصراحة.

... وقبل أن تغيب الروح تماماً تحت الماء، كانت آخر كلماته لنفسه:

"من الأفضل لي أن أغادر هذا العالم القبيح.. لا قيمة لبقائي، بعد أن اكتشفت كم أنا سيء ولا أستحق أن أستمر في الحياة".

هذه الكلمات لم يسمعها أحد بالطبع، ولم يكن ثمة من يتوقع أن العوض سوف تنتهي حياته بهذا الشكل.. لكن هذا ما حدث!.

25

كان نبأ اختفاء مدير عام الأمن محجوب العوض، قد شغل الرأي العام السوداني، وذلك بعد يومين من انتحار الرجل غريقاً في مياه النيل، في أشدّ لحظاته غضباً، من العام الميلادي.

لـم يكن لدى أي إنسان حقيقة مؤكدة حول ما حدث، فما كتبته الصحف لا يتعدى المعلومة التي تفيد بـ: "أن سيارة العوض ماركة كرسيدا موديل 97 وُجدِت إلى جوار النهر في منطقة الغابة، الواقعة غرب الخرطوم بجوار النيل الأبيض، على بعد ثلاثة أمتار من الماء".

القرار الذي اتّخذه العوض بمغادرة العالـم كان قراراً فردياً، ولـم يكن ثمة من يتوقع أن الرجل الذي يُوصف بالأقوى والأكثر تأثيراً في صنع القرار، سوف يهرب من العالـم بهذا الشكل بعد أن يجد ذاته في مأزق نفسي، نتيجة صراع بين أفكاره الحقيقية القديمة والشخصية الجديدة التي دخلها قبل عدة سنوات، دون أن يكون قادراً على مواصلة اللعبة إلى النهاية، فقد كانت أزمات الواقع الجديد في البلد أكثر من معقدة، وكان الذكاء وحده لا يكفي ليجيد المرء حُسن التصرف.

عندما علم اللواء طه بالنبأ، حيث سمع الخبر عبر راديو السيارة، كانت الساعة السادسة مساء اليوم الذي سيجري فيه تكريمه، من قبل الرئيس في احتفال كبير يُقام بالمناسبة في حدائق الشعب الواقعة خلف القصر الجمهوري، ذلك البناء العتيق الذي شُيّد على هيئة العمارة الفيكتورية الإنجليزية، منذ أكثر من مائة سنة، ساعة كان السودان مستعمرة بريطانية.

كان اللواء في كامل أُبهته وقد لبس الزي العسكري الرسمي، وصحب زوجته واثنين من أطفاله ليشهدوا معه يوماً تاريخياً في حياة العائلة، فقد ظلّ اللواء منذ سنوات ينتظر اللحظة التي يُنظر فيها إليه كصاحب إنجازات ورجل هُمام يعمل بوطنية صادقة.

لم تكن زوجته تعلم حقيقة ما حدث، لأنه لم يُخبرها، بل عندما سألته عن كيفية القبض على المجرمين، كان ردّه مقتضباً:

- هذه من أسرار العمل التي يجب أن لا أبوح بها، لو كنت أحكي لأي إنسان، لما كان الرئيس سيكرمني اليوم.

رغم أن الزوجة غضبت من الطريقة المغرورة التي تحدّث بها زوجها، إلا أنها قالت لنفسها: "فعلاً.. لو كان أي إنسان عرف بجزء من الخطة التي حبكها زوجي، لضاع كل شيء".

صدّقت أن زوجها حبك خطة أدت إلى القبض على القتلة، وكانت فخورة بأنها زوجة رجل يعرف كيف يكتم

أسرار عمله، حتى عن شريكة حياته، وهذا سر نجاحه في تقديرها.

حاول اللواء التماسك والقيادة بهدوء لكن وقْع خبر اختفاء العوض عليه، كان مؤثراً، فالعاطفة والذكريات الجميلة طغت على كل الصراعات والسوء الذي شاب العلاقة بينهما خلال العامين السابقين بالتحديد.

لم يكن الخبر واضحاً لكي يفهم اللواء كل شيء، فالمذيع ذكر في بيان مختصر لم يشر إلى الجهة التي أصدرته: "أن السيد محجوب العوض قد اختفى في ظرف غامض منذ يومين، ووُجِدت سيارته إلى جوار النهر"، ولم تكن هناك أي تفاصيل أخرى.

تشتت عقل اللواء وذهب إلى أفكار كثيرة، تحاول تفسير ما جرى: "هل تمّ اختطاف الرجل؟ وربّما اغتياله من قبل هذه الجماعة التي تمّ القبض عليها بتهمة اغتيال العربي؟"..

"هذا احتمال جائز" قال اللواء محدّثاً نفسه، وهو ينظر بشكل لا إرادي من لحظة لأخرى إلى زوجته التي كانت تراقب سلوكه بفارغ الصبر، في سبيل أن تفهم (السبب) الذي جعله يتغيّر فجأة ولا يُركّز على القيادة.

هي لم تسمع ما أذاعه الراديو، حيث كانت منشغلة مع أحد طفليها، الذي سألها عن نصب تذكاري كبير مقام على ناصية الشارع.. وكانت تحاول أن تُفسّر له أن هذا نصب الجندي المجهول، لكنها لم تقدر على إيصال الفكرة إلى الطفل، عمّن هو ذلك الجندي المجهول، لأن الطفل كان

يسأل أسئلة لا إجابات لها، مثل: "وهل هو جندي واحد، ذلك الذي ضاع في الحرب ولم يعرف مصيره؟".. "لماذا لم يصنعوا مجموعة من الجنود؟".. "هل سيصنعون واحداً كهذا لبابا إذا ذهب إلى الحرب؟".

فجأة أوقف اللواء السيارة، وخرج منها، دون أن يشرح لزوجته (السبب) أيضاً، وحاول إجراء بعض المكالمات الهاتفية، عسى أن يفهم ما الذي حدث بالضبط، لكن لا أحد كان يردّ عليه، الأمر الذي زاد توتره.

من جديد صعد السيارة وأسرع في قيادتها بتهور وسرعة جنونية، دون سيطرة على مشاعره، ولم يلتفت إلى سؤال زوجته المتكرر: "ما الذي جرى؟".. إلى أن أدرك الساحة التي ستشهد التكريم، في ظنّ منه بأن الاحتفال لن يتم بسبب ما حدث.. لكن ظنّه لم يصدُقْ لبعض الوقت، فقد كان المكان مُعدّاً بشكل جيد والساحة مكتظة بالبشر ورجال الأمن، والعمائم الكبيرة التي جاءت لحضور الاحتفال.

أوقف السيارة تحت شجرة قريباً من سور إحدى الوزارات الحكومية، حيث لا توجد مواقف منظمة، وخرج على عجل دون أن ينتظر عائلته، إلى أن رأى دائرة من البشر يقفون بشكل يتظاهر بالحزن، وهم يتحدّثون عن الاختفاء الغامض للسيد العوض.

لمح من بين المجموعة وزير الداخلية الجديد مدثر

البكري، الذي ظلّ صامتاً، في حين ذهبت البقية في اختراع السيناريوهات حول ما جرى.

كانت معظم آراء الحضور من كبار الشخصيات، تُفسّر الواقعة بالطريقة ذاتها التي فكّر فيها اللواء من قبل: "أن مدير الأمن تمّ اختطافه من قبل المجموعة التي ينتمي إليها قتلة السيد العربي، كنوع من الانتقام لجهوده في القبض على زملائهم والإيقاع بهم في الفخ".

هذه الآراء أثارت غضباً غير مُعلن في نفس اللواء، الذي شعر بأن "من حوله من كبار الشخصيات في الدولة ربّما يعلمون جيداً أن العوض، لا هو، من كان وراء حبكة القبض على المجرمين".

فكّر بهذا الشكل، دون أن يطرح ما يُفكّر فيه بصوت مسموع، خاصة أنه جاء إلى هذا الاحتفال ليُكرّم على الجهد الذي لم يقم به أصلاً، كما يعلم جيداً.

لم يهتم بالأمر كثيراً، حيث قال لنفسه: "إننا نعيش في بلد يمتلك فيه الحقيقة من يقدر على التمثيل بشكل بارع على أنه صاحب الحقيقة، حتى لو كان كاذباً إلى أبعد مدى".

بعد دقائق، تقدّم شاب إلى المنصة، وتحدّث بصوت عالٍ، معتذراً للجميع بأن الحفل سيؤجل: "لأن الرئيس لن يتمكن من الحضور في ظِل الظرف الطارئ الذي يعلمه الجميع".

***

قبل أن يغادر اللواء الساحة، وقف لفترة من الزمن يتحدّث مع وزير الداخلية البكري، بعد أن شكره على الإشادة التي قدّمها (سعادته) في بيانه عبر وسائل الإعلام للشرطة وله شخصياً لجهودهم في القبض على المجرمين.

كان كل من الرجلين يدري أنه يكذب على الآخر، وأن كذبته مكشوفة.. لكن لا أحد منهما قال الحقيقة، فاللواء بالغ في تقديره للوزير، وأن تعيينه كان فأل خير أنهى القضية:

- قبل أن يتمّ الاجتماع المؤجل بيننا انتهى كل شيء.

ردّ الوزير بمزيد من الكذب:

- بالطبع.. لقد كنت مخطئاً في تقدير ما تقومون به من عمل مُشرّف، ولم أكن راغباً في سماعك بناء على نظرتي التقليدية للشرطة.. لكن بمجرد أن خرجت أنت من مكتبي، ووُضِعت الملفات أمامي، فهمت أنك كنت تود أن تخبرني بأن القضية قد انتهت، لكنني كنت غير مستعد لسماعك وقتها، لأن ثقتي بالشرطة كانت مهزوزة بناء على نظرتي القديمة لما كان سائداً قبل أربع سنوات.

ذكر الوزير ذلك، ثم ابتسم ابتسامة مصطنعة، ونظر إلى عيني اللواء بقوة، وقبل أن يُودّعه، قال له:

- نأمل أن نرى جهودكم تتكرر في القضية الجديدة التي أمامنا.

كان الوزير يعني اختفاء العوض، وكان يقول العبارات

بلهجة تدلُّ على السخرية، في رسالة واضحة تفيد اللواء: "بأنكم لم تفعلوا شيئاً، لا داعيَ لأن يكذب بعضنا على بعضنا الآخر".

... لكن اللواء لم يلتفت إلى ما سمع، بل حاول بكل ما أوتي من مهارة تمثيلية أن يُوهِم الوزير بأن الشرطة هي التي قامت فعلاً بالقبض على المجرمين، وأن الأمن والعوض بالتحديد جاءا في النهاية وقطفا الثمرة.

الطريقة التي تعامل بها اللواء مع الوزير، وهو يصافحه مُودّعاً، أوحت للوزير البكري ببرود شديد من الطرف الآخر، واستعلاءٍ متعمّد، ومشاعر تدلُّ على أن ما هو غائب وغير مفهوم يظلّ هكذا إلى الأبد، الأمر الذي جعل الوزير يُحدّث نفسه: "من الجائز أن اللواء وجماعته هم الذين قاموا بكل شيء.. وأن العوض أراد أن يبدو بطلاً أمامي"..

السؤال الذي لم يستطع الوزير الإجابة عنه: "لماذا إذن أراد العوض الإشادة بالشرطة وبشكل واضح في البيان.. إذا كان يرغب في أن يكون (هو) بطل القضية فعلياً؟!"..

كان الوزير يراقب اللواء، وهو يغادر المكان بمشية متعجرفة كأنما أراد أن يُوصل إشارة مغزاها: "أنت لا تفهم شيئاً سعادة الوزير.. يكفي أن الرئيس يكرمني"..

ظل الوزير واقفاً لثوان وفي ذهنه ألغاز كثيرة لا تفسير لها، ووجد أن أفضل شيء يمكن أن يفعله، أن ينسى كل

ذلك، وأن ينطلق بسيارته للعشاء في أحد المطاعم الفاخرة بمنطقة الخرطوم (3).. وفي هذه المرة فضّل أن يختار وجبة الدجاج المشوي على الطريقة الحبشية، مع الفلفل الحار، بدلاً من السمك.

26

ظلّ ميسرة يراقب مجريات الأحداث من حوله، وهو غير قادر على التصديق: "هل كل ما حدث من تطورات، في الأسبوعين الفائتين، كان جراء تداعيات اغتيال العربي، أم أن هذه الوقائع كانت ستحدث لو لم تتم عملية الاغتيال؟"..

بقدر ما كان يشعر بطرب داخلي وفرح شديدين، أنه قد نجح في إنجاز تأريخي لأول مرة في حياته، إلا أنه كان في الوقت نفسه يشعر بشيء من الخوف غير المبرر: "خاصة أن الأيام القادمة ربما تقود الأحداث إلى ما هو غير متوقع، بتوصل الحكومة إلى طرف خيط ما يوصل إلى الحقائق الغائبة".

ما كان العقيد ميسرة متأكداً منه بثقة تامة أنه: "لا عضو من الخلية يدرك حقيقة ما يُفكّر فيه القائد، وأن الخلية التي يراها جميع الأعضاء على أنها جسم واحد متماسك باتت متشرذمة، وتحوّلت إلى أكثر من جسد، خاصة بعد نجاح عملية تصفية خالد وهيثم والسر من قبل عضوين آخرين من الخلية، قاما بالمهمة دون أن يدركا أنهما يقومان بتصفية ثلاثة أعضاء آخرين من المجموعة نفسها التي ينتميان إليها".

ببساطة فقد نجح ميسرة - بتقديره - من خلال الخلية في تنفيذ أهدافه الخاصة، وهو الأمر الذي ظلّ مجهولاً حتى لمجلس القيادة، الذي كان يفهم أمراً واحداً: "أن ثلاثة أعضاء قاموا باغتيال العربي وأنهم من المفترض الآن أن يكونوا قد غادروا البلاد عبر البر إلى أثيوبيا، في انتظار ما سيفضي إليه المستقبل من وقائع".

***

وفق الخطة المقررة.. كان خالد والسر وهيثم قد انطلقوا بالسيارة بعد إنهاء المهمة، إلى أن وصلوا إلى النقطة المحددة، قريباً من مخرج ولاية الخرطوم من جهة الجنوب بموازاة منطقة سوبا، بالقرب من مستشفى سوبا الجامعي.. هناك قابلوا شخصين، هما شهاب ومنير، وبالطبع لم يكونوا على معرفة بهما من قبل.

في تقدير خالد، كانت الوقائع تجري وفق المتفق عليه، حيث نزل الشخصان من سيارة ذات دفع رباعي.. قاما بتعريف نفسيهما بكلمة السر المحددة (.....)، ولم يدر حوار بين الطرفين.

قامت مجموعة خالد بترك سيارتها والصعود إلى سيارة الشخصين، اللذين انطلقا بهم عبر الطريق البري مسافة كيلومترين - تقريباً - ومن ثم وبلا مقدمات، انحرفت السيارة عن الطريق، إلى داخل منطقة زراعية، خالية من المارة.

في منتصف النهار، كان كل شيء قد انتهى سريعاً، بطعنات مباغتة من خنجرين صغيرين توجها من قبل يدي الشخصين إلى ظهور الشباب الثلاثة، الذين لم يكونوا يتوقعون البتة أنهم سيروحون ضحية رفاق لهم في الخلية، كما كانوا يعلمون.. لم يكونوا يتوقعون أن يأتي القدر من الرفاق.

رغم أن خالد حاول المقاومة إلا أن شهاب استطاع أن يرمي به أرضاً، ليوجّه إليه منير طعنة قاتلة.

قام شهاب بجرجرة الجثث الثلاث، إلى وسط الحشيش تحت أشجار كبيرة، حيث كانت هناك حفرة في التراب المبتل، قام، بدفن الجثث فيها.. تلك الحفرة التي تمّ تجهيزها قبل ساعات من الجريمة.

في الوقت نفسه كان منير يقوم بمراقبة الطريق حتى لا يشعر أحد من بعيد بما يجري، لكن لا أحد في المكان.. فقد تمّ اختياره بدقة، حيث كان بعيداً عن أنظار الناس، ونادراً ما يمرّ به البشر.

في نهاية المهمة.. انطلق شهاب ومنير عائدين، في الطريق نفسه الذي جاءا منه، دون خبر ولا حس، ولم يتوقفا إلا في شارع ضيق عند أطراف مدينة أم درمان، حيث كان في انتظارهما القائد ميسرة، ليعلماه بأن الخطة قد نجحت، وأن الأهداف الثلاثة الآن في العالم الآخر، وجثثهم تحت الأرض.

إلى أن انتهى منير وشهاب من مهمتهما، لم تكن لديهما أدنى فكرة عمّن هم هؤلاء الشباب الثلاثة الذين قضوا عليهم. فقط كانا ينفّذان أوامر القائد، بعد أن تم ترشيحهما من قبل مجلس قيادة الخلية، لميسرة، للقيام بهذه المهمة السرية.. التي رفض ميسرة أن يحكي عن طبيعتها، لأحد من القيادة، مكتفياً بالقول:

- مهمة سرية جداً ستفهمون تفاصيلها فيما بعد.

بالنسبة إلى منير وشهاب، فقد كانا سعيدين جداً بأنهما ينجزان عملاً مهماً يصبّ في مصلحة الخلية، دون أن يدركا أنهما يقومان بعمل إجرامي ضد رفاق لهما.. ولم يردْ بخاطر أي منهما أن يُراجع القائد أو يسأله: "لماذا نقتل هؤلاء الثلاثة؟"، ففي تقديرهما وحسب إيمانهما الجازم بالتعاليم التي يدعو إليها ميسرة في الكتاب التأسيسي، فإنه من العبط السؤال، فقط عليهما الاكتفاء بالتنفيذ: "فرَجلٌ بعقلية العقيد ميسرة يعرف جيداً مصلحة الخلية، ويظلّ هو العقل الأول الذي يجب احترامه. لقد كانا منذ زمن طويل يحلمان برؤية القائد، أو مصافحته على الأقل.. الآن جاءتهما الفرصة على طبق من ذهب، بل مهمة عاجلة، يجب أن يقوما بها، فهل يترددان؟.. أبداً لا".

أيضاً لم يكن منير وشهاب في حاجة كبيرة لأن يفهما الفلسفة والمنطق الذي يجعلهما يقومان بارتكاب جريمة قتل، فتشبعهما بمبادئ الكتاب التأسيسي جعلهما لا يبصران في

العالم شيئاً سوى التعاليم التي يدعو إليها ميسرة.. كانا مستعدين لفعل أي شيء يصبّ في مصلحة الخلية، هكذا كانا يفكّران ويتصرفان.

***

كان ميسرة قد قال لهما في نهاية الاجتماع السري، بعد أن شرح المطلوب بدقة:

- تأكدا من أمر واحد، أنكما تخدمان مصلحة الخلية.

وأكد لهما:

- أعتقد أن الخطة واضحة، فمنير سيقوم بتحريك سيارة عمّهِ في الصباح، بأي شكل كان، واستغلالها لتنفيذ المهمة، ومن ثم إعادتها قبل العصر.

قال ميسرة ذلك وهو يخاطب منير بالتحديد، الذي ردّ على القائد، مُعيداً تكرار ما ذكره في أول الاجتماع:

- بالنسبة إلى موضوع السيارة فالأمر بسيط جداً، وعمّي لن يكتشف أنني أخذت السيارة، لأنه سيعود في العصر ويجدها في مكانها بالبيت. كما أنها إحدى السيارات التي تحمل علامة حكومية، لذا لن يشك فيها أحد.

سأله ميسرة كنوع من الطمأنينة على أن كل شيء سيسير على ما يرام:

- لكن ربّما علمت أسرته بأنك حركت السيارة؟

- لا أحد سيعلم لأن البيت الذي أتحدّث عنه، هو واحد من عشرات البيوت التي تقف بها عشرات السيارات التي تحمل علامات حكومية.. إنه رجل ثري جداً، بأموال الشعب.. لكنني للأسف لم أستفد منه ولو مرة واحدة في حياتي، هذه هي المرة الأولى التي سوف أستفيد منه في شيء ما، حتى لو لم يكن يدري.. حتى لو راح ضحية لذلك، فلن أكون نادماً.

ضحك ميسرة قائلاً:

- حتى لو تمّ اكتشاف معلومات عن السيارة لاحقاً، فليذهب مثل هذا العمّ إلى الجحيم..

صمت قليلاً، وواصل:

- هذه السيارة مع خبرتك في الميكانيكا، هي أحد الأسباب التي جعلتنا نختارك يا منير للعمل مع شهاب في هذه المهمة، هذا بالإضافة إلى السبب الرئيسي الذي يتعلق بثقتنا بأعضائنا وقدراتهم وشجاعتهم.. تعلمون أننا في الخلية لا نزال نتحرك بإمكانات محدودة.. ووجود سيارة سيساعد على إنهاء المهمة بشكل سريع وسري..

لم يجد منير صعوبة في تحريك السيارة، في الصباح من كاراج أحد بيوت عمّه بالخرطوم بحري، حيث لا أحد هناك.. واستغل خبرته في الميكانيكا كونه تخرّج في هذا المجال؛ في تشغيل السيارة بمفتاح مزوّر، والذهاب بها إلى وسط الخرطوم، حيث كان في انتظاره شهاب، ومن ثم انطلقا لتنفيذ المهمة التي أنهياها بأسرع مما يتصوران.

الآن.. وبعد أن انتهى كل شيء، كان على منير أن يُعيدَ سيارة عمّه الحكومية إلى مكانها، في حين بقي شهاب مدة من الوقت مع ميسرة، قبل أن يفترقا.

بعد ذلك لم يلتق شهاب ومنير مرة أخرى ميسرة، باعتبار أن مهمتهما قد انتهت وأن القائد سوف يتصل بهما في الوقت الذي يراه مناسباً.

***

عاش ميسرة، طوال الأسبوعين الماضيين، بشعور سري يحدّثه بأنه قد نجح في استغلال هؤلاء الشباب، في الوصول إلى جزء من هدفه غير المعلن، والذي لا يعرف عنه أي عضو من الخلية شيئاً.. لكنه في الوقت نفسه كان ينبغي له الاستعجال في إكمال باقي الحبكة التي في ذهنه، ليصل سريعاً إلى الهدف الذي يُفكّر فيه.

ما لم يتوقعه أي عضو في الخلية، خاصة القيادة التي تلتقي ميسرة بشكل شبه يومي، أن القائد سوف يختفي في اليوم الثاني لاغتيال العربي.. فبعد لقائه مرتضى الذي نفّذ مهمة تسليم شريط الفيديو، للصحيفة التي تمت مصادرتها، وصحيفة المثلثة، لم يعد أحد يراه.

... ذلك الشريط كان قد صُوّر من قبل خالد، للسر في إحدى الممارسات الجنسية الليلية مع العربي بالفيلا في المزرعة.

غادر القائد البيت الذي كان يسكنه في ضواحي أم درمان، وهو المكان الذي يجتمع فيه مع القيادة عادة، دون أن يبدو له أي أثر أو يُسمع عنه خبر، وكان اختفاؤه حدثاً مربكاً في مسيرة الخلية، لاسيما للقيادة، فبقية الأعضاء لم يكونوا على علم تام بتفاصيل حياة ميسرة، وقليل منهم كانوا قد التقوه من قبل.

لم يترك ميسرة أي عنوان أو شيئاً يشير إلى الجهة أو المكان الذي توجّه إليه، مما جعل القيادة تُفكّر في الأمر على نحو مختلف لنيات ميسرة التي كان يتحرك بها في الواقع..

التفسير الذي توصلوا إليه ببساطة وعفوية ونتيجة إيمانهم التام وثقتهم المفرطة بالقائد: "أنه اختفى لتكتيك ما... قد يكون تم اعتقاله، لكن يظلُّ هذا الاحتمال قائماً وغير قائم، لا أحد يدري ما الذي حدث!".

***

في آخر اجتماع عقده مجلس القيادة في غياب القائد، كان رأي النقيب سفيان موسى، يتلخص في التأهب لأي احتمال طارئ، بعد أن نجحت العملية الأولى، لكنه قال:

- الحكم بالفشل أو النجاح ليس الآن، أعتقد أن التقرير

النهائي بهذا الشأن يحتاج إلى بعض الوقت حتى تتضح الأمور بشكل جيّد، ونتأكد أننا أصبحنا نسيطر على الوضع.

وافقه مجلس القيادة على ما ذكره، لكن النقيب فضل الله، كان مشغولاً بمناقشة مصير القائد، "أين هو الآن؟ وهل يا ترى تعرّض لأي مكروه!"، قال:

- لا ندري ما الذي حلّ بالعقيد، ليس لدينا أي معلومات عنه، وطوال السنوات الماضية منذ تأسيس الخلية لم يسبق له أن غاب عنّا ولو ليوم واحد.. ما يحدث الآن يدعوني إلى التفكير بأن الأمن ربما كشف جزءاً من مخططنا، وربما كان القائد في قبضتهم ونحن لا ندري.. ليس هذا من قِبل الحقيقة كما أتوقع، لكنني أفكر بصوت عالٍ، وأعبر عن توجساتي دون حواجز.

لم يوافق النقيب سفيان على تفكير فضل الله، حاول تفسير الأمر بطريقة أخرى:

- إذا كانت الحكومة قد كشفت أمرنا، فهذا يعني أن وشاية تمت من عضو ما، لكن من يكون هذا العضو؟.. لا أعتقد أن ما تذهب إليه منطقي سعادة النقيب.. تعلمون أن الذين يعرفون بما حدث، هم قلة، الأعضاء الثلاثة الذين كُلّفوا المهمة بالإضافة إلى سعادتكم.. أن يقوم واحد من الأعضاء الثلاثة بالوشاية فهذا يُعرّضه للخطر، ولا يمكن أن يكون ذلك التصرف من قِبله عقلانياً، أما أن يكون أحدنا هو

من قام بهذا الشيء، فهذا ما لا يقبله العقل.. في تقديري أن اختفاء القائد لأمر تكتيكي علينا أن لا نستعجل..

أشار فضل الله برأسه بما يعني أنه يقول: "كلام النقيب سفيان معقول ولا يمكن مناقشته"، لكن سفيان باغته بكلام غير متوقع:

- هناك شخص واحد يمكن الشك فيه أنه وراء ما حدث، إذا ما كان القائد قد تمّ اعتقاله!

ركّز الجميع تجاه سفيان، في انتظار أن ينطق باسم هذا الشخص، ولم يكن لدى أي منهم فكرة محددة عمّا يدور في ذهن النقيب سفيان، الذي واصل كلامه بسؤال وجهه إلى فضل الله:

- هل تعتقد أن مرتضى موضع ثقة؟

يدرك فضل الله أن سفيان لا يحب مرتضى ويرى في شخصيته شيئاً من الانهزامية والتردد، وكان سفيان قد اعترض من قبل، أمام القائد ميسرة، عندما رشّح فضل الله مرتضى للقيام بمهمة شريط الفيديو.

آثر فضل الله أن يسمع رؤية سفيان، وردّ على سؤاله:

- بكل تأكيد.. لكنني أنتظر وجهة نظرك.

- منذ أن سلّم مرتضى الشريط وعاد إلى مقابلة القائد لأول مرة لم نسمع عنه خبراً ولم نلتقه.

ابتسم فضل الله، بشكل ساخر، وردّ عليه:

- من الطبيعي ألا تراه، ما الذي سيجمعه مع عضو مجلس القيادة دون تكليف من القائد؟

بدا الانفعال على وجه سفيان، الذي فهم أن فضل الله لم يستوعبه جيداً، فيما كان يفكّر فيه بالضبط، وقال لنفسه: "هذا الشاب لم أرتح له منذ أن رأيته لأول مرة".

كان عليه أن يُوضّح ما يشغله بخصوص مرتضى بأسلوب مبسط:

- تعرف رؤيتي حول هذا الشاب.. وكنت أؤكد دائماً أن وجود أقارب بالخلية يضرها.. لكن دعني أدخل المقصد الرئيسي.. مرتضى حسب تحليلي من الشخصيات التي يمكن أن تلعب مع كل الألوان إذا وجدت مصلحتها في مكان آخر.

كاد فضل الله أن يموت ضحكاً، عندما سمع العبارات الأخيرة، وأسرع في مقاطعة سفيان قائلاً:

- وما الغريب في ذلك.. لو قام بأي فعل على هذه الشاكلة؟ أظن أنه سينتصر لمصلحته، ويُنفّذ ما جاء في الكتاب التأسيسي من تعاليم بشكل حرفي.. أليست المصلحة هي الأولى، أليست هذه تعاليم القائد؟

رأى بقية الأعضاء أن في الطريقة التي يتحدّث بها فضل الله نوعاً من السخرية بالقائد في غيابه، خاصة أن فضل الله يلعب دور ميسرة في اجتماعات الخلية لأول مرة.

أسرع أحدهم في التدخل بهدف تهدئة الحوار:

- إخواني لا أعتقد أن الوقت مناسب للجدل، نحن الآن

أمام موضوع محدد، وجميعنا معرضون للخطر، علينا أن نفكّر بشكل عقلاني لنختصر الوقت.. لا ندري.. ربما قبل أن ينتهي هذا الاجتماع قد نكون جميعنا، رهن الاعتقال.

ما قاله عضو مجلس القيادة، جعل الجميع يصمتون لدقائق، حيث عاش كل منهم لحظات ما بين الارتباك والتوقع والخوف.

أسرع فضل الله في تهدئة الوضع بالاعتذار بشكل علني لسفيان:

- سعادة النقيب.. عذراً إن كنت قد تكلمت بأسلوب غير محترم.. في النهاية سيظلُّ ما يجمعنا أكبر.

ومدّ يده مصافحاً سفيان، الذي ابتسم قائلاً:

- أحياناً يكون من الضروري في مثل هذه الظروف التركيز على عامل الثقة فيما بيننا، فغياب هذا العامل، يجعلنا نخسر المعركة مبكراً.. مهما يكن فأنا على ثقة بأن ما تراه صحيحاً سعادة النقيب، هو الذي يجب القبول به.. لن أنسى أنك رئيس هذا الاجتماع بحكم النظام داخل مجلس القيادة.

كان على فضل الله أن يُوضّح لسفيان ما أثارهُ بخصوص مرتضى، حتى لا يمرّ الموقف وينتهي بسكوت سفيان مجاملة منه لنائب القائد (القائد حالياً).. قال:

- مرتضى لا يعلم في الأساس بأن الخلية هي التي نفّذت عملية الاغتيال، ما قام به ينحصر في تسليم شريطي الفيديو للصحيفتين.. لا أكثر.. ولا أعتقد أن ميسرة يمكن أن

يخبره بشيء، فالسرية التامة هي التي تحرك مشروع الاغتيال.. أما بخصوص صلة القرابة بيننا فهذا الموضوع تمّ حسمه مبكراً من قبل القائد، لا أعتقد أننا نناقشه الآن..

واصل فضل الله الاجتماع، مُركّزاً على الوضع الراهن والخطة المُقبلة:

- في غياب القائد، لا يمكننا أن نقرر أي شيء.. أفضل حل هو الانتظار ومعرفة ما جرى بالضبط، ومن ثم يمكن اتخاذ القرار المناسب.. أيضاً علينا أن نكون حذرين ما أمكن، فما أراه أن القائد غاب لسبب منطقي، لا ندركه في هذه اللحظة.. لكن حتماً سنعرف لاحقاً.. المطلوب منّا توقع كل شيء.. والأفضل لنا في هذه الأيام أن نقلل من الاجتماعات، وألا نظهر بشكل جماعي أبداً ما أمكن، إلى أن تتضح الأحوال.. صحيح أننا نستبعد موضوع الاعتقال، لكن يظلُّ هذا الاحتمال قائماً وغير قائم، لا أحد يدري ما الذي حدث!.. دعونا نتعامل بالحيطة والحذر ونتحرك بشكل فردي.

ما قاله النقيب فضل الله أخيراً، كان بمثابة تعليمات.. على مجلس القيادة التعامل بناء عليها، وعلى القيادة نقل هذه التعليمات إلى عامة الأعضاء، بشكل غير مباشر ودون تفسيرات.. أوضح لهم:

- لا أحد من عامة الأعضاء يعرف أن اغتيال السيد العربي تمّ بواسطة الخلية، لذا سيتصرفون بشكل

طبيعي..المطلوب أن نخبرهم بطريقة ذكية أن الأيام القادمة ستكون مرحلة الاختبار الحقيقي لنا.. على كل فرد توخي الحذر والانتباه.. ستوضحون لهم بأنه لدى القيادة معلومات بأننا نمر بفترة حرجة، ولذا سنقلل من اللقاءات الجماعية..

قبل أن يختم الاجتماع، ويفترق مجلس القيادة، نوّه فضل الله:

- موضوع غياب القائد، سيظل معلوماً لنا فقط.. عفواً أنا لا أشكك في ذكائكم، لكن وجب التنبيه.. لا أحد من عامة الأعضاء يجب أن يعلم بأن العقيد ميسرة قد يكون في خطر.

27

مع دخول الظلام وتحت المطر الذي هطل كثيفاً، دخل ميسرة البيت الصغير المكوّن من غرفتين في مسقط رأسه بشمال السودان، لم تره والدته منذ أكثر من خمس سنوات، حيث ظلّ غائباً بالخرطوم طوال هذه المدة دون أن تعرف له خبراً.

وجد أن حال الوالدة قد زاد سوءاً حيث لم تكن قادرة على الرؤية بشكل جيّد، ولم يكن في البيت ما يكفي لعشاء الضيف الذي حلّ ما بعد أذان العشاء.

كان الوضع يدعو إلى الحزن والبكاء، وما لا يعلمه الكثيرون عن ميسرة، فقط تعلمه والدته: "أنه إنسان حساس جداً، قد ينسى الأقارب والأصدقاء سنوات طويلة وينجرف في الحياة بهدف أحياناً ودون هدف في معظم الأحيان، لكنه في لحظة صفاء خالص مع الذات، يعود إلى نفسه الأولى التي فُطِر عليها.. تلك النفس التي سرعان ما تستغرق في الأحزان وتبدأ بالبكاء دون أن تتوقف بسرعة".

عندما قرر ميسرة العودة إلى مسقط رأسه بـ (الرميلة) التي حدثتكم عنها في روايتي الأولى (الأنهار العكرة)، تلك

المدينة الصغيرة الوديعة، كما كانت توصف في الماضي من قبل أهلها، لم يكن ينوي البقاء فترةً طويلة، كان فقط يريد أن يرى والدته ويطمئن إلى أحوالها، ويُوصّل إليها رسالة مفادها: "لقد اقترب الفرج".. فطوال ما يزيد على ثلاثين سنة، ظلت مريم تنتظر يوماً سعيداً في الحياة ترى فيه ابنها يحقق أحلامه التي كان يتحدّث عنها في طفولته وصباه بصوت مسموع للجميع.

كان ميسرة وقتذاك، معروفاً في كل المدينة الصغيرة، يشار إليه بوصفه الفتى الذي اخترق القواعد والمألوف، وكان كل من يراه يقول لوالده، الذي توفي قبل عشر سنوات: "ابنك هذا سوف يكون شخصاً عظيماً في المستقبل"..

في ذلك الوقت كان الفتى يبدو نحيفاً مثل إبرة.. واليوم ينظر بشفقة إلى جسده النحيل الذي امتلأ فيما بعد، بمرض خبيث لم يكن يعلم عنه أحد سواه، جعله يتضخم بسرعة، فيشعر بالألم والغضب من كل شيء، من ذاته بالتحديد التي دخلت مغامرات لم يكن يظنّ ذات يوم أنه سيكون بطلها أبداً، كأن ذلك الشخص متقلب الأهواء، ليس هو، كأنه شخص آخر لا يمتّ له بصلة، لكن من يستطيع أن يقنعه، لا أحد سيفهمه جيداً، ولا أحد سيسمعه.

"لقد اقترب الفرج".

الفرج الذي يعنيه، كان قائماً في دماغه، لم يكن أحد غيره قد اطّلع عليه.. بعد أن وصل إلى قرار لا رجعة عنه،

منذ أن بدأ مشروعه بتأسيس الخلية: "أن يمضي في اللعبة إلى النهاية".. تلك اللعبة التي تخصه وحده، ولم يكن ثمة عضو من الخلية يدركها أو يعرف تفاصيلها كافة.

استخدم ميسرة ذكاءه وحيلته وخياله الباذخ لينجح في تحقيق حلمه الذي تأخر، بأن يصنع مجموعة موالية له تطيعه في أفكاره "المتطرفة" دون أن تمتلك الجرأة على تحدّيه.. كان متأكداً من هذا.. وأكثر من ذلك كان يدرك: أن المستقبل ربما يكشفه على حقيقته التي لا يعرفها أحد سواه.. ولن يأسف أبداً ما دام قد فعل كل شيء إرادياً وكان يدرك هدفه الذي يفهمه جيداً.

***

يتسرب ماء المطر من السقف إلى داخل الغرفة الصغيرة، في الوقت الذي كانت مريم تسأل ميسرة عن أحواله، وماذا فعل طوال السنوات السابقة!.

لم تكن لديه إجابات مقنعة، فالوالدة تُركّز على النجاح في الحياة بطريقتها الخاصة: بيت كبير من طابقين في الخرطوم، وسيارة، وزوجة وأطفال وعمل محترم.

أما (الابن العاق) في تقديرها، لكنها لن تتفوّه بذلك، لأن قلبها لا يقدر على جرح القريب الوحيد الذي تبقى لها في العالم.. فقد كان ذلك (العاق) يُفكّر بلغة الحياة الجديدة

التي لا تُدرِكها مريم.. لغة خاصة ابتكرها الابن بعد أن غاصت فيه جراح الدنيا إلى الرُكب، وبعد أن تقلّب في الأفكار والعقائد، وبعد أن كفر بكل الواقع القائم في البلد.. حيث لم يعد يرى ثمة ما هو مقنع، أو أن هناك حقيقة واحدة يمكن الاستناد إليها والتفاؤل بها كأمل ضئيل للغد.

سألته:

- ألم تقرر بعد أن تتزوج؟.. كل بنت هنا تتمناك.

وجد ميسرة نفسه يضحك دون أن يدري، وقال لوالدته:

- يتزوجن من رجل تجاوز الأربعين ولا يملك شيئاً؟

- الرجل لا يعيبه شيء غير فساد خلقه.

بلغة الأم فإن فساد الخلق، يعني عدم الالتزام بالدين والتقاليد والأعراف، وفي تقديرها حسب الصورة القديمة في ذهنها: أن ابنها لا يزال ذلك الشاب الذي كان يؤدي الصلوات الخمس في المسجد ويغضُّ الطرف عن كل بنت تعبر أمامه، فقد كان مسكوناً بالحياء والخوف من الآخرين في ذلك الزمن.

أما الآن فقد تغيّر كل شيء.. لم يعد ميسرة ذلك الذي يمكن أن يوصف كرجل (ملتزم).. فقد كان مشغولاً في حجم ما تحمله الحياة من مفارقات.. "كيف كان وإلى أين وصل؟"..

لم يكن أمامه من سبيل ليقنع والدته، لأنه كان يدرك جيداً: "أن الطريقة التي تُفكّر بها لا يمكن أن تتقاطع مع

الطريقة التي يُفكّر بها.. هو.. يحتاج إلى عقود طويلة لكي يستطيع أن يُفهِمها من يكون هو؟".

في الوقت نفسه، كان يرى في والدته: "صورة للتناقض الكبير في العالم القديم.. المجتمع الذي يتحدّث بلغتين: لغة سرية وأخرى جهرية.. فقبل قليل كانت تسأله عن البيت والسيارة والثروة.. والآن تقرر ببساطة أن الرجل هو خلقه، ودينه".

تشوش ذهنه، وهو غير قادر على إدارة حوار متعادل الطرفين، في اللحظة التي كان قلبه مشحوناً بالأسى والحزن، والشعور بالذنب.. ذنب ما، لا يمكن التكهن به، ربما تجاه الوالدة بالتحديد.. أو تجاه والده الذي رحل عن العالم دون أن يرى أحلامه تتحقق في ابنه.

... وكاد ميسرة أن يبكي مجدداً، ووصل إلى نتيجة: "أن يكذب".. يحاول أن يتلاعب بوالدته في الكلام، بمحاولته شغلها عن الحاضر، بالحديث عن ذكريات الماضي.. بعث صورة ذلك الولد الذي كان.. تلك الصورة الجميلة، المشرقة، التي تظنُّ الأم أنها لا تزال قائمة.. والتي كانت كفيلة بأن تجعل ذهنها يغوص في مشاهد الحياة التي بادت.

سرعان ما استجابت العجوز للعبة الابن وخدْعتِه، الذي شعر كما لو أنه كائن تافه بلا ضمير ولا أخلاق، أصبح يغشُّ كل العالم، حتى والدته التي كان يظنُّ أنه يحبها، فقد

اكتشف أن مشاعره غير محددة، ولا يمكن أن توصف بأية حال على أنها مشاعر حب صادق.

مضى الليل ومريم تثرثر بصوت عالٍ، عن ذلك الصبي الذي كان الجميع يحسدونه، إلى أن وصلت إلى النقطة التي كان ميسرة يود ألا تتذكرها والدته.. النقطة الأكثر ألماً والتي صنعت فيه الجرح منذ الطفولة.

عندما نطقت باسم السيد العربي، تخيّل ميسرة أن رأسه سوف ينفجر، وتمالك نفسه حتى لا تسمعه والدته وهو يتفوّه بكلمة قليلة الذوق.. فقد كاد أن يصرخ بها "كُس أمه".. ولو حدث ذلك ونطق بالكلمة، "كيف كانت الوالدة ستفهم الأمر، وهل كانت ستقدّرهُ؟"..

كان السؤال صعباً على ميسرة، ولم يضع وقتاً في الإجابة عنه، خاصة بعد أن مضت مريم في ما لم يكن يرغب في سماعه:

- كان الخبر صعباً على الجميع هنا.. فالرجل صاحب فضل عليهم.. بكيناه بدموع غزيرة، ولو كان في المستطاع لسافرت مع من سافروا إلى الخرطوم للعزاء.

"هل يقول لها كفى ألماً، توقفي أيتها (الـ....)!"

من جديد تمالك نفسه ورأى أنه تافه، مرة أخرى.. وانتهز فرصة توقف المطر ورائحة الهواء البارد في الخارج التي بدأت تدخل الغرفة، ليقول:

- سأخرج قليلاً لأرى الناس.. لابد أن الشباب سيكونون في النادي.

لم يكن يعرف ماذا يقول بالضبط في تلك اللحظة، كان يريد أن يخرج من المكان بأي كلمة تقال.

نظرت إليه والدته، وبصعوبة ميّزت أن الذي أمامها هو ابنها، فقد تعسرت عليها الرؤية. ابتسمت تردّ عليه، وهي تتوكأ بنصف ذراع على السرير:

- هل جننت يا ولدي؟ الناس الذين تتحدث عنهم لم يعد لهم وجود هنا، ستخرج ولن تعرف أحداً.. لم يبق أحد هنا في المكان سوى العجائز أمثالي.

قالتها ضاحكة.. وأضافت:

- هؤلاء العجائز ينمن مبكراً.. النادي منذ ثلاث سنوات حوّل مبناه إلى مقر جمعية يقولون إنها جمعية خيرية، تساعد الناس، أنشأها السيد العربي، لكن لم نرَ منها شيئاً.

وجد ميسرة الفرصة مناسبة ليُدخِل والدته في شكّ تجاه ما يقال حول الرجل وكونه صاحب أفضال على الجميع، قال لها:

- ألم تقولي قبل قليل إن الرجل صاحب خير على الناس هنا.. فأين هذا الفضل إذا كانت الجمعية لا تساعد أحداً؟

شعرت مريم بأن ابنها يتحدث بلهجة غاضبة، كان قلب الأم راداراً قادراً على التقاط ما حاول دسّه عنها، وأدركت دون أن تفهم جيداً: "أن لديه أمراً ما يرفض الإفصاح عنه،

يتعلق بشيء ما غير مفهوم، له علاقة بالسيد العربي".. لكنها لم تسأله، فقط أجابت عن سؤاله ببساطة:

- المشكلة ليست في السيد العربي يا ولدي.. المشكلة في هؤلاء الذين عيّنوهم لإدارة الجمعية.. هم الذين يسرقون حق الناس.. لأن الرجل عندما جاء إلى البلد قبل سنتين لم يُقصّر مع أحد، هذا الثوب الذي كنت تتغطى به قبل قليل، هو الذي أهداه إلي.

"أف.. اللعنة".. كادت أن تخرج من فمه، لكنه تمالك نفسه مرة ثالثة.. وسرعان ما خرج إلى الحوش الخارجي، يسبُّ ويلعن السيد العربي، بصوت غير مسموع لمريم في داخل الغرفة..

كان يريد أن يتنفس هواءً يشعره بأنه جزءٌ من هذا العالم، بعد أن اختلطت عليه الذكريات بالحاضر، بالألم بالعذاب.. لم يكن يسيطر على أي جزء من دماغه.

28

"هل يُمكن أن يُحرّك الانتقام الإنسان نحو أن يفقد السيطرة على نفسه تماماً؟"

كان ميسرة يفكّر في إجابة عن هذا السؤال، طوال الأيام الثلاثة الأولى التي قضاها إلى جوار والدته، بعد أن دخل حالة من التوتر:

"هل يمضي إلى الخطوة القادمة أم يتوقف؟"

لكي يستطيع التفكير بشكل جيّد، آثر أن ينعزل عدة أيام عن العالم، مع ذاته فقط.. حتى يكون قراره النهائي إيجابياً في تقديره.. الإيجابية التي يفهمها وحده، وليست بالضرورة تلك التي تتقاطع مع ما يطلبه منه المجتمع والناس من حوله، فطوال أكثر من ثلاثة عقود من الزمن ومنذ أن وعى العالم، ظل يتّبع ما تمليه الأشياء المحيطة به.. والآن يجب أن يصنع قراره النهائي الذي يتعلق به، مهما كانت النتائج.

"العزلة التي ينبغي أن يدخل فيها، يجب أن تتم بعيداً عن الناس، كل الناس بمن فيهم والدته"، لأن بقاءه إلى جوارها سوف يربكه كثيراً.. لذا وفي منتصف الليل بعد أن هجعت كل المخلوقات - تقريباً - كان ميسرة قد اتّخذ طريقه إلى الجبل القائم وراء النهر، وراء المدينة الصغيرة..

لم يكن قد أخبر والدته، بأنه سوف يختفي عدة أيام.. ولم يكن مهتماً بهذا الأمر، لكنه بمجرد أن وصل إلى الباب الخارجي للبيت، كان قد عاد بعد أن شعر بأنه غير قادر على مغادرة البيت دون أن يُعلِم والدته.

أيقظها من نومها الذي لم يكن عميقاً على ما يبدو.. فقد كانت تتحدث بصوت عالٍ - وهي نائمة - مع أشخاص لم يكن لهم وجود واقعي في تلك اللحظة.. لربّما كانت تحلم أو تعيش كابوساً فظيعاً امتداداً لكوابيس العالم الخارجي.

- سوف أغيب عدة أيام.

- هل ستعود إلى الخرطوم؟.. إذن انتظر حتى الفجر..

- لا.. سأخرج الآن.. لا تقلقي بشأني.. أعرف أنني أزعجتكما كثيراً.. أنت ووالدي.. ولكن ماذا أفعل هذه هي حياتي؟

أخذته والدته في حضنها مثل طفل صغير لم يحبُ بعد، ليحس ميسرة بدفء وحنان لم يشعر بهما منذ سنوات بعيدة جداً..

رأى كما لو أنه يسير في طريق طويل مضيء بشمس أخرى غير الشمس التي يعرفها العالم.. وبتلقائية انهمرت دموعه تبلل ثياب والدته، لكنه قاوم البكاء، وودّعها:

- لن أتأخر.. لا تقلقي كثيراً.

***

عندما ولد الفجر الجديد، كان قد وصل إلى الجبل، منهكاً، وسرعان ما غرق في غابة النوم، لم يستيقظ إلا بعد ساعات طويلة، لم يعلم عددها.

لم يكن ممكناً التعرف على الوقت، إلا من خلال مراقبة الفضاء.. ثمة نجوم متناثرة في سماء محبوكة بالقصص والذكريات القديمة، وخيالات لأناس عبروا بهذا المكان ذات يوم من الأيام.

شعر بالجوع، ولم يكن يحمل معه طعاماً، فقد تعمّد هذا الشيء.. أن يعتمد في أكله خلال أيام العزلة على أي شيء تجود به الطبيعة.

جال في المكان الخالي من البشر.. لم تكن هناك غير أشجار صغيرة لنبات لم ينتبه ماذا يكون، وفي ظلام الليل لم يهتم بأن يتعرف عليه.. ودون أن يُفكّر كان قد بدأ قرض الأوراق المخضرة تواً بعد هطول المطر مع الخريف.

كان قد شبع وارتوى من مياه المطر الراكدة في وادٍ صغير في أحد أركان الجبل، وجلس مُجرّداً من الأحاسيس والمشاعر كافة التي يمكن أن تربطه بالعالم الخارجي.. حيث غاص في أعماقه الخفية والمستورة، تلك التي لم يحاول البحث في داخلها والسباحة في بحرها، منذ سنوات الطفولة.. إبان كان طفلاً شفافاً، كما يقال عنه.

يقول عدد من الناس وقتذاك: "إنه مبارك، لأن أحد مشايخ ذلك الزمن منحه البركة بعد أن رأى فيه صلاحاً".

يتذكر ميسرة الحكاية، دون أن يشكك فيها، أو يشغل باله: "هل هو صالح كما كانوا يقولون أم لا؟"، فما يسيطر عليه الآن، شيء آخر: "تلك الحياة الجديدة التي دخلها دون حسابات، هل درس كل خطوة كما ينبغي؟ أم أنه دخل دون تفكير؟ وهل كان هو الذي يخطّط وينفّذ أم أن قوة خارجية كانت تُحرّكه؟".. لم يكن لديه جواب محدد!

يعود إلى الوراء في الزمن، فيكتشف أن خياراته في الحياة كانت مختلفة عن تلك الظروف التي وجد نفسه محشوراً بين طياتها.. كان حلمه البعيد، والذي تسرّب مع السنوات، غير محدد.. تارة يرى نفسه عالماً متخصصاً في علم الفيزياء.. فقد كان يحبّ التلاعب بالنظريات الفيزيائية وكان معجباً بشخصيات مثل آينشتين.. وتارة أخرى يرى نفسه رجل أعمال كبيراً كالسيد العربي.. وأحياناً طبيباً يضمّد الجراح.. وتارة ضابطاً في الجيش؛ بطريقته الخاصة، يستيقظ الناس ذات صباح ليجدوا أن ذلك الضابط قد سيطر على السلطة بانقلاب دموي، سلمي.. ليس ثمة فرق.. أحياناً كان يرى نفسه كاتباً مشهوراً مثل أرنست همنجواي، الذي كان معجباً برواياته في الصغر، لاسيما رواية (وداعاً للسلاح).

دخل جامعة الخرطوم، دون أي حسابات أو تخطيط.. درس الطب برغبة الوالد والوالدة والمعلمين في المدرسة، وتخرج بامتياز.. وبعد سنتين كان قد أخفق في اجتياز

الامتحان المقرر للامتياز، والذي بالنجاح فيه، يُصرّح له بأن يمارس المهنة كطبيب خاص بعيادته إن أراد.

كان يدرك جيداً أن سبب إخفاقه لا يتعلق بقدراته، بل لأشياء غير مفهومة في ذلك الوقت.. ظنّ أنه سوف يفهمها لاحقاً.. أحياناً كان يعزو الأمر إلى انشغالاته العقائدية، حيث كان في تلك الفترة ملتزماً خلايا العمل الإسلامي، وكان عليه أن يحضر اجتماعات روتينية للكتائب، وأن يساعد على تنظيم المعسكرات السرية التي تقام للطلاب المتفوقين بهدف غسل أدمغتهم وجعلهم جزءاً من قادة المستقبل في تنظيم الإخوان المسلمين.

مع التعقيد الذي حدث في أفكاره وتأملاته، غادر ميسرة الإخوان المسلمين وتحوّل إلى الاشتراكيين الذين وجد فيهم مسرحاً رحباً لإشباع هواجسه الفكرية: "وقتها كانوا يتحدثون عن ماركس بوصفه نبياً حديثاً بشّر بعصر جديد للإنسانية".. لكن الماركسية لم تقنعه، لأسباب تتعلق بفكره المتسارع في نموه؛ ففي زمن وجيز كان قد تحوّل إلى (جمهوري) بعد أن وجد أن تفكيره يميل لأفكار محمود محمد طه وما يقدّمه من طرح حول الإسلام الجديد.. لكن قبل أن يغادر محمود العالم بخمسة أشهر في 18 كانون الثاني/يناير 1985، كان ميسرة قد ترك الجمهوريين الذين رأى فيهم: "مجرد أناس حالمين، يعيشون بمثالية لا يُطبّقونها كما ينبغي"، ورأى أن فكرهم: "يقترب من الأساطير، حيث يكاد الشيوعي والجمهوري

يجتمعان في كلمة واحدة هي (اللاواقعية) تجاه قضايا الواقع السوداني ومتطلباته".

كان ميسرة يدخل ويخرج من تنظيم إلى آخر، بعد أن يكون قد وصل إلى درجة فاعلية كبيرة في منظور الأعضاء، ولكن سرعان ما يغيب دون سابق مقدمات.. بهذه الطريقة ظلت حياته تمضي.. كذلك بشأن أفكاره التي تدخل حلقة بعد أخرى.

وكان من الصعب على أي إنسان أن يفهم ما الذي يُفكّر فيه هذا الشاب بالضبط، هناك من يراه عبقرياً، والبعض الآخر يراه عبيطاً وأهبل.. لكن الأمر الذي لا يمكن الاختلاف حوله لدى غالبية معارفه، أن ميسرة كان يحظى بالقبول السريع مهما كانت الصفات التي تطلق عليه.

ما لا يعرفه أحد، ويعرفه ميسرة فقط عن نفسه، أنه كان يُراكم في ذاته بمرور السنوات نوعاً من العقيدة الخاصة، تلك التي أوصلته إلى نتيجة واحدة: "أن الزمن الجديد في السودان يتشكّل بناء على قاعدة المال.. لا غير.. لا أحد يمكن أن يُوصف بالمثالي أو خادم الناس، كلهم يبحثون عن مصالحهم الذاتية.. حيث كل التنظيمات والجماعات والأحزاب مجرد بوابات للدخول إلى عالم الثروة وتكريسها".. هذه الثقافة الجديدة كان قد آمن بها، بيقين تامّ غير قابل للزعزعة، ذلك اليقين الذي بدأ في التزعزع اليوم عند الجبل.

استغرق في استعادة شريط حياته بهدف أن يصل إلى نقطة محددة، يُمكنه الاعتماد عليها في البناء من جديد: "أن يبني تاريخاً مختلفاً للذات"..

خالجته حالة في مشاعره الدفينة، تُحدّثه بـ: "أن يعود إلى عهد البراءة، ذلك القلب الصافي، الأبيض كالحليب.. ذلك الدفء المتسامح مع العالم، لكن كيف سيكون هذا؟ بعد أن زجّ بنفسه في مستنقع الخديعة الآثم، وبعد أن غاص تماماً في وحل الجريمة؟.. فما ينتظره الآن إذا ما تمّ القبض عليه بعد أن يتم اكتشاف الحقيقة بأي شكل كان، هو القتل.. لا مصير سوى ذلك، وبذا يكون قد أنهى مشروع حياة ناجحة بالفشل.. وتكون اللعبة قد انتهت بالخسارة بدلاً من الربح بشروط أخرى للعب غير الشروط التي سلكها".

استمر في مراجعة الماضي ومُساءلة الذات: "هل كان من الضروري أن أقوم بكل ما قمت به وما هو الهدف؟!"..

لم تكن لديه إجابة مقنعة، ورأى أنه: "استغل المجموعة التي عملت معه بكل إخلاص، معتمداً على ذكائه، في مشروع غير نبيل".. هكذا ينظر إليه في هذه اللحظة بالتحديد..

... لكنه يعود مُسترجِعاً الأمس فيغالط النظرة الأخيرة التي توقف عندها، بعد أن يرى أن قلبه قد فاض بالألم والتيه.

ينظر إلى السماء فوقه، فيخيل إليه أن كلّ النجوم قد تناثرت بعد أن كانت كتلة واحدة، في هذا الليل بالتحديد.. يتخيل ذلك بعد أن شعر بالدوار والانشطار الداخلي

الكبيرين، ليبدأ مخاطبة مكان غير محدد من جسده: "الآن فقط شرع العالم في التشكُّل على نحو جديد.. عليّ أن أفهم ما هو هذا الشكل؟!".

مضت الأيام الثلاثة الأولى لتصل إلى عشرة أيام، ظلّ ميسرة على هذا الحال، يحوم في الأفكار ثم يعود من جديد إلى النقطة ذاتها التي بدأ منها، غير قادر على تحديد طريقته الجديدة في الحياة.. يحاول أن يسترجع كل ما جرى "هل كان حلماً أم حقيقة؟ وما الحكمة وراء كل ما فعل؟!.. وأي عقل كان يحركه؟.. وأي عقل كان يجعل هؤلاء الشباب يتبعونه؟ رغم أن تعاليمه التي كان يدعو إليها في الكتاب التأسيسي كانت مرتبكة ومتناقضة، عندما يعيد التفكير فيها؛ الآن".

تأكّد أنه: "كان يحلم بصوغ مشروع ما، لكن يبدو أنه فقد البوصلة الصحيحة.. لقد دخل حالة من الفراغ نتيجة التناقض والارتباك"؛ هكذا فسّر ما جرى..

وكلّم نفسه: "للأسف لم يكن الذين من حولي يدركون هذا الشيء.. الناس عندما يصلون إلى يقين تام بفكرة ما، لا ينظرون إلى الفكرة حيث يكتفون بالنظر إلى من يقولها.. وهذا هو جوهر الخطأ.. عندما تحولت أنا إلى مقدس، ولم يكن لدى الأعضاء القدرة على مناقشتي ورفضي.. لو كانوا قد استخدموا عقولهم فعلاً لما استمروا في الالتفاف حولي".

راقب لحيته التي استطالت، وتخيّل صورة وجهه الذي لم

يره طوال الأيام السابقة "هل هذا الوجه ينتمي إليه أم لا!".

"ليست حياة الإنسان سلسلة منظومة لها هدف محدد، غاية".. يُفكّر ميسرة: "إن العبث هو ما يُشكّل العالم"، وأخيراً بعد تفكير عميق وصل إلى خلاصة هي: "المواجهة، مواصلة المشوار العبثي إلى النهاية، اللعبة المخيفة والممتعة أحياناً"، وعليه: "أن يعبئ القلب بالمزيد من التجرد من الأحاسيس والمشاعر، وأن ينزع الروح والحنان والإلفة ويجعل من ذاته مُجرّدة من أي معنى إنساني، حيث لا مكان لكلمة (الإنسانية) في هذا العالم".

قرر مغادرة الجبل، وإنهاء العزلة، وأزاح عن ذهنه بعض الأفكار، مثل تحوّله إلى درويش يجول في البلاد أو الاختفاء عن الناس بالعيش في الصحراء إلى أن تمضي حياته نحو قرارها المحتوم.. أيضاً أبعد فكرة الانتحار.. ووجد أنه شجاع بما يكفي للوقوف ضد كل ألوان العبث الذي رآه يسود العالم.

مع الفجر كان قد عاد إلى البيت، حلق لحيته بسرعة، وحمل ملابسه في كيس صغير من النايلون، دون أن يجيب عن أسئلة والدته: "أين كان وماذا كان يفعل، طوال الأيام السابقة؟"

***

قبل أن يغادر إلى الخرطوم، وأثناء تناوله كوباً من الشاي بالحليب بناء على رغبة والدته، التي أصرّت عليه ألا يذهب قبل أن يشرب شاي الصباح.. توقف فجأة عن الشراب دون أن يسيطر على تصرفاته، وتحرّك بشكل غير مقصود ليتدفق كوب الشاي على الأرض، عندما قالت الوالدة:

- هل سمعت بالخبر.. لقد قبضوا على قتلة السيد العربي؟

فهمت الوالدة أن تصرّف ابنها جاء تلقائياً، وأن سببه: "التأثر وربّما الحزن على السيد عبد الله".. فهي تدرك جيداً: "أن العربي كان أحد الأشخاص الذين عملوا على إعانتهم سنوات طويلة، حتى أكمل ميسرة تعليمه وتخرج طبيباً في الجامعة"، ولم يدر بذهنها قط: "أن يكون الجالس إلى جوارها (مجرماً) خطط لقتل من أحسن إليه وإلى عائلته لسنوات طويلة!".

الخبر الذي سمعه ميسرة، جعله يُعيد التفكير في قراره الأخير بالعودة إلى الخرطوم: "لكن قبل ذلك عليه أن يفهم تفاصيل ما جرى!"، سأل والدته:

- ومن هم هؤلاء المجرمون؟

كانت المسافة الزمنية الفاصلة بين سؤاله وإجابة الوالدة، قصيرة جداً، لا تتعدى مجرد ثوانٍ، غير أن هذه المسافة بدت في منظوره أطول من ذلك، حيث قفز عقله في ظنون

كثيرة، وسأل نفسه: "هل قبضوا على الخلية، ومن الذي خرج على الطاعة وقام بالوشاية؟".

ونسج قصصاً كثيرة وتصورات لما تخيّل أنه حدث، وهو ما لم يحدث في الأساس، مثلاً: "من المحتمل أن منير وشهاب قاما بهذا الأمر، حتى ينقذا نفسيهما.. لا..لا.. هما لا يعلمان شيئاً ولا يمكن أن يبلغا عن جريمة قاما بها.. إذن هو مجلس القيادة الذي فعل ذلك.. هذا هو الاحتمال الأكبر".

ثرثرت مريم بكلام كثير، غير مرتب أو واضح، وما فهمه ميسرة منها: "أن خمسة أفراد ينتمون إلى جماعة دينية متزمتة هم من قاموا بجريمة الاغتيال"..

... لكن الوالدة لم توضّح لابنها بعض ما سمعت الناس يتناقلونه يوم إذاعة بيان وزير الداخلية وعرض المجرمين، بخصوص الهدف الرئيسي وراء ارتكاب الجريمة، "حيث إنهم كانوا يُنفّذون الحد على رجل يمارس اللواط الذي يُحرّمه الإسلام"، كما همست لها جاراتها.

لم تقل ذلك لميسرة بدافع الحياء، ولأنها واحدة من بعض سكان الرميلة (التي تعود جذور عائلة العربي إليها) الذين كانوا قد شككوا في الرواية الأخيرة، بدافع مصالحهم المتواضعة وما كانوا يتلقونه من هبات من السيد، حيث فسّروا الأمر على النحو التالي: "أن الدولة تريد تشويه صورة الرجل بعد موته، حتى تهدم كل ما فعله من خير للناس،

وحتى تُغيّر نظرتهم إلى عائلة العربي، وبالتالي يفقد ابنه الوحيد موقعه الاجتماعي والمادي في البلد".

"فقد باتوا يحاربون كل من لا يقف معهم"، قالت مريم سراً، وفي الوقت نفسه لاحظت أن ميسرة يجلس وكأنه غائب عن المكان، فقد انتبه لها فجأة عندما سألته:

- ما الذي يشغلك؟

انزعج ميسرة من السؤال، وحاول التماسك، فهو يعلم أن والدته قادرة على اكتشاف مشاعره الحقيقية.. "فهي الشخص الوحيد في العالم الذي بإمكانه اكتشاف متى يكون كاذباً ومتى يحكي بصدق"، قال لنفسه ثم ردّ عليها:

- لا شيء.. سأعود إلى الخرطوم لعدة أيام، ولن أتأخر.

- لن تتأخر، لقد كنت تقول مثل هذا الكلام من قبل، وتأخرت خمس سنوات.. هل ستتأخر عشر سنوات في هذه المرة؟

لم يكن مهتماً بالإجابة عن سؤال والدته، فهو لم يقرر بعد إن كان سيعود إلى الخرطوم، بعد الأخبار التي سمعها أم لا؟.. فقد كان عليه أن يتأكد ما الذي حدث بالضبط، فما أخبرته به الوالدة، لم يكن كافياً لتوضيح ما جرى.

لم يكن بالبيت جهاز تلفزيون أو راديو، ولم تكن لديه أي وسيلة اتصال بالخلية.. وحتى لو كان معه هاتف.. "فالاتصال في مثل هذه الظروف قد يُشكّل خطراً، فلربّما

كانوا يراقبون المكالمات الهاتفية.. عليه أن يتوخى الحذر وأن يحاول فهم الأحداث بطريقة أخرى".. استقر على هذا الرأي.

***

في سوق المدينة الصغيرة، قابل ميسرة مجموعة من الأهالي الذين فهم منهم أن السيد العربي اغتالته مجموعة من الشباب الذين رأوا فيه خارجاً على طاعة الله، باعتبار أنه شاذ جنسياً!..

قد كان هناك من الناس من يستطيعون الحديث بكل صراحة، ودون حرج.. وأمثال هؤلاء معظمهم من الذين لا يحبون العربي ولم يستفيدوا من هباته، وهم قلة.. ومنهم (حسين الحواتي) الذي يعرف ميسرة أنه من أشد سكان الرميلة كراهية للسيد العربي منذ سنوات بعيدة، فقد كان الحواتي يجمع الناس من حوله ساعة يزور العربي الرميلة ليُحرّضهم على عدم استقباله، باعتباره لصاً وشاذاً في الوقت نفسه.

جلس ميسرة مع الحواتي في حانوته الصغير الذي يبيع فيه أدوات الصيد مثل الشِباك والصنارات.

كان الحواتي لا يزال يحتفظ بشبابه رغم أن عمره تجاوز السبعين؛ قادراً على تقييم الأمور بطريقة منطقية بتقدير ميسرة.

سأل الحواتي ميسرة، بعد أن رحّب به:

- أين كنت طوال السنوات الماضية؟ ظننا أنك أصبحت صاحب سلطة وجاه مثل عبد الله العربي؟ (لم يصفه بالسيد).

يتكلم الحواتي، وهو يضحك بطريقة ساخرة.. لا شيء في العالم يقنعه، وليس راضياً عن أي من دروب الحياة الجديدة، يسأل ولا ينتظر الإجابة:

- تعرف يا ولدي.. وقد لا يعجبك مثل هذا الكلام أن العربي كان لابد أن يموت بمثل هذه الطريقة.. يقولون إن (ذبّه) كان مقطوعاً وقاموا بتعليقه على ستارة بالمكتب كان يفعل وراءها أعماله الخبيثة.. العياذ بالله..

لم يكن الحواتي في البداية شجاعاً لرواية كل ما يحدّثه به قلبه، لأنه يعرف جيداً أن ميسرة نال تعليمه على نفقة العربي، لا أحد في البلد يجهل هذا الأمر.. لكن مع التوسع في الحوار، فهم العجوز بعقله الوثّاب أن ضيفه غير راضٍ عن العربي ولا يحبه.

لم يقل ميسرة ذلك بوضوح، لكن الحواتي كان قد فهم كلّ شيء من خلال إشارات بسيطة في الكلام.

انفتح باب الشفافية بينهما، ووجد ميسرة أنه يسمع لأول مرة في حياته قصصاً يرويها الحواتي لم تكن معروفة له من قبل:

- هؤلاء الناس، كسبوا مالهم بالحرام، لقد كان والد العربي، أكبر تاجر عمل مع الإنجليز وخان أهل البلد، غشّهم

وهو يبدو أمامهم رجل دين محترماً، بينما كان في واقع الأمر أكبر دجال..

واصل الحواتي كلامه، بعد أن دعا ميسرة إلى فنجان من القهوة، أحضرته بائعة فلاتية كانت تجلس تحت شجرة قريباً من الحانوت:

- يا ولدي استغلال الدين كوسيلة للجشع والطمع والثراء، لم يبدأ اليوم.. فمنذ أكثر من قرن كانت الحياة تسير بناء على هذا الشكل في السودان.. تراهم يلبسون العمائم الكبيرة والجلاليب وهم يدّعون القرب من الله، كأن الله قد خلقهم وحدهم، ولم يخلق سواهم من البشر.. والمصيبة أن الناس يصدّقونهم.. هؤلاء المخادعون يخرجون على العوام بأشكال مختلفة من الادّعاءات.. في الماضي كانوا يتفاخرون بأنهم مشائخ وقادة طرق صوفية، واليوم يدّعون أنهم قادة أحزاب سياسية وحكومات..

يحكي الحواتي غير مهتم بالنتائج، ولا يبدو عليه الخوف، إن كان من سيسمعه سيرفض أم سيقبل ما يُقال.

سأله ميسرة، عن حكاية بدأها ولم يكملها قبل أن تحضر القهوة:

- لم تكمل لي قصة العربي مع أبناء عمك؟

ابتسم الحواتي، وعدّل من جلسته على الأرض وهو يصلح إحدى شباك الصيد، وقال ناظراً إلى عيني ميسرة بقوة، كأنه يريد أن يفهم أمراً ما:

- الكثيرون لا يعرفون سبب خلاف عبد الله العربي مع

أبناء عمومتي الحواتة.. الموضوع ببساطة يتعلق بتصرف غبي قام به العربي، حيث حاول النيل من أحد أولادهم.. الآن هو غير موجود في العالم ليحكي عمّا حدث.. لكن كبار السن من الحواتة يعرفون هذا الشيء.. كان قد أخذ الولد معه إلى الخرطوم بحجة أنه سيدخله المدرسة هناك ويُعلّمه، بعد أن أقنعهم بأن ابنهم ذكي، ويجب ألا يتركوه يضيع في الحياة مع صيد السمك وكلام فارغ مثل هذا.. وبعد شهرين كان الولد قد عاد إلى القرية، بالقصة التي فضحت العربي، واكتشفنا أن هدف الرجل لم يكن تعليم الولد، وأنه فقط رأى في وسامة الولد فرصة للنيل منه.. قذر (كررها الحواتي ثلاث مرات).

بصق على الأرض بقوة، قبل أن يسأل ميسرة ضاحكاً:

- يقولون إنك كنت تذهب إلى بيتهم في الخرطوم حيث كنت تدرس هناك أيام الجامعة، ووقتها ما شاء الله كنت لا غبار عليك.. إنشاء الله تكون نجوت بالعافية، ولم يلاحقك جنون هذا الملعون؟

كأن الحواتي كان يقرأ ما يجول في ذهن ميسرة، حيث من المؤكد جداً أنه لا علم له بما جرى قبل تخرج ميسرة في الجامعة بشهر واحد فقط.. لأنه لا أحد سوى ميسرة (نفسه) يعلم بما حدث في ذلك المساء البعيد، والذي تعود مشاهده في هذه اللحظة بالتحديد، كأن كل شيء حدث الآن قبل قليل.

***

عاد ميسرة بخياله إلى تلك اللحظات العصبية، ساعة وجد ذراعين قويتين تحيطان به، وتحملانه بقوة إلى السرير، ورجل يتأوه بشدّة..

لم يصدق الشاب الطبيب ما تراه عيناه، وفكّر أنه لربّما يحلم.. "لكنه الواقع!"..

وسرح يسأل ذاته - وقتذاك - أمام ثور هائج: "هل من الممكن أن يحدث هذا؟ أين رجل الدين والخير الذي يتحدّثون عنه؟!".

يتذكّر ميسرة الآن: أن الارتباك جراء حدث غير متوقع، جعله وقتذاك غير قادر على الحركة، في اللحظة التي داسه العربي بشدّة مبالغ فيها على السرير، ليخمد شهوته.. ساعة جرى ما جرى في الفيلا الخالية، الواقعة في المزرعة جوار النهر، والتي لم يكن يوجد بها أحد سواهما.

قبل أن ينزع العربي سروال ميسرة بعصبية، في محاولة لدسّ قضيبه - الذي كان مشدوداً - في مؤخرته.. استطاع الشاب الطبيب بمقاومة عنيفة، رغم جسده الواهن، أن يزيح العربي جانباً، في محاولة لمغادرة المكان.

لكن قبل أن يصل ميسرة إلى الباب الخارجي للصالة الكبيرة في الفيلا، رأى أن الرجل بات غير قادر على التماسك، حيث شرع وبكل جرأة في تفريغ طاقته الزائدة بالاستمناء، وبكل قوة.

خرج ميسرة مستاءً، ومشى على القدمين إلى أن أدرك

بعد نصف ساعة، الطريق العام، واستغل مركبة عامة ليعود إلى الجامعة.

... لكن ما حدث لم يغب عن ذهنه قط، حيث جعله يتحرك منذ ذاك اليوم بدافع الانتقام، خاصة أن الرجل خدعه، ساعة قال له: "سنذهب لقضاء بعض الوقت في الفيلا التي أملكها بجوار النيل الأزرق، وهي فرصة مناسبة لترى بعض التماثيل التي اشتريتها أخيراً من أوروبا والصين".. كان العربي يفهم أن الحديث في موضوعات الفن والنحت والإبداع، يدغدغ مشاعر ميسرة ويجعله يسرع في الذهاب معه، وكان يفهم أكثر أن الشاب لن يُشكّ فيه أبداً.

أكمل ميسرة شهره الأخير في الجامعة، ولكن بعد أن فقد المعونة المالية التي كان يتلقّاها من العربي لتعليمه، والتي يستلمها والده (نور الدين)، في الرميلة شهرياً.

... وإلى أن توفي والد ميسرة لم يكن يعلم السبب الذي جعل العربي يوقف المعونة، وبتفكير بسيط أدرك: "أن توقف العون جاء في آخر شهر لابنه بالجامعة.. وهذا يعني أن مهمة العربي قد انتهت".

غير أن نور الدين توقع لاحقاً أن يساعد السيد العربي، ابنه، في الحصول على وظيفة محترمة في أحد المستشفيات الخاصة التي بدأت في الظهور بالبلد، والتي يمتلك العربي بعضها.. لكن ذلك لم يتحقق البتة.

***

تأخر ميسرة في الإجابة عن سؤال الحواتي.. وبمجرد أن أفاق من سرحانه وجد أن حسين ينظر إليه، وهو يبتسم ابتسامة عريضة، بدت فيها أسنانه بيضاء؛ وبؤرتا عينيه لامعتين ومشرقتين..

لم ينطق بأي كلمة، فقد استمر في التحديق إلى جسد ميسرة المترهل والضخم، وهو يحدّث نفسه سراً: "سبحان الله.. هذا الولد تغير كثيراً.. جسداً وفكراً".

في نهاية اليوم كان ميسرة قد وصل إلى الخرطوم، بعد أن فهم: "أن الناس تتحدث عن نهاية لغز الجريمة بالقبض على المجموعة الدينية المتزمتة".

كان مرهقاً جداً، لاسيما من الناحية النفسية، فاسترجاعه لتلك الحادثة القديمة حرّك فيه حاسة الانتقام من جديد، بدرجة تفوق ما كان قبل عدة سنوات.

ورغم أن العقيد كان يفهم بطريقته التي اختلفت عن الماضي، أن ما قام به العربي قد يكون مُبرراً وفق تعاليم الكتاب التأسيسي، الذي يجعل من كل فعل مشروعاً ما دام يخدم شهوات الفرد ومصالحه، حتى لو كان هذا الفعل ضد الأخلاق والأعراف والضمير.. رغم كل ذلك.. كانت روحه مشحونة بغضب زائد ورغبة في المزيد من الانتقام، وفهم أن الخطوة الجديدة ستكون أكثر إيلاماً.

استلقى على الأرض بعد أن وضع الوسادة على حافة الحائط، ليشرع في نوم عميق، لأول مرة، منذ أن وقعت

حادثة اغتيال العربي وجريمة قتل أعضاء الخلية خالد والسر وهيثم.

رأى في الحلم أنه يسير في طريق أبيض مضيء من كل النواحي، ولم يستيقظ إلا قبيل منتصف الليل، على صوت مألوف له.. إنه فضل الله الذي لم يره منذ يوم واحد قبيل الاغتيالات.

29

في شارع شبه خالٍ من المارة، في آخر الليل، وتحت سماء صافية، لا سُحب فيها، كانت السيارة الواسعة الفخمة تسير بسرعة بطيئة، قبل أن تتوقف وينزل منها عبد الحفيظ، في اليوم الثاني لإعلان اختفاء محجوب العوض.

لم يكن فصل الخريف قد انتهى، غير أن لغة الطبيعة لا أحد يفهمها، فقد تهطل الأمطار بغزارة في المساء، وتتوقف في اليوم التالي، بحيث يعتقد الناس أن المطر لن يعود مجدداً.

على بعد أمتار قليلة، حيث توقفت السيارة، تبدو أضواء خافتة منبعثة من الفندق القديم الذي خضع لإصلاحات قبل عدة سنوات، حيث أُعيد ترميمه بطريقة كلاسيكية جعلت منه تحفة تقليدية بثوب حديث، على ضفاف النيل.

وصل عبد الحفيظ إلى الصالة الرئيسية بالفندق، حسب موعده مع اللواء طه، الذي كان جالساً في ركن قصي، في انتظار بدء الاجتماع الذي تمّ بطلب منه، بعد أن تلقى عبد الحفيظ مكالمة في العصر من اللواء أخبره فيها أنه يرغب في لقائه لأمر ضروري.

لم يكن عبد الحفيظ يتوقع أن يكون المتصل هو مدير عام الشرطة... لاسيما أنه غادر مكتبه في آخر مرة، بطريقة من المفترض أنها أغضبت اللواء.

لكنه عاد إلى التفكير: "أن التطور الذي حدث قبل يومين بإعلان الوزير القبض على المجرمين، وإشادته بالشرطة ومديرها، ربما يكون حافزاً لتغيير نظرته في اللواء.. فقد كان تقديره للأمور خاطئاً على ما يبدو".

استغرب أن يطلب منه اللواء الاجتماع معه في مكان مكشوف: "خاصة أن أكثر الأمور الدقيقة في مثل هذه الظروف تتم مناقشتها في أماكن سرية، بحيث لا يمكن لأحد من رجال الأمن أو الجواسيس المنتشرين معرفة شيء". لكن بالنسبة إليه شخصياً، لا فرق، ولا يخاف من أحد ما أو أي جهة كانت، هكذا يعتقد شخصياً.

وضع عامل الفندق عصير البرتقال على الطاولة، وأشار إليه اللواء بتجهيز العشاء المتفق عليه، رغم اعتذار عبد الحفيظ بأنه لا يرغب في الأكل.

... لكن اللواء أصرّ قائلاً:

- دع هذا العشاء يكون بمناسبة التكريم الذي سأحوزه من رئيس الجمهورية.

الطريقة التي تحدّث بها اللواء، فهم منها عبد الحفيظ بشكل مباشر، أن الهدف من الاجتماع ينحصر في طلب سيتقدم به اللواء بعد العشاء، يتلخص في التالي: "ألا ترى

من الضروري سيد عبد الحفيظ أن تقوم بالواجب تجاهي بعد نجاحي في القبض على قتلة والدك؟".

وسأل نفسه سراً: "ترى ما المبلغ الذي سيطلبه؟.. هذا بالإضافة إلى مشروع المعمل الجنائي الخاص.. يبدو أن المسألة سوف تكبر لتشمل قائمة من الطلبات، فالرجل على ما يبدو يريد قبض ثمن الإنجاز الذي حققه".

تخيّل عبد الحفيظ من خلال تفكيره الأخير أنه استطاع فهم نفسية الكبار المتنفذين الذين يقودون الحياة في البلد.. غير أن الواقع كان أكثر تعقيداً من الأفكار القليلة التي كوّنها عن الناس في الشهور الماضية، منذ مقدمه من الولايات المتحدة إلى مقتل الوالد، إلى هذه اللحظة.

... لم يكن يدري أن اللواء يحمل في ذهنه حبكة مختلفة جداً، فقد قال له:

- تعلم سيدي أننا قد نختلف أو نتفق بناء على الظروف.. وفي المرة الأخيرة أعلم أنك خرجت من مكتبي غاضباً.. لكن يجب أن تفهم ما حدث، لكي تكون نظرتك بشأني دقيقة.. وتريث قليلاً قبل أن تذهب بتفكيرك إلى أنني أتحدث عن تعاوننا المشترك في مشروعات تحدّثنا عن جزء منها من قبل. هذا الاجتماع لا علاقة له تماماً بهذه الأمور، حيث إنني سأتحدّث معك في أمر جد خطير وهام، لم يسبق التطرق إليه.

إلى أن شرع اللواء في الكلام، لم يكن بمقدوره أن

يحدد: "هل ما يقوم به سيخدمه أم لا؟.. وهل يستمر في الخطة التي فكّر فيها وبدأ تنفيذها توّاً، أم أن عليه أن يتراجع؟".

كان ذهنه مشوشاً بعض الشيء، لذا رشف جرعة من عصير البرتقال، قبل أن يتنفس بعمق، ويتنهد قائلاً:

- دعني أكن أكثر صراحة معك.. وصدقني أنني أكلمك بدافع محبة لك وشفقة على مستقبلك، فوالدك كان من الشخصيات المتنفذة التي تدرك الكيفية التي يلعب بها الكبار، أما أنت فلا تزال صغيراً على هذا الواقع الجديد.

تغيّرت تعابير وجه عبد الحفيظ مع العبارة الأخيرة التي تفوّه بها اللواء، فقد رأى فيها نوعاً من الاستفزاز الواضح لمشاعره "أن يصفه بأنه لا يزال صغيراً". لكنه آثر التماسك، حتى يسمع ما الذي يريد طه أن يقوله بالضبط.

واصل اللواء معتذراً، حيث لاحظ التغير في تعابير وجه عبد الحفيظ:

- سيدي عفواً لإزعاجك.. لكن عندما يتحدث الإنسان بصدق، قد يكون ذلك مؤلماً للطرف الآخر.. دعنا من هذا.. وسأختصر لك الأمر..

- تفضل لا عليك؟

- ثمة لعبة كبيرة تحاك، أكبر منك ومني، لهذا كان لابد من هذا اللقاء معك، لأن يدي مع يدك تستطيعان معاً أن تفعلا شيئاً.

لم يفهم عبد الحفيظ ما الذي يتحدث عنه اللواء بالضبط!، لكنه لم يستعجل طلب التوضيح، وتركه يكمل دون اعتراض:

- لو كان أي إنسان آخر مكاني، لما أقدم على هذه الخطوة.. قد تُفسّر الأمور بناء على قانون المصلحة أو أي أمر آخر.. ولكن ما يهمني هو الحقيقة، لا غير.

صمت اللواء قليلاً، قبل أن يواصل:

- أعتقد أنني أربكتك كثيراً لأنني لم أدخل الموضوع بعد.. ذلك لأن ما سأحكي عنه قد لا تأخذه مأخذ الجِد في البداية.. غير أن ما أطلبه منك هو عدم الاستعجال، خذ الوقت الكافي للتفكير فيه، قبل أن تتخذ أي قرار بالتعاون معي.

فقد عبد الحفيظ أعصابه هذه المرة، وسأل بغضب واضح:

- أي تعاون تعني؟.. حتى الآن لم أفهم ما الذي تتحدث عنه!!.. عموماً إذا كان لديك ما هو مهم فتفضل بقوله أو دعني أذهب الآن لأنام، لدي ما يشغلني في الصباح.

كاد أن يقف، لكن اللواء أمسك بيده قائلاً:

- تفضل بالجلوس لن تذهب قبل أن نتعشى معاً.

لا يزال اللواء متردداً في كيفية الدخول في الموضوع، وفي الوقت نفسه لم تكن لديه الثقة الكافية بأن عبد الحفيظ سوف يأخذ كلامه بشكل جاد.

قال لنفسه سراً: "صحيح أنني أعمل لمصلحتي.. لكن إذا ما فكّر عبد الحفيظ منطقياً فسوف يجد أن مصلحته تقتضي أيضاً أخذ ما سأقوله بجدية، وسيتعاون معي".

الموضوع الذي يُفكّر اللواء في طرحه على عبد الحفيظ، كان قد بدأ الانشغال به منذ ليلة أمس، عندما رأى أن اختفاء مدير عام الأمن قد يربك مجرى القضية، خاصة أنه الشخص الوحيد في تقديره: "الذي يعلم الخطوط كافة، لاسيما التداعيات الأخيرة"، التي وصل اللواء إلى يقين غير مؤكد بشكل تام: "أنها مجرد لعبة تمت حياكتها بهدف تضليل الرأي العام".

قرر اللواء أنه: "يجب أن يُعلِم عبد الحفيظ بالشكوك التي يحس بها"، ورأى: "أن ابن القتيل، سوف يحترم منه هذا التصرف النبيل، وسيجعله مقرباً منه في الوقت نفسه".. واستبعد: "أن يخسر هو شخصياً أي شيء، فإذا اتضح أن المقبوض عليهم لم يقوموا بالجريمة، وتمّ القبض على القتلة الحقيقيين، فسوف يكون قد كسب موقعه عند عبد الحفيظ، وهذا هو الأهم، إذا ما تهددت مكانته بأي شكل كان في الحكومة.. فمن الواضح أن العمل معهم لا مستقبل فيه"، توصل اللواء إلى النتيجة الأخيرة.

جلس عبد الحفيظ مرة أخرى في انتظار ما سيقوله اللواء، الذي واصل حديثه:

- سيد عبد الحفيظ، لعلك لا تعرف الطريقة التي تدار

بها الأمور في البلد.. لكنني بحكم خبرتي بالناس هنا، دعني أخبرك بما يختلج في صدري.. رغم أن ما سأقوله قد يُفهم ضدي.. لكنني أثق بك، وأن كل ما سيدور سيظلّ بيننا.

- ثق بأن كل ما سيقال لن يخرج لأي طرف آخر.

- بالنسبة إلى المجموعة التي تمّ القبض عليها.. لديّ شك كبير أن هؤلاء الشباب ليسوا هم الذين قاموا بجريمة اغتيال والدك.

انتبه عبد الحفيظ، فهو لم يتوقع مثل هذه الإفادة قط، وكان قد ظنّ أن القضية في طريقها إلى النهاية، خاصة بعد أن تلقى اتصالاً قبل يومين من وزير الداخلية الجديد، يخبره فيه بأن العدالة ستأخذ مجراها بعد القبض على القتلة.

قاطع عبد الحفيظ اللواء ولم يتركه يكمل كلامه:

- تعني أن هناك خديعة ما تتم؟

- نعم.. ويجب أن تعرف أيضاً أنني شخصياً لا علاقة لي بما ورد في بيان الوزير..

- ماذا تعني بالضبط؟

- أعني أنني فوجئت بورود اسمي في لائحة الشرف، وكوني قمت بعمل خارق للقبض على القتلة.

اندهش عبد الحفيظ لما سمعه من اللواء، ودخل حالة من الحيرة: "هل يُصدّق ما يسمعه أم لا؟.. فخلال الشهور القليلة الماضية، والأسبوعين الفائتين بالتحديد، اكتشف أن الناس هنا تتعامل بأكثر من وجه، ومن الصعب على الإنسان

أن يثق بالآخر، خاصة أن الجميع يتحركون بعامل المصلحة الذاتية البحتة، حيث سرعان ما يتحول الأصدقاء لأعداء، أو العكس".

روى اللواء طه لعبد الحفيظ بكل مصداقية، مشاعره الحقيقية، وتحليلاته التي توصل إليها عن القضية، من لحظة سماعه البيان في التلفزيون إلى هذه اللحظة، وأكد: "أنه حتى آخر مقابلة تمت بينهما لم يكن لديه أي معلومات"، مُلخّصاً التفاصيل التي رواها بالقول:

- ثمة لعبة ما، لا أدري ما الهدف منها!، لكن سأقوم بالاستقصاء اللازم لمعرفة ما يدور بالضبط.. وقد زاد من تعقيد الأمور اختفاء محجوب العوض، مدير عام الأمن.

دخل عبد الحفيظ حالة من التشتت الذهني، غير قادر على الكلام أو التصرف. ولدقائق ظل الرجلان صامتين، قبل أن يشير عامل الفندق إلى اللواء قائلاً بأن العشاء جاهز.

عبد الحفيظ اعتذر بشدة عن العشاء ليقرر الخروج من الفندق، الأمر الذي جعل اللواء يقرر المغادرة هو الآخر، دون أن يتناول العشاء.. لكنه حمل همّ الفاتورة الكبيرة لوجبة لم تؤكل، وتأخر قليلاً مُدّعياً الانشغال بالذهاب إلى الحمام ليجد أن عبد الحفيظ قد دفع فاتورة العصير والعشاء الذي ظلّ في مكانه.

في الشارع، أمام بوابة الفندق، سأل عبد الحفيظ اللواء سؤالاً مباشراً:

- سعادة اللواء، لقد سمعت كل ما قلته لي.. لكنني لم أفهم مقصدك الرئيسي!.. تحدّثت في البداية عن التعاون بيننا.. ما هو المطلوب مني أن أتعاون فيه معك؟

- أن تثق بي ولا شيء آخر، حتى أستطيع أن أقوم بدوري البطولي فعلاً.. لأن ما يحدث الآن يشعرني بالألم أنني دخلت في دور مزيف.. سنعود إلى الجلوس مرة أخرى.

لم يكن في إمكان عبد الحفيظ التأكد من مصداقية اللواء، في الوقت الذي كان اللواء (نفسه) غير قادر على فهم ذاته: "هل يتحرك في أقواله وتصرفاته هذه بصدق نابع من القلب أم أنه يتحرك بدافع الانتقام؟ في محاولة لاستغلال مركز عبد الحفيظ للتدخل بشكل ما في القضية وجعل مجريات الأحداث تصبُّ في مصلحته بشكل حقيقي، وغير مزيف!".

الإجابة التي لم يتوقعها اللواء من عبد الحفيظ، كانت:

- إذا كان لديك أي موضوع آخر غير قضية الوالد، فأنا مستعد للجلوس معك مرة أخرى.. أما إذا كنت ستعيد ذات الأسطوانة فمن الأفضل أن تبتعد عني.

قال ذلك بكل ثقة ودون انفعال، الأمر الذي أزعج اللواء كثيراً، ورأى أنه كما لو ورّط ذاته دون أن يدري، حيث تحدّث سراً: "لقد كنت غبياً في طرح هواجسي على هذا الشخص.. أما كان من الأجدى أن أتريّث قليلاً.. الآن أضع

نفسي في موقف حرج، ولا أدري ما الذي يمكن أن يتصرف به هذا الرجل؟!".

كأن عبد الحفيظ كان يقرأ ما يفكّر فيه اللواء، فقد قال له دون أن يودعه:

- لن أصدق أحداً.. كلكم مجرمون.. تبحثون عن وسائل تافهة لجمع المال.. لقد ذهب والدي، لكن أن أقع أنا ضحية لتلاعبكم، لن يحدث هذا.

***

ظلّ اللواء واقفاً في مكانه لدقائق، وهو يرتجف وخائف.. شعر بأنه استعجل كثيراً في تصرّفه.. وحدّث نفسه: "كان ينبغي أن أفهم هذه الشخصية أولاً قبل أن أدخل في عرض وطلب معها، حتى لو كنت أتحرك بمشاعر صادقة.. يبدو أن العالم بات لا يؤمن بفكرة العاطفة.. كل ما يقال وما يسمع وراءه مصلحة ما.. هذا الدرس الذي يجب أن أتعلمه الآن".

عادت إلى اللواء تصوراته الذهنية التي شكّلها في آخر مرة قابل فيها عبد الحفيظ عندما زار مكتبه قبل البيان المشؤوم، كان قد قال لنفسه وقتها: " هذا الشاب رغم ما يبدو عليه من بساطة إلا أنه سبق أن رفض عرضاً من الحكومة بتولي منصب وزاري، كما أنه مدعوم من جهات خارجية في عمله وخطواته".

أدرك اللواء الآن: "أنه كان غبياً بالفعل، فالطرف الذي يتعامل معه ليس بهذه السهولة، وقد كان الموقف الأول كفيلاً بأن يُفهِمه ذلك، لكنه للأسف لم يفهم".

أدار محرك سيارته، متحدّثاً بصوت عالٍ مع نفسه، دون أن يدري ما الذي كان يقوله أو يصرخ به.

بات اللواء يعيش بإحساس يحدّثه بأن الأيام والشهور القادمة، ربما تكشف الحقيقة، ووقتها سوف يجد أنه دخل في موقف لا يحسد عليه.. فإذا كان اختفاء العوض يُمثّل انتصاراً بالنسبة إليه، كما يتخيل، إضافة إلى التقدير الذي سيناله من الرئيس، إلا أن مشاعره كانت مرتبكة بعد الموقف الأخير.. ولذا كان يقود سيارته بسرعة جنونية في شوارع الخرطوم الخالية من البشر، وقد تعطّل عقله الذي تاه كثيراً في الحياة.

حدّث نفسه: "هل كان من الضروري أن تقودني الحياة إلى هذه المتاهات؟".. لكنه عاد إلى القول: "لو أنني كنت أتعامل بشفافية وببساطة لخسرت كل شيء.. ولما كنت الآن في الموقع الذي أحتله".

استرجع قائمة من زملائه القدامى الذين عبث بهم الزمن ورمى بهم في مزبلته، وفكّر أنه: "لم يكن أذكى منهم، فقط كان يدرك أسرار اللعبة منذ البداية.. تلك التي تستدعي شروطاً عديدة ومتناقضة، وفي كل مرحلة على اللاعب أن يُغيّر شروط اللعب، سواء برغبته أو بما تمليه الظروف من حوله".

إلى أن خرج من مكتب وزير الداخلية الجديد، كان اللواء يظنُّ أنه قد خسر اللعبة، وبالتالي يجب عليه أن يُجهّز نفسه لمغادرة المنصب.. غير أن كل الأشياء انقلبت بغير ما كان يتوقع، لكن يبدو أن اللعبة لا تزال في بداياتها، عليه أن ينتظر ما الذي سوف يحمله الغد.. وإذا رغب في قول ما يشعر به داخلياً فلن يسمعه أحد، هذا ما توصّل إليه.

أوقف السيارة بجنون أمام منزله، بعد أن فهم: "أن الأشياء في هذا البلد تتحرك بشروط صعبة على المرء مهما كانت خبراته أن يدركها جيداً.. الأمر المطلوب لكي تستمر الحياة، الصبر.. فقط الصبر لا غير، وعدم الخوض في مغامرات جديدة"...

30

تلقت الشرطة بلاغاً من عابرتي سبيل، يفيد بأنهما عثرتا على ثلاث جثث في منطقة مهجورة قريباً من مزرعة على الطريق البري الذي يصل الخرطوم بمدينة ودمدني التي تقع إلى الجنوب من العاصمة الخرطوم.

لم يكن اللواء طه قد نام جيداً، عندما رنّ هاتفه الجوال مبكراً كغير العادة، في السادسة والنصف صباحاً، حيث أعلمه مدير مكتبه بالخبر.

بصعوبة غادر اللواء السرير، دون أن يستحم، فقط نظّف أسنانه بالفرشاة والمعجون، ثم اتّخذ طريقه إلى الموقع المحدد.. حيث وصل بعد خمس وثلاثين دقيقة، ليقف على الجثث الثلاث التي يبدو أنها حديثة، رغم تعفنها وانتفاخ كل منها مرتين أو أكثر عن الحجم الطبيعي.

أسرع رجال الشرطة الجنائية بحمل الجثث إلى سيارة خاصة وانطلقوا بها إلى مشرحة مستشفى جامعة الخرطوم، في حين غادر اللواء إلى مكتبه، في انتظار النتائج الأولية للتحقيقات مع الشخصين اللذين اكتشفا الجثث، وهما: امرأة في الخامسة والستين تقريباً برفقة حفيدتها التي هي دون العشرين بقليل.

... كانتا قد اشتمتا رائحة العفونة في العصر، والتي تزايدت مع المساء، مع ارتفاع درجة الحرارة، وفي منتصف الليل ازداد الوضع سوءاً عندما أصبحت الرائحة لا تطاق.

في الفجر تحرّكت المرأة وحفيدتها، حيث كانتا من العرب الرُحل الذين يقيمون في خيمة من الوبر قريباً من المكان، تمّ تركيبها قبل عدة أيام.

بحثتا عن مصدر الرائحة، إلى أن فوجئتا بالجثث، وفي البداية ومن بعيد ظنتا أنها جثة واحدة حيث كانت يد مشوهة قد أطلت من الطين المبتل، غير أنهما بمجرد أن تقدمتا قليلاً كانت أمامهما ثلاث جثث، بعد أن تحرك الطين بفعل مياه المطر، فأظهر الجثث التي لم تكن مدفونة على عمق كبير.

بالطبع شعرت الجدة والحفيدة بالغثيان والخوف، لكن ضميرهما أمليا عليهما أن تبحثا عن أقرب نقطة شرطة.

من حُسن الحظ أن عساكر من الشرطة كانوا يعبرون الطريق البري، أوقفوا السيارة - على عكس العادة في التجاوب مع العامة- بعد أن رأوا إلحاح العجوز التي كانت تشير إليهم على جانب الطريق، بشكل يدلّ على أن ثمة أمراً ما، ويجب أن يؤخروا رحلتهم لبعض الوقت.

***

لم يكن اللواء قد وضع أي اعتبار في ذهنه، أن هذه

الجثث قد تكون لها علاقة باغتيال السيد العربي.. ففي كثير من الأحيان يتلقى خبراً من أعوانه بوجود جثث مهملة في أماكن مختلفة، يكون أصحابها ضحايا جرائم سرقة أو قتل أو زنى، أو صراعات أهلية في أطراف العاصمة.

... وفي العادة يتلقى الخبر دون أن يُسارع بنفسه لمتابعة الجثث والتحقيقات حولها، حيث يظلّ ذلك عملاً روتينياً. ويدرك أنه: "لو كان يتابع كل شيء لما وجد الوقت الكافي للتفرغ للصراعات الكبيرة التي تحتاج تركيزاً وجهداً، أكثر من العمل الروتيني اليومي".

"ما السبب الذي دفعه في هذا الصباح ليغادر السرير بصعوبة، ويُسرع لمتابعة البلاغ بنفسه؟"..

لم تكن لديه إجابة محددة.. ولم يكن قد فكّر في هذا الأمر إلا بعد أن دخل مكتبه، حيث خطر في باله السؤال السابق، غير أنه لم يجهد عقله كثيراً واكتفى بالتبرير لنفسه بـ: "أن إحساسه منذ ليلة الأمس بالخوف، وأن موقعه في خطر، نتيجة التداعيات الحاصلة في الأيام السابقة، هو ما دفعه بشكل لاإرادي للتحرك شخصياً للوقوف على بلاغ الجثث الثلاث".

حدّث نفسه: "أحياناً يجد الإنسان نفسه يفعل الكثير من الأشياء دون أن يُفكّر بدقة في الهدف.. حيث تدفعه مشاعره الخفية للفعل".

وصل اللواء إلى النتيجة التالية: "على المرء أن يثق بعقله الباطني وقلبه أكثر من ثقته بعقله".

تناول أول رشفة من قهوة البن الساخنة من يد (تريزا) الحبشية، التي كانت إحدى الشخصيات المعروفة في مقر الشرطة منذ أكثر من عشرين سنة، وهي سيدة متقدمة في السن، يراها من يعرفونها: ذات ذكاء حاد في كشف مشاعر من حولها، خاصة إذا ما كانوا ممن خَبرتهم لسنوات طويلة جداً، كاللواء طه.. ورغم أن بإمكان تريزا أن تحصل على الجنسية السودانية بكلمة صغيرة تقال لأي من الضباط الصغار في المبنى الذي صارت جزءاً من هويته، إلا أنها ظلت تفتخر دائماً بأصلها الحبشي، وأن جدها هو أبرهة الذي مات في حادثة الفيل.

أراد اللواء ممازحتها، كالعادة، ساعة رشف القهوة التي وجدها رائعة:

- تريزا.. هل كان أبرهة يحبُّ القهوة؟

هذه المرة لم تجب عن سؤاله، حيث نظرت إليه بقوة، وقالت:

- ما بكَ اليوم؟.. كأنك تعاني شيئاً ما؟

- لا شيء.. أنا بخير.

- صدقني أنا أعرفك جداً يا سعادة اللواء..

كانت تنطق بكلمة سعادة اللواء في السابق وهي تبتسم، لكنها هذه المرة كانت عابسة الوجه.. واصلت تقول:

- لا تحاول أن تخفي مشاعرك، لديك أمر ما يُحيّرك.. يقولون إنهم عثروا على ثلاث جثث اليوم، هل يشغلك هذا الموضوع؟

كان اللواء دائماً يجد حواره مع تريزا صادقاً، بعكس الكثيرين من المحيطين به، ذلك لأنه يراها: لا تفشي السر أبداً، وساعة يكون النقاش بعيداً عن المزاح والضحك، تكون أكثر جدّية من أي إنسان آخر.. ردّ عليها:

- بالفعل ما يحيّرني هذا الموضوع.. وجدت نفسي أنني أسرع من البيت إلى مكان الجثث، لا أفعل مثل هذا التصرف في معظم الأحيان.

هنا ضحكت تريزا، وقالت:

- أنت خائف من أمر ما!! لا تُخفِ شيئاً، فضفض حتى ترتاح قليلاً.

"هناك أشياء يكون من الصعب قولها لتريزا، لكن يمكن الإشارة إليها بطريقة غير مباشرة"، قال اللواء لنفسه قبل أن يجيب:

- لا أدري.. لدي إحساس بأنني لن أجلس على هذا الكرسي طويلاً.

- لا تقل ذلك.. الرئيس سيكرمك على إنجازك في قضية السيد العربي.. ماذا تريد بعد ذلك؟

قالت تريزا، وفي دخيلتها كانت تشكُّ في أن اللواء قد قام بهذا الإنجاز فعلاً، وكان اللواء في الوقت ذاته يُفكّر بأن

تريزا تُحدّث نفسها بالكلام ذاته: "أنه لم يحقق أي إنجاز.. فهي تعرف تفاصيل في مبنى الشرطة، لا يعرفها بعض كبار الضباط".

ردّ عليها:

- لا تدعيني أطيل الكلام، ولست أنت من الناس الذين يجهلون الأشياء.. باختصار أنا متعب نفسياً في هذا الصباح، ولا أعرف السبب.

أخذت تريزا الفنجان الفارغ، وقالت وهي تغادر مكتب اللواء:

- إحساسك الذي لا تراه يقول لك بأن لهذه الجثث الثلاث علاقة باغتيال السيد العربي.

أغلقت الباب وراءها لتترك اللواء في حالة من الدهشة، وهو يسأل نفسه بصوت مسموع: "لماذا لم يكتشف سر هذا الإحساس من قبل؟".. وبدا له كما لو أنه كان يرى هذا الإحساس أو يتلمسه دون أن يكون شجاعاً لإخراجه من مشاعره المستترة إلى مشاعره الخارجية.

"كيف رأت تريزا ذلك؟" سأل نفسه، وقام من كرسيه يتمشى في المكتب الواسع جيئة وذهاباً، في حين كانت مشاعره تذهب وتجيء، هي الأخرى، بحركة بندولية لا مرئية، يحس معها كما لو أنه يقترب من نقطة فاصلة وحاسمة في حياته.

وصل إلى نتيجة ذاتية: "إذا صَدَقَ كلام تريزا فيبدو أن

الله قد أراد مكافأتي على ما قمت به من واجب ليلة أمس.. يبدو أن صدقي مع ذاتي ولو لدقائق بإخبار عبد الحفيظ بحقيقة ما أحس به، كان له مفعوله عند الله، لذا أراد أن ينتصر لي".

التفكير الأخير جعل اللواء يشعر بطاقة زائدة وقوة إرادة على المواجهة والصدام، ولكن بنفس صادقة وغير خائفة؛ هذه المرة.

قال لنفسه بصوت مسموع: "عليّ أن أستمر في المعركة بكل صدق ولن أخسر.. ولو خسرت فربّما كانت هذه النتيجة نفسها التي كنت سأصل إليها في حال استمراري على الطريقة القديمة. التدليس والخداع".

قبل منتصف النهار، حدث تطور غير متوقع بالنسبة إلى اللواء طه، فقد تلقى مكالمة من معاون مدير الأمن، شمس الدين عمر، الذي كان الشخص الوحيد، على حد علمه، الذي يعلم باللعبة التي قام بترتيبها محجوب العوض.

المكالمة عبارة عن تهديد مغلف:

- يجب إغلاق ملف الجثث الثلاث فوراً.

لم يُقدّم شمس الدين أي معلومات إضافية إلى اللواء، الأمر الذي أربك طه وجعله يشكُّ في: "أن ما كان يعتقده قد يكون صحيحاً بدرجة كبيرة، فمن خلال هذا التهديد لا يمكن فهم غير أمر واحد، أن محجوب العوض الذي لا

يزال مصيره مجهولاً، ومعاونه شمس الدين يعلمان جيداً أنهما يقومان بلعبة ما".

وقع اللواء في حيرة، لكنه قرر أن يمضي بطريقته الجديدة في تقييم الأمور: "أن يترك الأحداث تتحرك وفق هواها، مع احتفاظه بالصبر والاعتماد على مشاعره اللاواعية، وقلبه لا غير".

***

من جهته علم شمس الدين تماماً بأن الجثث الثلاث التي تمّ العثور عليها صباح اليوم، هي للشباب أنفسهم الذين أثبتت تحريات الأمن احتمال تورطهم في حادثة الاغتيال.. والذين جرت متابعتهم منذ أقل من شهر من وقوع الحادثة.

لم يكن هدف المتابعة يتعلق بعلم الأمن بأن الشباب سوف يُقدمون على اغتيال العربي، حيث كان للعوض هدف آخر يتعلق بتنفيذ مخطط يخصُّ أحد الكبار من الذين يتعاونون مع الأمن، يتلخص في محاولة استغلال هؤلاء الشباب المقربين من العربي وتجنيدهم لمصلحة الأمن بهدف الحصول على معلومات تجارية سرية تتعلق بصفقات كان العربي من المفترض أن ينجزها، لكنه ذهب قبل أن يكتمل المشروع.

الطرف الكبير الذي تمت عملية المراقبة وخطة التجنيد التي لم تكتمل؛ لمصلحته، كان على صراع قديم مع العربي،

منذ أن كان أحد الأطراف المشاركة في الحكومة.. وكانت لديه نية مبيتة للقيام بمحاولة قد تنجح، يكون نتيجتها خسارة مالية فادحة للسيد العربي، بعد أن تتوافر معلومات كافية عن الصفقات السرية التي سوف يقوم بها العربي لمصلحته مع إحدى الجهات العاملة في مجال غسل الأموال داخل القارة الأفريقية.

... وقد حبك الطرف الكبير، الخطة، مع العوض، والتي أطلع عليها شمس الدين لاحقاً، حيث أنه من الموثوق بهم لدى مدير عام الأمن.

كان العوض يسمي هذا الطرف الكبير باسم رمزي (ل.س) دون أن يشير إلى اسمه في الملف السري الذي يخصُّ الخطة، والذي هو الآن أمام مكتب شمس الدين.

في الملف مجموعة من الصور التي تم التقاطها من كاميرا، من على البعد، لخالد وهو يركب إلى جوار السيد العربي في السيارة.. وصور أخرى لهما، وهما يدخلان الفيلا القائمة إلى جوار النهر في المزرعة الخاصة بالعربي.

لم يبذل شمس الدين كثيرَ جهدٍ ليكتشف أن خالد (نفسه) هو أحد أصحاب الجثث الثلاث التي يجري تشريحها الآن، والتي تمّ تصويرها بناء على طلبه(أي شمس)، بواسطة أحد أفراد الأمن المقربين له، وذلك قبل نصف ساعة بالضبط.

في البداية لم يكن شمس الدين يتوقع أن يكون للجثث علاقة بملف الخطة، لكن بمجرد أن وصلت إليه الصور،

ورأى الصورة الأولى منها، أسرع لإخراج الملف ومراجعة مجموعة الصور التي يتضمنها مع صور الجثث.

إلى أن طلب متابعة موضوع الجثث عن بعد، ودون حدوث صدام مع الشرطة، لم يكن في باله أدنى تصور بأنه ربما تكون هناك علاقة ما، بين ملف خطة (ل.س) وهذه الجثث، فقط كان يتحرك بحافز حالة الانتباه والصراع التي دخلها الأمن ضد الشرطة، منذ شهور.. تلك الحالة المترتبة على هدف شخصي لمحجوب العوض ضد صديقه القديم اللواء طه، هدف طابعه الانتقام فقط.

كان شمس الدين يعلم بأنه يقوم بعمل يصبُّ في مصلحة العوض الشخصية، لكنه كان يؤدي عمله بإخلاص باعتبار أن مصلحته في التمسك بهذا الرجل القوي، حتى في غيابه.. والذي كان اختفاؤه مفاجئاً وغير متوقع، بعد الاجتماع الأخير بينهما.

حسب المعلومات المتوافرة لشمس الدين في الملف، يعلم بأن هؤلاء الشباب الثلاثة الذين تمت مراقبتهم من قبل الأمن، اختفوا بعد حادثة الاغتيال، ولم يُعرفْ أين اختفوا!.. الأمر الذي جعل العوض يشكُّ في احتمال تورطهم في الحادثة بشكل ما.

"لكن مع العثور على جثثهم، يتعقد الأمر!!"، فكّر شمس الدين، وأضاف: "إذا كانوا قد قاموا بالجريمة، فمن الذي قام باغتيالهم؟!".

أجاب بنفسه: "ربما هم ضمن مجموعة ما، تخشى أن تخرج الحقيقة ذات يوم عن طريقهم، فقررت التخلص منهم، بعد أن استعانت بهم واستغفلتهم في تنفيذ العملية"..

وفكّر مرة ثانية: "الاحتمال الثاني أنهم لم يُنفّذوا الحادثة، حيث أن هناك أطرافاً أخرى هي التي قامت بالاغتيال، وكان الشباب الثلاثة لديهم علم بما جرى أو شاهدوا جزءاً من العملية، لذا قررت الأطراف الأخرى التخلص منهم"..

... رأى شمس الدين أن الاحتمال الثاني هو الأكثر واقعية والأقرب للحقيقة.

***

اللواء في مكتبه، وهو لا يزال في حيرته، كان قد وصل بقلبه دون أدلة ملموسة بالعقل إلى أن ثمة علاقة ما، بين اغتيال العربي والجثث الثلاث، خاصة بعد أن سمع تهديد معاون مدير الأمن..

... وراودته فكرة الاتصال بعبد الحفيظ: "عسى أن يتدخل عن طريق الاتصال بالكبار، وحتى لو اقتضى الأمر اتصال عبد الحفيظ برئيس الجمهورية شخصياً، لإنهاء هذه الشكوك".. التي بات اللواء يراها مهزلة هو أحد ضحاياها.

لكنه بعد أن ضغط على نصف أرقام الهاتف الجوال لعبد

الحفيظ، قام بإغلاق الخط، وقرر: "أن حُسن التصرف يقتضي التريث"، أيضاً عليه: "أن يبذل جهداً مضاعفاً في التحريات، بهدف أن تكون إفاداته منطقية وبأدلة.. لأن جملة ما يُفكّر فيه الآن لا يتعدى مجرد هواجس ذاتية، قد تكون مقنعة بالنسبة إليه، لكن لأي طرف آخر، ستكون محاولة الوصول لقناعة مسألة صعبة جداً".

قبيل العصر وصلت إلى اللواء إفادة مهمة جداً، تتعلق بنتيجة طلب منه، بالبحث في موضوع معين، من قِبل رجال المعمل التشريحي.. كانت المعلومة ذاتها قد وصلت بشكل آخر إلى شمس الدين، فالأمن كان يعرف كيف يتغلغل وسط الشرطة ويسرق جهودها.

تقول المعلومة التي هي عبارة عن تفسير للموضوع المعين الذي طلب اللواء البحث فيه: "من الواضح أن الشباب الثلاثة كانوا منحرفين جنسياً، ويبدو ذلك واضحاً من القراءات التشريحية المعملية".

كانت أمام مكتب اللواء صورة غير واضحة المعالم تشير إلى فتحة الشرج في إحدى الجثث الثلاث، ويبدو أنها من خلال الملاحظة الدقيقة: واسعة جداً ومتورمة الأطراف.

... وقد أوضح مندوب المعمل الجنائي للواء:

- من الواضح أن حادثة الاغتيال تتعلق بجريمة انحراف جنسي.. لواط على وجه التحديد.

- لكن هل من السهل تحديد هذا الأمر، فحسب ما ذكرتم أن تاريخ الجثث يتجاوز الأسبوعين؟

- يسهل تحديد ذلك.. لدينا طرق علمية حديثة في المشرحة الجامعية.

وصل اللواء إلى نتيجة ذهنية لكنها قد لا تكون صحيحة إلى مدى كبير، إلى أن يتحقق لاحقاً، قال لنفسه سراً: "هذه الخطوة تُقرّب بين اغتيال العربي وهذه الجثث.. وتحلّ لغز القضيب المعلق على الستارة الداخلية في المكتب، لكن يجب عدم الاستعجال.. أحتاج إلى المزيد من الوقت والتقصي لمعرفة الحقيقة الكاملة لما جرى".

شمس الدين من جهته، كان قد وصل إلى النتيجة نفسها التي وصل إليها اللواء دون شكوك كبيرة، لأنه بات أكثر يقيناً بعلاقة الجثث الثلاث بالاغتيال، خاصة بعد المعلومة الأخيرة التي تتحدث عن الانحراف الجنسي.

طلب اللواء من رجال المعمل الجنائي الإسراع بمقارنة بصمات الشباب الثلاثة، بالبصمات التي أُخذت من مكان الجريمة من قبل، نهار وقوع الحادثة.. وكان عليه أن ينتظر حتى فجر اليوم الجديد ليتابع بقية التفاصيل. لكنه في الوقت ذاته كان ينتابه شعور بـ: "أن شمس الدين وأعوانه ربما يقومون بفعل ما لا يدرك ما هو بالضبط!.. فعل سوف يُخرّب مسار التطورات الأخيرة".

بعد أن أصبح اللواء يثق بما يمليه قلبه، استمع بجدّية إلى صوته الداخلي يُحدّثه:

"قبل الفجر ربما يحدث أمر غير مفهوم ينسف كل النتائج التي توصلت إليها.. يجب أن تكون أكثر حذراً وأن تتمَّ حماية الجثث بتشديد الحراسة.. أيضاً يجب تأخير إي إعلان بشأن الجثث في وسائل الإعلام، حتى تنتهي التحقيقات".

بالفعل كان ما يُفكّر فيه اللواء، قد فكّر فيه شمس الدين عمر، باعتبار، أن جميع هؤلاء: (اللواء طه، شمس الدين عمر، محجوب العوض، وآخرون)، ينتمون إلى المدرسة نفسها في نظرية المؤامرة.. فقد تلقوا الدورات نفسها تقريباً ويُفكّرون بدرجة تكاد تكون واحدة في التخطيط والتنفيذ، وإذا تفوق طرف على آخر فيرجع ذلك إلى كسل الطرف الآخر وتراخيه.

تفكير شمس الدين الأخير قاده إلى قرار سريع يقضي بالتخلص من هذه الجثث بأي شكل كان قبيل الفجر، فقد بات شبه متأكد: "أن للجثث علاقة وطيدة باغتيال العربي، وأن الاحتفاظ بها سوف يقطع التخطيط الذي بدأه العوض، وربما يفضح فكرةَ أن الأمن يقوم على الكذب والخديعة، بعد أن يتمكن اللواء طه وأعوانه من خلق إنجاز حقيقي، وهنا سوف يحوّل اللواء إلى بطل حقيقي لا بطل مزيف كما هي صورته الحالية التي ربما يعرفها القليلون، من الذين يمكنهم تقييم الأمور بشكل جيد".

لم يطل شمس الدين التفكير، حيث وجّه أعوانه بالتحرك الفوري لتنفيذ أوامره بالتخلص من الجثث بأي شكل كان.. ولم يُقدّم لهم أي خطة محددة، فقط قال لهم:

- يجب التخلص منها فوراً.

مع أول المساء، وصل اللواء إلى المشرحة حيث يتمُّ الاحتفاظ بالجثث الثلاث هناك، وقبله بدقائق كانت قد وصلت إلى المكان مجموعة مكونة من خمسة أفراد من أعوان شمس الدين المُكلّفين خطف الجثث بالقوة من الثلاجات والابتعاد بها إلى حيث يتخلصون منها، بشكل نهائي.

بمجرد أن وضع اللواء أولى خطواته عند الباب الخارجي للمشرحة سمع صوت طلقات رصاص في المكان، فأسرع للاحتماء وراء العمود الخرساني الضخم للباب الخارجي، لكن الرصاص تزايد، فاضطر للانبطاح أرضاً.. وبعين واحدة وهو راقد على الأرض رأى مجموعة تهرول مسرعة وهي تحمل ثلاثة صناديق.

فهمَ في الحال أنها الجثث الثلاث وقد تمّ اختطافها بواسطة رجال الأمن، وفي الحال أدرك أيضاً: "أن توقعاته كانت دقيقة ولم يخب ظنّه، لكن الظروف كانت أقوى منه".

قام من على الأرض، ليجد أن كل شيء قد انتهى، وأن المختطفين قد فرّوا من المكان وتلاشوا تماماً.

دخل إلى المشرحة، ليجد أرضيتها المبلطة وقد تلونت بنقاط صغيرة من الدم الذي نزف من جراح ثلاثة من رجال

الشرطة، الذين كانوا يحرسون المكان بناء على توجيهاته، وكانوا في انتظار أن تأتي قوة إضافية مكونة من سبعة أشخاص من الشرطة لتنضم إليهم، لكن قبل أن يصلوا كان أعوان شمس الدين قد دخلوا المكان ونفّذوا خطتهم.

31

وجد عبد الحفيظ أن الأيام سوف تمضي وهو لم يحقق أي تقدم إيجابي بخصوص مشروعه العقاري، أو إدارة الثروة الضخمة التي تركها له الوالد.

... وأثناء وجوده في مكتبه بعد غياب لعدة أيام قضاها في ملاحقة تفاصيل القضية، توصل إلى نتيجة عقلانية: "ما حدث.. حدث.. ولا أستطيع أن أُغيّر في الماضي.. عليّ إذن أن أنظر إلى المستقبل، وأن آخذ الأفكار التي طرحها عليّ بروك بموضع الجدّ".

كان في انتظار وصول بروك إلى المكتب بعد عشر دقائق، وإلى أن يصل بروك، قام بخطوة عملية، حيث أجرى اتصالاً بأحد الأشخاص الذين أداروا معه عملية المفاوضات لدخول الحكومة قبل عدة سنوات.. لكن الهاتف لم يكن يردُّ، وربما تغيّر.. عاود الاتصال مرة أخرى، دون جدوى.

بسرعة فكّر في حل بديل.. حيث اتصل برقم هاتف ثابت للسيد لؤي سليمان، والذي لا يعلم موقعه الآن بالضبط ولم يسبق له أن التقاه، ولم يكن يدري أن الرقم يخصه الآن أم لا.. وقد اتّصل به باعتباره المُوجّه الرئيسي لعملية التفاوض،

بحسب إفادة الأشخاص الذين فاوضوه وقتها.. لحسن الحظ كان يحتفظ بالرقم في مفكرته الخاصة منذ تلك الأيام، ولم يقم بمحوه كما تعود إزالة الأرقام التي لا يحتاجها.

ردّت عليه من الطرف الآخر أنثى، تبين له أنه صوت مُسجَّل؛ يفيده بترك رسالة لأن السيد لؤي مشغول الآن وسوف يقوم بالاتصال لاحقاً.

هنا اطمأن عبد الحفيظ بأن الرقم صحيح وأن الرجل موجود على الأقل، لكنه لم يكن حتى تلك اللحظة متيقناً إن كان لا يزال لؤي يلعب دور المفاوض أم لا!.. فقد قال لنفسه: "الأدوار باتت تتغير سريعاً في ظل الصراعات السياسية والسلطوية المحمومة".

ترك رسالة تقول: "سيد لؤي.. أنا عبد الحفيظ العربي أود أن ألتقيك لأمر هام.. وحالما تفرغ أرجو التكرم بالاتصال بي".

كان لؤي سليمان، أحد المتنفذين في الدولة، ولم يكن له منصب محدد يشار إليه، وإن كان قد حمل لقب (مفاوض) بعد نجاحه في عدد من عمليات الاستقطاب لشخصيات معارضة في الخارج، استطاع أن يقنعهم بالعودة إلى البلاد واحتلال مناصب مرموقة في الحكومة.

... تنتهي مهمته هنا، أما بخصوص استمرار الطرف العائد في المنصب أم لا، فليست هذه مسؤوليته.. وتُعاوِنه في

هذا العمل مجموعة تعمل تحت إمرته، رُصِدت لها ميزانية شبه مفتوحة.

أيضاً يُقضّي لؤي سليمان جزءاً كبيراً من وقته في إدارة عمليات تجارية رابحة، اعتماداً على علاقاته التي طوّرها في السنوات العشر الأخيرة.

في الماضي لم يكن يملك شيئاً يذكر، بل كان مجرد شخص عادي من حيث التعليم والذكاء، لكن بعد توسع نفوذه المالي والاجتماعي.. استطاع أن يصل إلى مرحلة متقدمة من الصفقات التجارية الكبيرة، والتي كان يراها من قَبل مجردَ خيالٍ، إذا ما فكّر فيها.

... ومع توالي نجاحاته المالية اعتماداً على معارفه داخل الحكومة، صار من الأذكياء جداً، وفهم: "أن المرء كلما زادت ثروته زاد ذكاؤه.. حيث إن الذكاء ينمو مع نمو الثروة"، هكذا بات يؤمن..

***

وصل بروك إلى المكتب فأخبره عبد الحفيظ بما قام به، وعن نيته في القيام بخطوة عملية بخصوص الأفكار التي طرحاها معاً، والمتعلقة بالحفاظ على الاستقرار المادي والتجاري لعائلة العربي، من خلال التعاون مع الحكومة.

ابتسم بروك، وأبدى فرحه بما قرره عبد الحفيظ، لأن

الخطوة تعني أيضاً بتقديره غير المعلن: "فائدة عائلة بروك في بريطانيا"، لكنه لم يتحدّث بما كان يُفكّر فيه في الواقع، بدلاً من ذلك قال:

- أعتقد أنك بدأت تفكّر بشكل عملي.. الأمر الذي سيجعلك تواصل نجاحات والدك التجارية بشكل محمي ومدروس.. من العبث أن يعتقد المرء في مثل هذا الزمن أنه قادر على السيطرة على كل شيء بمفرده، خاصة بعد أن تعقدت الحياة.. هناك أكثر من حلقة يجب أن يفهمها الإنسان جيداً، ومن ضمن هذه الحلقات حلقة السلطة التي تسيطر على البلد الذي يعمل فيه.

لم يكن عبد الحفيظ في حاجة إلى الكثير من التبرير من جانب بروك ليفهم جدوى ما يقوم به، وتبادر إلى ذهنه فجأة أن يحكي لبروك ما قام به اللواء طه.. غير أنه آثر التركيز على الموضوع الأساسي، وعدم تضييع الوقت، وفكّر: "أن الإنسان هنا وبمرور الوقت يجد أنه قد تطبّع بعادات الناس، فهم يخوضون في الثرثرة كثيراً وفي موضوعات أصبحت جزءاً من الماضي، دون أن يوظّفوا الوقت في المفيد والمثمر وما يفترض أن يحدث في الغد". ومن جهة ثانية كان يرى: "أن قضية الوالد أخذت منه الكثير من الوقت".

أضاف مع نفسه: "إذا قبضوا على المجرمين فليُقدَّموا للعدالة.. إعدام هؤلاء أو غيرهم إذا صدقت هواجس اللواء،

لن يغيّر شيئاً بالنسبة إلي.. فالأساسي لي أن الوالد قد مات.. وأن الذي يعيش على الأرض الآن، هو الأجدر بالبقاء".

لم تمض سوى دقائق معدودات حتى رنّ الهاتف النقال، كان المتحدث على الطرف الآخر، لؤي سليمان، الذي شكر عبد الحفيظ على اتصاله، وقال:

- يبدو أنك تأخرت كثيراً في اتصالك هذا.

لم يفهم عبد الحفيظ ما الذي يعنيه مُحدِّثه بالضبط، بقوله "تأخرت كثيراً".

لم يسأله، حيث فضّل أن ينتظر باقي المكالمة ليفهم المقصود؛ وذلك حتى لا يبني تخيلات ليست ذات علاقة بالواقع.

لم يكن المدخل للموضوع الرئيسي صعباً، وكان لؤي من الذكاء بما يكفي ليفهم السبب الذي جعل هذه المكالمة تتمّ حتى لو أنها تأخرت في منظوره، فقد كان متأكداً منذ أن سمع خبر اغتيال العربي، أن الابن سوف يتصل به ذات يوم.. وأن هذا اليوم لن يتأخر كثيراً.

إذن فقد صدقت توقعات لؤي، والتي كان يبنيها على شروط موضوعية جداً.. فالرجل الذي خبر الحياة الجديدة في السودان، يفهم: "أن إدارة عمل تجاري ناجح لشاب مثل عبد الحفيظ، أو على الأقل المحافظة على إرث والده، لن تكون مهمة سهلة؛ إذا ما حاول أن يعزف منفرداً"، ذلك لإيمان لؤي بأنه: "قد انتهى ذلك الزمن الذي يعتمد فيه

المرء على مجرد ثروته أو سمعته.. ثمة شروط أخرى لابد من الانصياع لها، شاء المرء أم أبى.. هذه الشروط التي تستدعي تقديم تنازلات، تختلف حسب الشخص وقدراته، قد تكون شروطاً مادية أو فكرية أو حتى خلقية".

لم يدع لؤي عبد الحفيظ يتلعثم في إيجاد المدخل المناسب لبدء الحوار على الهاتف، فقد قال بشكل مباشر:

- قبل سنتين، وربما أكثر بشهور قليلة، لم تكن لديك صورة جيّدة عن الواقع.. الآن وأنت تدخل الحياة ببوابة المواجهة.. كان لابد لك أن تعود إلى نقطة البداية.

أحياناً كثيرة، لاسيما في الشهور الأخيرة، يجد عبد الحفيظ نفسه عصبياً ومستفزّاً للطريقة التي يناقش السودانيون بها الأمور.. فحسب خبراته في علم التفاوض وإدارة العلاقة مع الآخر بالاعتماد على مجموعة من التدريبات التي تلقاها بالولايات المتحدة على يد (كين شيلتون) مؤلف كتاب (النجاح الحقيقي)، وصل إلى: "أن المجتمع السوداني يفتقد اللباقة في الحوار.. وأن هؤلاء الناس، خبرتهم في الحياة، لا تزال زهيدة: لا يعرفون كيف يديرون الحوار بطريقة مهذبة.. يتمتعون بعنجهية واعتداد بالنفس مبالغ فيه.. الطيبة التي تقال عنهم ليست إلا مجرد غلاف خارجي، لأنه بمجرد أن تدخل مساومة تتعلق بالمصلحة مع أي شخص منهم تجده قد تحوّل إلى كائن شرس، عليك أن تُحضِّر أدوات المقاومة لكي تقنعه بأنه مخطئ أو مصيب.. يصرّون على أفكارهم لدرجة مخيفة

تجعلك تنظر إلى الواحد منهم على أنه كتلة من الأنانية المفرطة وحبّ الذات الغبي".

الآن يجد عبد الحفيظ نفسه أمام نموذج مختلف من البشر، يعاكس كل الأفكار التي كوّنها عن السودانيين في الشهور الأخيرة، التي قضّاها في الخرطوم.. شخص من الصعب التكهن بالطريقة التي يتكلّم بها.. وفي تقديره: "أن لؤي يلعب دور (مفاوض) مميّزاً على الطريقة الأمريكية الأكاديمية في نظريات التفاوض ومعرفة الآخر".

... وقد كوّن الرأي الأخير بعد المُضي في الحوار، وانتهاء لحظات القلق الأولى، ساعة ظنّ أنه سيغلق الهاتف في وجه مُحدّثه.. لكن بمجرد أن توالت العبارات، رأى أن الحوار مع لؤي يحتاج إلى جلسة أطول، وأن الهاتف لن يكون كافياً لقول كل شيء.

اتفقا على اللقاء في مساء اليوم نفسه، ورفض لؤي فكرةَ أن يكون مكان اللقاء، منزل عبد الحفيظ، حيث أصرّ على أن يتقابلا في مكان محايد، وفاجأه بقوله:

- سنلتقي في الفندق نفسه الذي قابلت فيه اللواء طه قبل يومين.

أبدى عبد الحفيظ استغرابه لمعرفة لؤي بذلك الاجتماع، لكنه لم ينشغل بما قاله، بل فكّر لثوان في سبب غرام هؤلاء الناس بهذا الفندق بالتحديد.

أخبر عبد الحفيظ بروك بملخص ما جرى من حوار على

الهاتف، مع لؤي، فأوصاه بروك بأن يكون واضحاً ومحدداً في اجتماعه القادم.

ردّ بعد أن سمع ما فهمه على أنه إطراء مبالغ فيه من جانب عبد الحفيظ على لؤي:

- لا تثق كثيراً بالطريقة التي يتحدّث بها أمثال هؤلاء الناس، أو ماذا يقولون.. فَكِّر فقط في النتائج التي سوف تتوصل إليها.. كن مختصراً ولا تمزح كثيراً، وحاول أن تُلخّص أهدافك بوضوح ودون حياء.. تذكّر أنك لا تبحث عن أصدقاء جدد، ففي عالم المصالح لا توجد صداقات.. ما تبحث عنه هو مصلحة مشتركة بينك وبينه.. لا تتنازل عن أي من شروطك.

قبل أن يغادر عبد الحفيظ في المساء إلى الاجتماع مع لؤي، جلس لنصف ساعة، مع بروك، في الفندق الذي يقيم فيه بوسط العاصمة.. حيث وضعا خطة مُفصّلة وواضحة لما ينبغي أن يُطرح بالضبط أمام المفاوض لؤي.

***

مع بدء الاجتماع في الفندق العتيق نفسه الذي جرى تحديثه، وقريباً من الطاولة نفسها التي شهدت اللقاء مع اللواء طه.. كان الكثير من الطقوس يُعاد تكراره.. عصير البرتقال.. عشاء بعد قليل.. اعتذار عبد الحفيظ المبكر عن

العشاء.. ولاحقاً سيجد عبد الحفيظ أنه من سيدفع فاتورة العشاء الذي لن يؤكل مع العصير.. ولم يتوقع قط أن الشخص نفسه الذي كلّمه على الهاتف، هو الشخص نفسه الذي يجلس أمامه، ففي المكالمة كان يسمع صوتاً مهذباً وهادفاً لبقاً ومنطقياً، بعض الشيء، الأمر الذي جعله يُكوّن صورة مبدئية لرجل: دبلوماسي وأنيق ومفاوض مميّز، ومتمكن من أتيكيت التعامل مع الآخر، سواء بالفطرة أو عن طريق التدريب.. أما الآن فالصورة مختلفة تماماً.

بدأت الصورة الذهنية عن لؤي، تختل عند عبد الحفيظ في اللحظة التي دخل فيها الفندق، ليجد أن المفاوض تأخر عن الموعد المحدد.

كان عبد الحفيظ قد شعر بالملل جراء الانتظار غير المبرر.. واتصل هاتفياً بلؤي، لكن هاتفه لم يكن يرد.

أخيراً وصل لؤي بعد أن فرغ صبر عبد الحفيظ وكاد أن يغادر الفندق، بعد أن ضيّع حوالى ربع الساعة، في تأمل تفاصيل المكان.. حيث لم يكن لديه ما يشغله، فوجد أنه يجلس في مكان مكتظ بكراسٍ بعض أطرافها ممزق، واستطاع أن يشاهد آثاراً قديمة لقهوة مندلقة على بعض المقاعد؛ لم يُفكّر أحد في غسلها أو تجديدها.

خلق مقارنة ذهنية بسيطة بين فنادق راقية في بلدان كثيرة زارها، فوجد أن هذا الفندق الذي يفتخر الناس هنا لمجرد ذِكر اسمه، ما هو إلا مكان متواضع وقذر.. فقد كان الذباب

يحوم في الصالة الواسعة، ورأى شاباً كورياً، يجلس حول طاولة بعيدة بشورت وفانيلة بيضاء بلا أكمام، يقضي الوقت في انتظار أمر ما، بهشّ الذباب.

لأنه لا يوجد ما يُفعل، فقد استمر في محاولة مراقبة المكان بشكل أدق، حيث فطن لأشياء كثيرة لم يلاحظها في المرة السابقة.. فمن خلال نظرة عابرة رأى أن موظفي الفندق يلبسون زياً غير مُوحّد، وأن كثيراً منهم يفتقدون أبسط مهارات العمل الفندقي.. وفي نظرة ثانية إلى لوحة عُلقت على الجدار، كاد أن يضحك حيث كانت اللوحة ضخمة جداً ولكنها دون أي معنى جمالي، ولا تصلح لأن تعلق داخل مطعم في السوق العربي بوسط الخرطوم.

... دخل لؤي الفندق؛ يلبس بذلة واسعة تبدو كما لو أنها مصبوغة تواً، قاتمة اللون وفضفاضة في جسد نحيل وطويل. ولم يستطع عبد الحفيظ أن يتبين إن كان هذا اللون أسود أم رمادياً!.. أما ربطة العنق فقد تدلت وكأنها سوط من ذيل البقر: طويلة ورقيقة وبنية اللون بحيث لا توجد أي علاقة بينها وبين لون الجاكيت أو البنطلون.

بعد أن جلس لؤي، وجد عبد الحفيظ نفسه ينشغل بمراقبة هيئة الرجل، أكثر من انشغاله بسماع ما يقول، وقد كاد أن ينفجر ضحكاً عندما اكتشف أنه يجلس أمام كائن كأنه خارج من الغابة أو السجن.

كان منظر الشارب، كثيفاً وغزيراً يتدلى من الجانبين

بطريقة غير منظمة، وتحته لحية غير حليقة، وفوقه شعرُ رأسٍ كثيف لم يحلق منذ شهور.

ما استغربه عبد الحفيظ أن الشعر كان مصبوغاً، ليُغطي الرجل على بعض الشيب، ويبدو أن الصبغة حديثة، ربما حصلت قبل ساعة.. لا أكثر، فقد كانت رائحة الحناء السودانية تفوح بوضوح بين لحظة وأخرى.

أمام جميع هذه التفاصيل لشاب مهندم، ومرتب من حيث الملبس ومن حيث جلوسه على طريقة رجال الأعمال الأمريكيين كما يتخيل مع نفسه، بدا المفاوض طرفاً غير كفؤ للجلوس معه، وكاد عبد الحفيظ بعصبيته أن يقرر النهوض وإنهاء اللقاء، لكنه تذكّر نصيحة بروك بأن يفكّر في النتائج، وأن يتغاضى عن الأشكال: "تعامل مع من يجلس معك على أنه (روبوت).. لا تهتم بمظهره أو مشاعره.. فقط ركّز على هدفك وما تود أن تحصل عليه من نتائج".

بتذكُّر نصيحة بروك، عاد عبد الحفيظ إلى صوابه، ونسي مشهد رجل الغابة في زي إفرنجي؛ الذي يجلس أمامه.. لكن نفسه عادت إلى الاستياء مرة أخرى.. خاصة بعد أن طلب منه لؤي قلماً، وورقة.. ليسجل بعض النقاط..

استغرب عبد الحفيظ: "كيف يمكن لرجل ناجح في عمله أن يتحرك بلا ورقة وقلم، إن لم يكن كمبيوتراً محمولاً!"..

... وما جعله يستفيض في متابعة صورة الرجل، ما سمعه

من روايات الناس عنه، من إشادات كثيرة وأقوال تصبُّ في تجميله، ووصفه بالإنسان الراقي والمتحضر والدبلوماسي والأنيق. ليضحك عبد الحفيظ مع نفسه، قائلاً سراً: "هل هذه صورتهم عن الأناقة؟!".

لم تمض سوى دقائق حتى رأى عبد الحفيظ: "أن الكائن الذي يجلس أمامه يتمتع بدرجة عالية من الوقاحة والتبجح، بحيث لا يصلح مفاوضاً حتى ولو في زريبة بهائم، يُساوِم على بيعها في موسم الأضاحي".

كان عبد الحفيظ يفهم الأمور بالطريقة التي يرى بها العالم، وما تعلّمه من مُدرِّسيه أمثال (كين شيلتون)، وقد فشلت خبراته هذه؛ أن توصله إلى أن لؤي يمكن أن يكون متمتعاً بشخصية قوية جداً في نظر المتنفذين في الدولة، ويظل مقبولاً بأي شكل كان، حتى لو أنه يشبه إنسان الغابة، لأنه ببساطة كان في نظر الكبار قادراً على الوصول إلى أهدافه بكلِّ سهولة.

لكن بمرور الوقت بدأ عبد الحفيظ يفهم شيئاً فشيئاً الشخص الذي أمامه، ليراه ذكياً بدرجة لم يكن يتوقعها منذ البداية، وعزا ذلك التقدير الأولي الخاطئ إلى الانطباعات الشكلية التي كوّنها عنه..

وبدأ يسأل نفسه: "ماذا يا ترى لو كان (كين شيلتون) مكاني؟.. ماذا سيكون موقفه؟.. وماذا كان سيقول عن الطريقة

التي يفهم بها السودانيون ويقيّمون، الإنسان الناجح في عمله وفي الحياة؟!".

وقد تعاظم لديه السؤال بدرجة أكبر في اللحظة التي شرع فيها لؤي يتحدث عن أمور كان عبد الحفيظ مشغولاً بها في اللحظة نفسها، وكأن الرجل كان يقرأ ذهن محاوره مثل كتاب مفتوح أمامه، يُقلّبه كيفما شاء.

جرّ لؤي الطاولة بطريقة لم تعجب عبد الحفيظ، مُحْدِثاً صوتاً مزعجاً في المكان، دون أن يعتذر، رغم أنه أثار انتباه الموجودين في الصالة الرئيسية في الفندق، الأمر الذي سبّب الحرج لعبد الحفيظ الذي لم يكن يُحبّذ مثل هذه التصرفات التي تدلُّ في رؤيته على غياب الأتيكيت في احترام الطرف الآخر الذي تجلس معه.

***

عدّل لؤي جلسته واستفاض في الحوار مواصلاً ما بدأه في الهاتف، مُوجّهاً كلامه بطريقة رآها عبد الحفيظ: "ذكية، لكنها تفتقد الذوق في الوقت نفسه":

- سيد عبد الحفيظ، العودة إلى نقطة البداية مُكلّفة جداً.. تعرف أن تشييد عمارة جديدة أمر صعب، أيضاً ترميم بناء لم يكتمل لن يعطي الصورة الجديدة المطلوبة.. في كل الأحوال ما تفتقده أنك لا تعرف ما ترغب فيه، لأنك تعيش نزاعاً

داخلياً بين الاستمرار هنا أو الذهاب إلى مكان آخر، تواصل فيه عملك.. ما ينبغي أن تعلمه جيداً أن الشجرة التي زرعها والدك، لها فروع وأغصان في الخارج، لكنها تحتفظ بجذورها هنا في أرض الوطن.

قاطعه عبد الحفيظ بانفعال:

- لا أفهم ما الذي تقصده؟ دعنا نكون عمليين وندخل الموضوع الأساسي الذي كان اتصالي بشأنه؟

نظر لؤي بطريقة تبدو متعمدة إلى اللوحة المُعلّقة على الجدار، وقال:

- أعرف ما تُفكّر فيه بالضبط!.. غير أن الظروف الآن بالتحديد، اختلفت كثيراً عن الماضي.

- ماذا تعني؟!.. أحتاج توضيحاً.

- ما أعنيه أننا في الماضي كنّا نرغب فيك، أما الآن فسيظلّ الموضوع محلَّ نظر..

صمت قليلاً، وأضاف برعونة:

- من الصعب أن أعطيك نتيجة محددة الآن.

شعر عبد الحفيظ بالاستفزاز، وقرر أن ينهض دون كثير تفكير، بعد أن قال سراً: "الجلوس معه مضيعة للوقت، فهو يريد أن يستفزني بأي شكل كان، كأنه يريد معاقبتي على رفضي الاستجابة لدعوتهم إلى دخول الحكومة في المرة السابقة".

وفكّر: "أنه ربما أخطأ التقدير عندما اتصل بهذا

الشخص، وأنه كان عليه التريث ومحاولة دراسة الأمر بشكل أفضل، بالوصول إلى الشخصيات الأكثر نفوذاً، باتّخاذ الطريق الأقصر، بدلاً من تبديد الوقت مع أمثال هذا الرجل".

يرى عبد الحفيظ الوقائع بهذا الشكل، دون أن يعلم أن لؤي سليمان يعتبر من أكثر الشخصيات ذات النفوذ والقادرة على اتخاذ القرار من على البعد.. ولم يكن يعلم، أيضاً، أن لؤي يحمل ثأراً قديماً لوالده، يدركه محجوب العوض وأعوانه الذين يُعرِّفون لؤي سليمان باسم مختصر هو (ل.س).. وأن الاتصال الأول الذي تمّ به لدخول الحكومة ساعة كان بالولايات المتحدة، لم يكن سوى محاولة للضغط على والده بشكل غير مباشر.. تلك المحاولة التي فشلت وقتذاك، والتي تتكرر الآن في ظروف مختلفة في تقدير لؤي سليمان.

وصل لؤي إلى نتيجة تتلخص في التالي: "أن عبد الحفيظ لا يملك خبرات ومهارات والده، في فهم الواقع السوداني الجديد وخارطة النفوذ، وأنه من السهل التلاعب به وتحريكه بـ (الريموت كنترول) دون الحاجة لمنحه منصباً في الدولة.. قد يتمّ هذا الأمر لاحقاً، لكن ليس هذا هو الوقت المناسب لاتخاذ هذه الخطوة".

أما عبد الحفيظ فقد وجد أنه أمام طريق شبه مسدود، فقد توصل إلى: "أن الشخص الذي يجلس أمامه، يصعب

فهمه بسهولة.. وفي كل مرة يعطي انطباعاً مختلفاً"، لدرجة أنه عندما حاول فيما بعد أن يُوصِّف هذه الشخصية بدقة لبروك، فشل في إيجاد التوصيف المناسب لها.

ذهب بعقله إلى نتيجة موقّتة.. لم تكن مؤكدة له، تقول بـ: "أن لؤي ليس من الناس سهلي القياد، كما أن كثيراً من تصرفاته قد يكون مقصوداً ومُدركاً ويتمُّ بإرادة ووعي، بما في ذلك إهماله المتعمد لمظهره".

بالفعل كان لؤي يعلم أنه يقوم بدور تمثيلي في كثير من تصرفاته، فهو على العكس من الشكل الذي رآه به عبد الحفيظ، يهتم جداً بمظهره، ويجيد فنون اللباس والأتيكيت وإتقان المظهر الخارجي كإحدى الألاعيب في إغراء الطرف الآخر.. وقد كان الكثير من الأفعال غير اللائقة التي قام بها في الفندق، مقصوداً ومرتباً، حيث تعمّد استفزاز مشاعر عبد الحفيظ والتلاعب به، بهدف أن يضعه في ركن ضيق ليكون بإمكانه تحريكه كيفما شاء في المستقبل. وهكذا كان مقصده.

ظنّ لؤي أنه قد نجح في نياته المستترة، نوعاً ما.. وقبل أن يغادر الفندق، نظر إلى عبد الحفيظ بابتسامة ساخرة، قائلاً:

- تفضل بدفع الحساب، لأنك أنت الذي طلبت هذا اللقاء!

"كانت طريقته واضحة واستفزازية، بخلاف اللواء طه الذي لم يرغب في دفع الفاتورة، ولكن بحيلة مهذبة".. قدّر

عبد الحفيظ الموقف الأخير على هذا النحو، ولم يرد على الاستفزاز، حيث أسرع لدفع الفاتورة، وغادر الفندق دون أن يقول وداعاً للؤي.. ومع نفسه كان قد وصل إلى قناعة بأنه: "ارتكب حماقة كبيرة بالدخول في هذا الموقف الغبي"، كما فسّره في منتصف الليل، عندما جلس بمفرده في غرفة نومه، يعيد استرجاع اللقاء، الذي قرر: "أنه خسره بكل تأكيد".

***

من جديد عادت إليه، قبل أن ينام، هواجس العودة إلى الولايات المتحدة للاستقرار هناك بشكل نهائي، بعد أن قيّم جدوى استمراره في السودان بشكل مبدئي، فاكتشف: "أن أي يوم يُقضّيه هنا، سيكون مجرد مضيعة للوقت في عالم غير مفهوم وغامض، يتمتع فيه الناس بالتلون والقدرة على إخراج الإنسان عن طوره والزجّ به في متاهات قد لا تكون لها نهاية".

وعندما راجع النهاية التي أسدل بها الزمن الستار على حياة والده، بات شبه خائف بأن المستقبل غير مضمون ومشوش، وأن أفضل السبل للسيطرة على الغد تتلخص في: "أن يفعل الإنسان ما يمليه العقل.. لكن ليس بالشكل الذي يُفكّر به بروك".

أخيراً حدّث نفسه بصوت مسموع: "حتى بروك يظلُّ في

نهاية الأمر، جزءاً من تاريخ لم أصنعه أنا.. يجب أن أحترم ذاتي وأعرف كيف أُقدِّر نفسي.. ما فعلته اليوم كان حماقة واضحة.. لماذا فعلت كل هذا يا إلهي؟".

شعر بصداع نصفي ورغبة في أن يتقيأ، وحاصره أرق شديد، جعله مستيقظاً إلى أن أشرقت شمس اليوم التالي.. والتي راقبها من بعيد، صفراءَ باهتة، ورأى كما لو أنها: "شمس أخرى غير التي تعرّف عليها في طفولته.. شمس لا تشبه المكان ولا تشبه ذاته".

... ودون أن يتحكم في مشاعره، كان قد صرخ بقوة وضرب رأسه بالحائط، لدرجة أن زينب عندما سمعت الخبطة في الغرفة المجاورة؛ تركت طفلها نائماً وأسرعت لتفهم ما الذي يحدث، فوجدت الدم وقد سال على أرض الغرفة، قريباً من الجدار ذي النافذة المطلة على الشرق.

حاولت أن تفهم ما الذي يحدث، فاصطدمت بكائن غير شقيقها الذي كانت تظنّ أنها تعرفه جيداً، ولم تشأ أن تتركه وحيداً في هذا الوضع، حيث جلست إلى جواره لأكثر من عشر دقائق، دون أن تحصل منه على كلمة واحدة.

قررت الاتصال ببروك، فهو أقدر الناس في تقديرها على فهم نفسية شقيقها: فقد تزاملا معاً بالولايات المتحدة في الدراسة، ومن قبل كانا يقضيان جلَّ الوقت معاً، عندما كانت عائلة العربي تذهب لقضاء العطلات في بريطانيا، أو عندما تزور عائلة بروك الخرطوم.

أخبر بروك زينب بأنه سيحضر في الحال، وفهم على الفور أن لقاء عبد الحفيظ مع لؤي، لم يكن موفقاً، غير أنه قال لنفسه: "يبدو أن عبد الحفيظ لم يعرف كيف ينفذ إلى شخصية الرجل.. إنه يرتكب الكثير من الأخطاء في طريقة تعامله مع الآخر، دون أن يدري أنه السبب وراء الفشل".

ووصل إلى تفكير جديد: "أعتقد أن استمراره هنا لن يكتب له النجاح، فهو يعاني حالة سوء فهم لطبيعة الناس، لذا يحتاج إلى المزيد من الوقت حتى يتدرّب على طريقة جيدة للتعامل مع الآخرين، وإلى أن يحدث ذلك سيكون قد خسر كل شيء".

كان بروك يُفكّر في الواقع بلسان والده، الذي يفهم طبيعة السودانيين جيداً.. والذي حرص على نقل خبراته في هذا المجال إلى ابنه (بروك) منذ الصغر، حتى يؤهله لدوره المستقبلي في حمل العلاقة مع عائلة العربي إلى قرن جديد.

الآن، أكثر من أي وقت مضى، يدرك بروك: "أن عبد الحفيظ يتمتع بالذكاء الكافي بما يمكنه من أن يفهم اللعبة بشكل جيّد في وقت وجيز. ولكن من غير الممكن والصعب جداً، أن يكون هذا الشاب هادئاً وبعيداً عن التوتر، في المضي بصبر، إلى اللحظة التي يتمكّنُ فيها من السيطرة على الأشياء.. وهذا هو الفارق بينه وبين والده".

32

لم يوضح ميسرة لفضل الله أين غاب طوال الأيام السابقة منذ تنفيذ حادثة الاغتيال، وقد لاحظ النقيب أن العقيد في وضع نفسي سيء، وربما كانت تلك أول مرة يراه فيها واهناً بعض الشيء ومضطرباً.. وقد حاول أن يفهم السبب الذي كدّر نفسيته، وباءت محاولته بالفشل، فميسرة ظلّ صامتاً لا يتكلم.

ذهب بخياله إلى أن ميسرة ربما عاش تجربة نفسية ما، لم يكن بمقدوره تحديدها: "فهل يا ترى تعرض للاعتقال؟.. ولو كان هذا الأمر قد حدث، إذن لما كان هنا من جديد، ولكنّا جميعنا الآن في السجن".

وسأل نفسه مرة ثانية: "هل دخل هذا الوضع النفسي بسبب ما حدث؟".

استبعد الفكرة الثانية، مثلما استبعد الفكرة الأولى، ففي قناعته الذاتية أن ميسرة ليس من الشخصيات سريعة الانهيار أو ذات الاستجابة للظروف الخارجية مهما كانت شدّتها وعنفها.

قال لنفسه مجدداً: "كل ما حدث من تطورات معلنة على

صعيد الواقع يصبُّ في صالحنا، إذن ليس ثمة ما يجعله يعيش خوفاً أو قلقاً نفسياً.. إذن ما الذي أوصله إلى هذا الوضع؟، إنه لأمر غريب، ولكن كيف سأفهم إذا كان يرفض الكلام؟!".

لم يكن فضل الله يدري أن ما يعانيه ميسرة يتعلق بطاقة زائدة من الانتقام، جعلت ذهنه يحوم حول أفكار عديدة، غير منظمة، نتيجة الإحساس بفقدان بوصلة تسيير الدماغ، فبعد أن اكتشف ميسرة أن الانتقام من حادثة قديمة، هو ما حرّكه نحو التفاصيل كافة التي شكّلت حياته في السنوات الماضية، بات متوتراً وقلقاً.

في أحيان أخرى أثناء وجود فضل الله إلى جواره، كان ميسرة يشعر لجزء من الثانية بالرغبة في التكفير والاعتراف للخلية بأنه مجرم يجب أن يلقى عقابه، وسرعان ما يقاوم الفكرة وينتصر عليها بالعودة إلى مربع الانتقام، بعد أن تتحرك فيه أشياء داخلية غير مفهومة ومجهولة المنبع، تجعله يُحدّث نفسه: "لابد من السير إلى النهاية.. مهما كان شكلها.. لقد بدأت اللعبة ويجب أن تنتهي.. اللعبة التي تحولت إلى جدّ ومصير يتعلق بحياتي، وحياة مجموعة من الشباب الذين وثقوا بي".

وصل القائد إلى وضع من غياب السيطرة تماماً على تفكيره، في الوقت الذي كان فضل الله، يرى أمامه شخصاً

آخر غير العقيد الذي يعرفه جيداً: "قوياً ولا تهزّه العواصف، مهما كانت قوتها".

ورغم أن فضل الله لم يفهم بالضبط ما حدث، ولا لغز الأيام الماضية، فقد وجد أن من المناسب محاولة شحن طاقة ميسرة النفسية، بقراءة بعض الفقرات من الكتاب التأسيسي، تلك الطريقة المهدئة التي تعلّمها من القائد نفسه، فحين كان أحد الأعضاء يدخل وضعاً نفسياً مقلقاً، أو يتوتر، أو يخاف، أو يعيش حالة سلبية تجاه من حوله، كان ميسرة يُوصي بإعادة الذات إلى وضعها الطبيعي بالرجوع إلى الفصل الذي يعالج مثل هذه المواقف من الكتاب التأسيسي، والمسمى (إعادة بناء الوجود).

هناك نسخة من الكتاب مرمية على الأرض تحت السرير الذي يرقد عليه ميسرة ولم يغادره منذ أكثر من نصف ساعة، بعد استيقاظه بمجيء فضل الله.. النسخة مصورة بواسطة الـ (فوتو كوبير مشين)، لأن الكتاب لم يطبع أصلاً لغياب التمويل، حيث لم يكن لدى الخلية الإمكانات لطبعه بشكل سري.

رفع فضل الله النسخة، وقلّب الصفحات سريعاً إلى أن وصل إلى فقرة محددة كانت في ذهنه حاضرة، يكاد يحفظها عن ظهر قلب.. وبدأ قراءتها بما يشبه الترتيل.. بصوت عالٍ مسموع لميسرة:

]]إذا ما عاش العضو منّا حالة نفسية صعبة، وكان شارد الذهن، وغير راغب في السماع للعضو أو الكلام معه، فليعمل على تهدئة الروح بالخروج من العالم للحظات.. قد تستمر لدقائق أو ساعات.. هذا الخروج الذي يعني التطهر من كل أشكال الانتماء إلى الوجود الباطل.

لقد شرحنا فيما سبق أن (الوجود الباطل) هو أن يعيش الفرد منّا، دون أن يحبّ نفسه، وقمة حبّ الذات، أن يرى مصالحه جيداً.. وأن يفهم أن حياته لا معنى لها دون مصلحة تُمكّنه من الوصول إلى هدفه.

لا يقترب (العضو) من صناعة معناه في هذا العالم بالانغلاق على الذات، قم بأي فعل (إيجابي)، حتى تتخلص من (الشر) الذي يسكنك.. ويجب أن تعلم بأن (الإيجابية) تعني المبادرة تجاه العالم، بما يرضيك أنت وحدك، واعلم أن رضاك عن ذاتك يسعد الخلية حتى لو لم يفهمك البعض في بادئ الأمر.. أما (الشر) الذي نقصده، فهو غير الشر الذي يفهمه عامة الناس، إنه ضد نزعة الخير الكذّابة أو ادعاء الصلاح وتزييف الذات بالماضي والذكريات، أو أن الإنسان يجب أن يكون ملاكاً طاهراً..

اعلم أن الملاك الطاهر لا وجود له في العالم، وهي بدعة تم اختراعها لكي تسكت الفقراء أمثالنا، وهؤلاء الذين أطلقوا هذه البدعة هم الآن يضحكون، لأنهم خدعونا بأن جعلونا نستجيب لمقولاتهم المتوارثة منذ عشرات القرون.. إذا

أردنا أن نتخلص من الشر حقيقة، يجب أن نكون شريرين بالمعنى العام الذي يفهمه معظم الناس.. أيها العضو تحرر من غفلتك، وعش سعادتك بالتعبير عن نفسك بالشكل الذي تراه أنت]]

أثناء القراءة، عاش ميسرة لحظات غريبة عجز عن تفسيرها، تكاد تشبه الثواني الممتعة التي رآها في الحلم، ساعة غمره النور، وقبل أن يوقظه فضل الله.

... وفي أقل من الثانية، كان قد استرجع البدايات التي تكوّنت بها الخلية، منذ أن كانت مجرد فكرة في ذهنه دافعها الانتقام، إلى هذه اللحظة.. كان شعر بخفة في جسده الثقيل، ورغبة في العنف، الذي لا يمكن أن تفهم الذات مبرره ..

نهض من على السرير، بعد أن توقف فضل الله عن القراءة، ليسأله بشكل غير متوقع:

- هل ما زلت تؤمن بأن كل الآراء التي وردت في الكتاب التأسيسي يمكن أن تكون صالحة وذات دور إيجابي في مصلحة الإنسان.. أم أنها مجرد تخريف فارغ؟

استغرب فضل الله السؤال، فربما كانت هذه هي المرة الأولى التي يشكّك فيها القائد في أفكاره، ولم يفهم النقيب الهدف من السؤال الذي طرحه العقيد: "هل يريد أن يجرّب قناعاته، وهل شكّ في شيء ما؟!".. وقال لنفسه: "هل يا ترى وصلت إليه معلومات من أحد أعضاء مجلس القيادة عن

الاجتماع الأخير الذي تمّ في غيابه؟.. ربما أخبروه بأنني تحدّثت بلهجة فُسرّت على أنها سخرية منه".

مضى فضل الله يسأل نفسه دون أن يحدّد طبيعة مشاعره في ذلك الاجتماع: "هل كنت أسخر من القائد في الواقع؟.. أم أنني كنت أتحدّث بشكل طبيعي تمّ تفسيره على نحو خاطئ؟".. وأجاب عن سؤاله: "إذا كنت لم أتعرض لأي نقاش حول هذا الموضوع بعد نهاية الاجتماع بخلاف بعض الإشارات التي وردت أثناء الاجتماع، فهذا يعني في تقديري أن الموضوع قد انتهى، لكن عودته الآن إلى ذهني لا يمكنني أن أفسرهل شخصياً إلا سبب واحد.. أنني كنت أسخر فعلاً من ميسرة، لكن ما هو دافعي وراء ذلك؟.. لا أعتقد أنني كنت أشكّك في تعليمات القائد وأفكاره، ليس هذا هو السبب.. أيضاً أنا لا أكره ميسرة، وإلا لما التزمت السير معه منذ البداية إلى الآن".

لـم يستطع فضل الله أن يصل إلى قرار نفسي واضح بخصوص ما حدث في ذلك الاجتماع، أو سؤال ميسرة قبل قليل، الذي جعله يدخل نقاشاً طويلاً مع ذاته.

ظلّ ميسرة ينتظر الإجابة، ولاحظ أن فضل الله سرح في تأمل لاإرادي، ولم يكن يدري ما الذي كان يشغله بالضبط.. فأعاد السؤال مرة أخرى، ولكن بغضب.

ردّ عليه فضل الله قائلاً:

- عفواً سيدي لو لـم أكن مؤمناً بتعليمات الكتاب

التأسيسي لما وظّفت كل السنوات السابقة من عمري لأجل الخلية.

وجد ميسرة أن الجواب جاء روتينياً، ولا يحمل تأكيداً وجدّية.. فليس من عادة فضل الله أن يجيب عن الأسئلة بهذا الاقتضاب وبشكل عمومي، فهو يميل إلى التفاصيل والتوضيح، بل يمضي إلى الحديث عن مشاعره الداخلية في موضوع النقاش.

"إذن ثمة أمر غير عادي حدث في غيابي".

قال ميسرة مُحدّثاً نفسه سراً، وفكّر أيضاً: "أن اللهجة التي تكلّم بها فضل الله فيها شيء من الغرور".

كانت لدى ميسرة القدرة على قراءة نفسيات المقربين له، بشكل دقيق، بمن في ذلك الناس الذين يتعرّف عليهم لفترة قد لا تطول، ولم يُوظّف هذه المهارة إلا بعد تأسيس الخلية حيث استفاد منها في التعامل مع الأعضاء في تصريفهم لأهدافه الانتقامية.. وفي الموقف الأخير ذهب ميسرة إلى الشك بأن فضل الله قد تغيّر، لأمر ما، غير مفهوم، وشرد بذهنه يقول: "ربما شهدت أيام غيابي أحداثاً معينة في الخلية، كانت السبب وراء ما يبدو على فضل الله من تحوّل!".

من جهته، أحس فضل الله: "أن القائد ليس كعادته، ويبدو أنه مشغول بأمر ما، لكنه حتى هذه اللحظة لا يود الإفصاح عن ذلك الشيء الذي يشغله".

أراد أن يسأله من جديد: أين كان؟ وما الذي جرى طوال الأسبوعين الماضيين؟.. لكن الجو كان محمولاً على روح التوتر، وكان من الواضح أن الحوار لن يستمر، فآثر أن يترك ميسرة على أن يعود فيما بعد إلى معرفة ما الذي حدث.. وبالفعل استأذن للخروج، وغادر دون أن يُكلّمه القائد أو يطلب منه البقاء.

غادر فضل الله وفي ذهنه استفهامات عديدة، جعلته يشعر بالضيق، وشكّ: "هل يكون أحد أعضاء القيادة قد التقى ميسرة بعد ظهوره، ونقل له معلومات ما عن الاجتماع الذي دار في غيابه؟!".. بالطبع لم يحدث هذا.. لكن تقدير حالة ميسرة، في نظر فضل الله: "أنه في وضع غير طبيعي".. وقال لنفسه مرة أخرى: "العقيد ليس من أولئك الذين يتأثرون بما يُنقل إليهم.. وحتى لو وصلت إليه أي معلومات عن شخص ما، من طرف ثانٍ، فهو لا يجعل هذه المعلومات تؤثر في علاقته بالشخص، حتى يراقب الأمور بنفسه ويضع قراره بناء على يقين جازم".

***

لم يكن ميسرة يدري أن وضعه النفسي الجديد، وتشتت أفكاره ساهما في توتر الجو والعلاقة مع فضل الله.

وفي البداية ظنّ أن خروج فضل الله أمر عادي، ولم

يخطر بباله أنه غادر بارتباك وريبة، بعد أن صمّم داخلياً على اتخاذ قرارات مصيرية، لم يحددها بعد.

بعد دقائق فقط، انتبه ميسرة إلى أن ثمة ما هو غير مألوف، قد حدث.. وأدرك أن حالته النفسية ساهمت في جعله يتصرف بسلوك غير جيّد مع فضل الله. وحاول تلافي ما حدث باللحاق به، فوجده قد غادر الشارع القريب، واختفى بعيداً عن الأنظار وسط أزقة غير محدودة العدد، تقع وراء البيت الصغير، في ضواحي أم درمان الغربية.

عاد ميسرة إلى البيت، وما زالت الحالة الجنونية تسيطر عليه، وهو يُكلّم نفسه بصوت مسموع: "المزيد من الانتقام.. المزيد من الانتقام".

كان يتوقف عن الحركة في الغرفة دون هدف، ليسأل نفسه: "ما الذي أفعله يا ربي بالضبط.. هل أنا أنا؟.. أي قوة خفية تلك التي تُحرّكني، دون أن أدري، لفعل أشياء غير مفهومة؟".

أمسك بنسخة الكتاب التأسيسي التي وضعها فضل الله على السرير، قلّبها سريعاً، دون أن يتوقف عند فقرة أو سطر محدد.. في حين كان عقله يشتغل مثل (موتور) سريع الحركة، غير قابل للتوقف عن الدوران، وهو يصارع كوابيس اليقظة التي يراها أمامه.. فقد تمثّلت له أكثر من شخصية في الوقت نفسه، كان قد اجتمع بهم هنا في هذه الغرفة، هم: خالد، السر، هيثم، شهاب، منير، مرتضى.. وتخيّل أن سقف الغرفة

يرتفع شيئاً فشيئاً لينزاح تدريجاً، عن سماء ممتدة ملونة بلون الدم.

شعر بخوف كبير يسيطر عليه، وأمسك بقلبه الذي دقّ عجولاً في الجسد المترهل الضخم، ودون أن ينتبه كان قد رفع نسخة الكتاب التأسيسي من جديد، ليبدأ بتمزيقها، بشكل عبثي، ثم رمى بالأوراق في أكثر من اتجاه، لتتناثر على شكل خيالات للشخوص أنفسهم الذين تمثّلُوا أمامه، قبل قليل.

... كانوا يجولون في المكان، ويصرخون فيه. ورأى خالد يتقدم نحوه بخنجر حاد يحاول غرسه في الكرش الكبيرة.

صرخ ميسرة: "لا..لا"..

لم يكن ثمة من يسمع له، حتى الصوت كان يغادر من النوافذ غير آبهٍ بالعودة ..

... وبتزايد الخيالات والصور في الذهن، انهار ميسرة تماماً من الناحية النفسية، وبات غير قادر على تمييز الأشياء، ليرتمي على السرير، دون أن يُميّز المكان الذي فيه، وهل هو ذلك الرجل الذي تجاوز الأربعين من العمر مُضلّلاً في العالم، أم أنه ذلك الطفل الصغير الذي يتمشى في حواري الرميلة، حيث كانت الحياة تنساب مثل نهر شفاف؟

لم يدرِ ميسرة كم من الزمن مضى، عندما أحس بشخصين يقفان على رأسه، وبصعوبة استطاع تمييزهما ساعة

فتح عينيه، دون أن ينتبه الشخصان.. فتحهما بشعور طفل يدخل العالم لأول مرة، ولكن دون أن يصرخ.

أحدهما فضل الله، ويبدو أنه قد عاد مرة أخرى، والثاني سفيان موسى بشعره المُجعّد وشفتيه الصغيرتين وعينيه الغائرتين، مثل عيني ضفدع.

رآهما يلملمان الورق المتناثر على الأرض، واستطاع أن يسمع جزءاً من الحوار الذي يدور بينهما، في لحظة تشبه الحلم، دون أن يميز ما قاله كل منهما.

- هل من الممكن أنه قد مزّق الكتاب؟

- لكن ما السبب الذي يدعوه إلى ذلك.. إذا كان هذا قد حدث فهو مؤشر غير جيّد.

- هل من الممكن أن يكون شخص ما قد جاء إلى هنا، وفعل ذلك؟

- أترى أنه نائم بطريقة عجيبة؟!

كان الجسد الهائل قد انكفأ إلى أسفل، بطريقة غريبة تدعو إلى الضحك، لكن فضل الله وسفيان لم يضحكا، فقد كانا يفكّران في الوضع المزري الذي وصل إليه القائد.

أخبر فضل الله، سفيان:

- إنه يرفض الإفصاح عن أي شيء؟

- لو تحدّث لفهمنا.

- بالطبع.. لا يمكننا أن نفهم دون إفادة.

- ترى ما الذي جرى؟

استمر ميسرة يسمع جزءاً من الحوار، وتغيب عنه بعض المفردات؛ أحياناً عبارات كاملة، وكان يُفكّر أنه وصل إلى درجة يصعب تفسيرها، أو التحكم فيها.. حالة لم يعشها من قبل، وحدّث نفسه: "لم أكن أظن أنني ضعيف إلى هذه الدرجة.. في الماضي كنت أتحدّث عن مشوار طويل، هل يكون من المنطقي أن أسقط في أول عتبة؟".. وقد كان يظنّ أنه يتحدث هامساً لذاته، ولم ينتبه إلى أن صوته كان مسموعاً.

بسماع فضل الله وسفيان العبارات التي تدعو إلى الشفقة على مصير القائد، شعرا بالخوف.. وأسرع كل منهما لاحتضان الآخر دون تفكير وبشعور تلقائي، خاصة بعد أن شاهدا عينين مخيفتين في وجه ميسرة، لا تشبهان العينين المألوفتين لهما، واللتين كانتا تبدوان من قبل كما لو أنهما تشعان نوراً هادئاً؛ هما الآن ترسلان شواظاً من نار، هكذا يتخيل من يراقبهما.

تناقش عضوا مجلس القيادة أنه من الضروري الاستعانة بطبيب لمراجعة الحالة التي يعانيها القائد، وتوصلا إلى أن الطبيب لن يفيد شيئاً، حيث من الواضح أن المشكلة نفسية لا جسدية.

لم يكن أمامهما وقت لمحاولة الفهم، ما الذي حدث بالضبط، حيث أسرع سفيان لوضع كمادات باردة على رأس ميسرة، في الوقت الذي تولى فضل الله تمديد رجلي القائد

المكتنزتين باللحم على السرير، وبصعوبة استطاع أن يزيح القدمين ليضعهما في وضع مستقيم مع الرأس.

لم تمض سوى ثوانٍ حتى كان ميسرة قد دخل نوماً عميقاً جداً، وهو يتنفس بشخير وزفير عاليين.

كان صدره يرتفع ويهبط سريعاً، في حين كانت شفتاه تتحركان كأنه يُكلّم عالماً آخر أو كائنات يراها في منامه.

قام فضل الله بتغطية ميسرة وسحب سفيان جانباً، قائلاً:

- لنتركه ينام بهدوء.. سوف نفهم كل القصة لاحقاً.

33

استيقظ اللواء طه في الصباح الباكر، على نبأ لم يكن يخطر على باله البتة: تنفيذ حكم الإعدام شنقاً حتى الموت في مجموعة الشباب الخمسة الذين لا يدري حتى الآن، هل هم من قاموا بجريمة اغتيال السيد العربي في الواقع أم لا! .

كان الخبر مفاجئاً بالنسبة إليه، ففي الوقت الذي كان يتوضأ ليصلي الصبح متأخراً بعد شروق الشمس، سمع صوت المذيع عبر الراديو من إذاعة أم درمان، يعلن النبأ ضمن أخبار السادسة والنصف صباحاً، أُولى نشرات اليوم.

قطع اللواء وضوءه، حيث أسرع لسماع باقي الخبر، الذي جاء مقتضباً، ولم ترد فيه أي تفاصيل سوى: "أن رئيس الجمهورية وقّع قرار تنفيذ الحكم، الذي تمّ فجراً".

دون أدنى تفكير، وعلى نحو تلقائي قد لا يفهم إلا لصاحبه، أسرع طه لارتداء ملابسه العسكرية، وقاد سيارته بسرعة جنونية وسط شوارع الخرطوم، حتى وصل إلى مبنى جهاز الأمن، ليقف عند البوابة الرئيسية، حيث اعترضه حارسان يحملان سلاحهما، ولكن بعد أن أخبرهما أنه يريد مقابلة السيد شمس الدين عمر، طلبا منه الانتظار لدقائق.

أجرى أحدهما اتصالاً هاتفياً بجهاز اللاسلكي، ليعود ويخبر اللواء، بأن شمس الدين لم يصل بعد.

على عكس العادة، كان شمس الدين قد وصل إلى مكتبه مبكراً، لكن الحارسين، وفي هذا الصباح بالتحديد، كانت لديهما تعليمات بأن لا يستقبلا أي أحد، مهما كانت درجته أو منصبه، قبل أن يستشيرا المسؤولين.. بالتحديد سماع إفادة من شمس.

استغرب اللواء رد الحارس: "فهل لم يكن يعلم بأن شمس الدين في الداخل أم لا؟!".. وأصرّ على الدخول، بعد أن اختطف جهاز اللاسلكي، متابعاً المكالمة التي بدأها الحارس ليسمع جزءاً منها. وعلى الفور استطاع أن يتبين أن الطرف الذي كان يتحدّث من الجانب الآخر هو المعاون شمس الدين عمر الذي يتولى حالياً إدارة الأمن، دون أن يصدر قرار رسمي بذلك.. وقد ميّز اللواء الصوت، رغم أنه لم يقابل صاحبه منذ أكثر من خمس سنوات، عندما كان لا يزال مجرد ضابط صغير في الأمن.

ضغط اللواء على زر التشغيل في اللاسلكي، فردّ عليه شمس الدين الذي اعتقد أن الحارس لا يزال يكلّمه، ولم يتوقع أن يكون المتحدث هو اللواء طه:

- قلت لكم إنني لا أرغب في مقابلته، تصرفوا معه.

قالها بلهجة صارمة.

صرخ اللواء بغضب:

- هل هذه أخلاقكم؟!، هناك أمر ضروري.

أدرك شمس الدين أن الذي يتحدّث هو اللواء طه، وفكّر بسرعة أن يغلق الجهاز، لكنه سمع اللواء يقول له صارخاً، من جديد:

- إذا لم يُسمح لي بالدخول فسوف يكون تصرفي جنونياً.

ارتبك الحارسان، ولم يبديا مقاومة لانتزاع اللاسلكي من اللواء، خاصة أنهما تأكدا من هو الشخص الذي يقف أمامهما.

في تصرف مفاجئ قاد اللواء سيارته بعنف، رجع بها إلى الخلف، ثم تحرّك إلى الأمام بقوة، ودون سابق تفكير كان قد اصطدم بالبوابة الرئيسية، وسط خوف وذهول شديدين سيطرا على الحارسين، اللذين لم يقدرا على التصرف أمام "الحالة الجنونية" التي أصابت مدير عام الشرطة، الذي كان قد ظنّ أن تصرفه هذا سيقود الحارسين لفتح البوابة، قبل أن يرتطم بها.

جاء صوت الارتطام قوياً، ومسموعاً لمن هم في داخل المبنى والعابرين في الشوارع المجاورة. ونتيجة للحادث العنيف تهشمت السيارة من الأمام في حين بدأ الدم بالنزف من رأس اللواء، ليغطي مساحة واسعة من مقعد السيارة الأمامي.

في الوقت الذي كان الدم يسيل مندفعاً، كان اللواء يسأل نفسه وهو يتألم بشدة، عن السبب الذي جعله يُقدم على هذا

الفعل المجنون.. حيث إنه قام بكل ذلك، دون أن يضع لعقله مجالاً للتفكير.. فقط دفعه قلبه لكل التصرفات التي أقدم عليها من لحظة مغادرته البيت على عجل، دون أن يستجيب لنداء زوجته التي كانت تسأله: "ما الذي يحدث؟".. إلى اللحظة التي ارتطم فيها بالبوابة ذات السياج الحديدي القوي.

تجمع عدد كبير من الناس في المكان، بعد أن ترجّلوا من سياراتهم، وبعضهم كانوا يسيرون على أقدامهم.. تجمهروا بدافع الاستطلاع، ليفهموا ما الذي يجري بالضبط!. في حين خرج عدد من موظفي الأمن والضباط إلى الخارج، بعد سماعهم الصوت القوي.. بينما كان شمس الدين لا يزال في مكتبه، رغم أنه سمع الصوت المرعب، وفهم على الفور أن اللواء قد ارتكب حماقة ما.

تأكد شمس الدين بنفسه مما حدث، وبدأ يسأل نفسه عن السبب الذي جعل اللواء يتصرّف على هذا النحو، ووصل في تفكيره إلى: "أن الرجل ربّما وصل إلى حالة نزاع كبير مع نفسه، بحيث بات غير قادر على الاستمرار في الخديعة التي وقع فيها".. واستغرب أن يتصرف اللواء بهذا الشكل، قال لنفسه: "طالما كان يرغب دائماً في أن يحقق مكاسبه بشتى السبل، حيث لم يُعرف عنه في الماضي أنه كان مصادماً أو قادراً على المواجهة، لكن يبدو أن اللواء قد تغيّر".

وصلت سيارة الإسعاف وحملت اللواء إلى المستشفى، بعد أن فقد وعيه نتيجة الارتطام القوي.. بعد دقائق قرر

الأطباء: "أن الرجل يتعرّض لنزف داخلي شديد في الرأس، قد يودي بحياته".

***

تسربت أنباء الحادث إلى الصحف، التي كتب بعضها في اليوم الثاني: "أن اللواء طه تعرّض لحادث مروري"، في حين آثرت أكثر الصحف عدم نشر الخبر، رغم علمها بجميع المجريات المتعلقة بما جرى، حيث صدرت توجيهات واضحة من الأمن للصحف بـ: "عدم إيراد أي معلومات عن حقيقة ما حدث، والاكتفاء بالقول إن مدير عام الشرطة يرقد الآن في سرير المستشفى بعد أن تعرّض لحادث مروري".. كان الأمن قد زاد قبضته على الصحف وتوجيهه له في الأيام الأخيرة.. وفي الواقع كانت جلّ الصحف قد انشغلت بالمانشيت الرئيسي المتعلق بإعدام الشباب الخمسة.

لحُسن الحظ فإن اللواء لم يفقد حياته، ولسوء الحظ فقدْ فقدَ ذاكرته.. ففي اليوم الثالث استيقظ من الغيبوبة، واستطاع أن يتحدّث مع الذين حوله، دون أن يفهموا شيئاً من كلامه. لقد بات واضحاً لكل من زار الغرفة الخاصة بالمستشفى العسكري بأم درمان أن طه يعاني فقدان الذاكرة، بحيث أصبح لا يُميّز أقرب الناس إليه.

كانت زوجته أول من أدرك هذا التغير الذي حدث

لزوجها، حيث خاطبها وكأنها كائن غريب لم يتعرّف عليه من قبل.

... وعندما زارته (تريزا) نظر إليها طويلاً، دون أن يكون في إمكانه تذكر من تكون تلك العجوز التي تقف أمامه، في الوقت الذي كانت تريزا تصرخ فيه: "أنا الجدة تريزا يا سعادة اللواء".. أيضاً وصل عبد الحفيظ إلى المستشفى بصحبة بروك، وخرجا دون أن يتعرّف عليهما.

استمر اللواء طه في عقله الباطن يرى صوراً مشوشة لأحداث وشخوص بات لا يعرف كيف يميّز بينهم .. فتارة يرى محجوب العوض دون أن يعرف من هو ذلك الشخص، وتارة ثانية يرى شمس الدين عمر، وتارة ثالثة يرى وزير الداخلية مدثر البكري.. الشيء الوحيد الذي كان مرسوماً في ذهنه بدقة: مشهدٌ لم يره في الواقع، مجموعة من الشباب الذين تمّ إعدامهم معلقون على المشانق، وهم يصرخون: "كفى.. لسنا مجرمين".."نحن لم نقتل العربي".."ابحثوا عن المجرمين الحقيقيين"..

هذه العبارات التي كان اللواء يتخيّل أن الشباب يصرخون بها، باتت مسموعة لكل الموجودين في الغرفة.. وقد صرخ بها أكثر من مرة أمام وزير الداخلية في اللحظة التي وصل فيها إلى المستشفى، للدرجة التي جعلت الوزير يشعر بخوف ما، ويذهب بتفكيره الباطن إلى: "أن اللواء كان يدرك جزءاً من اللعبة!".

ما جعل الوزير يشعر بالطمأنينة بعض الشيء أن الطبيب أخبره بـ: "أن حالة اللواء طه سوف تستمر في التعقيد لخلل في الدماغ، وليس من المستبعد أن تتدمّر الذاكرة نهائياً". غير أن القلق لم يغادر مدثر البكري نهائياً، والذي كان هو الآخر يعاني وضعاً نفسياً سيئاً، منذ سماعه نبأ إعدام الشباب الذين يعلم أنهم لم يرتكبوا جريمة اغتيال السيد العربي، بحسب إفادة محجوب العوض.

***

في الليل لم يستطع الوزير أن يمارس هوايته في أكل السمك المشوي، أو احتساء الويسكي، حيث كانت تلحّ عليه رغبة في الاتصال بشمس الدين عمر ليفهم منه حقيقة ما جرى مع اللواء، فقد كانت لدى البكري معلومات مؤكدة عن "الحماقة" التي ارتكبها اللواء أمام بوابة مبنى الأمن، دون تفاصيل واضحة عن الحادثة، فما تناقله المسؤولون ذهب إلى أكثر من تأويل ورواية لما حدث..

التفكير المتواصل منع الوزير من الجلوس بهدوء في بيته، مثلما تعود أن يُقضّي الليالي وحيداً، وقد شعر بأنه في حاجة للكلام مع شمس الدين بأي شكل كان.. ولكن: "ماذا سيقول له، أو سيسمع منه؟".. لم يكن يحمل أي تخطيط مسبق.

دون أن يُفكّر كثيراً كان قد اتصل بشمس الدين هاتفياً وسأله:

- ما حقيقة ما جرى أمام مبنى الأمن؟

لم تعجبه الطريقة التي تحدث بها شمس الدين، حيث ردّ:

- لقد سمعت بما جرى مثلكم تماماً.

يقدّر البكري أن شخصية شمس الدين ليست بقوة شخصية محجوب العوض، لكنه في الوقت ذاته يرى أن: "شمس الدين شخص أناني ومخادع وقاتل من الدرجة الأولى، فقط ما ينقصه هو: عجزه عن المواجهة، وإذا استطاع الطرف الثاني أن يضغط عليه في الكلام، سوف يجده سرعان ما ينجرُّ إلى الحديث.. من دون أن يكون الطرف الثاني قادراً على التمييز: هل الرجل يتحدّث بالحقيقة أم أنه يصوغ روايات من خياله الجامح لأشياء لم تحدُث ؟!. وربما كانت تلك نقطة قوة تجعله محبوباً لدى بعض المتنفذين في الحكومة، والذين كانوا يرون فيه أنسب خليفة لمحجوب العوض، وقد ظلوا في انتظار اللحظة التي يشغل فيها شمس الدين المنصب الشاغر.. لكن ذلك لن يكون ممكناً إلا أن يتم التأكد بشكل تام بأن العوض لم يعد له مكان على الأرض، وهو الأمر الذي ظلّ لغزاً لم يحل بعد".

إدراك الوزير لهذه الجوانب من شخصية شمس الدين، جعله يتكلم معه بطريقة مختلفة عن العوض، في محاولة لجعله يخرج على حالة الغضب الواضحة التي كانت تسيطر عليه.

قال البكري لشمس الدين:

- أعتقد سيد شمس الدين أنني أفهم جيّداً الطريقة التي تعملون بها، ولا يخفى عليك أنني أتعاون معكم، هذا العهد الذي بدأ بيني وبين محجوب العوض.. غير أن ما ينبغي أن تفهمه بشكل أفضل أن الوضع الآن بات غير مطمئن.. صحيح أن حادثة اللواء لم تُعرض في الإعلام كما جرى في الواقع، لكن الناس يعرفون.. لا أحد يجهل ما حدث.. وبطبيعة مركزي كوزير للداخلية يجب أن أتصرف بشكل منطقي ومقبول.. لهذا يجب أن تتعاون معي، حتى لا تكون خطواتنا متعاكسة، كلٌّ يسير في اتجاه مختلف عن الآخر.. السيد العوض كان ملماً بهذه التفاصيل وكان لدينا اتفاق مشترك للتعاون.

سكت لثوانٍ، وأضاف:

- كان العوض يعرف مصلحة جهاز الأمن تماماً، وأنت لا تنقصك الخبرة التي تجعلك أهلاً لمواصلة مشواره.. فقط ما ينقصك هو أن تكون واضحاً معي من أجل المصلحة المشتركة لا غير.

ردّ شمس الدين بطريقة مخادعة:

- أي اتفاق بينك وبين السيد العوض؟!.. أنا شخصياً لا أعرف شيئاً عن هذا الاتفاق.

لم يستغرب الوزير الردّ.. صمت لثوانٍ وقال:

- لا بأس إذا كنت لا تعرف شيئاً عن ذلك الاتفاق، فلنبدأ خطوة جديدة معاً.

- سعادة الوزير.. نحن نتحدث بالهاتف!، لا تنسَ هذا الأمر.. عموماً سأكتفي بالقول، ليست لدي أدنى فكرة عمّا كان بينك وبين السيد العوض.. أكرر: يمكنكم انتظار عودة العوض لكي تواصلوا تعاونكم معاً.. مع السلامة.

أغلق شمس الدين الخط، في حين كان الوزير ينتظر أن يسمع إفادة إيجابية.. ولكن كانت المحصلة دون فائدة.

فهم الوزير أن تصوره الشخصي عن شمس الدين لم يكن دقيقاً، ربما لأنه اعتمد على صورة ذهنية لما كان عليه الرجل قبل أربع سنوات.

قال الوزير لنفسه: "في ظلّ الأوضاع التي نعيشها يكون من الصعب أن تضع تصوراً صحيحاً لمدى طويل عن أي شخص.. فالناس تتحرك وفق قاعدة القوي والضعيف.. يبدو أنه قد فهم أنني في موقف الضعف، وأنني مجرد وزير شكلي لا يود سوى حصد المزيد من (الشيكات).. من الغباء تصوري بأنه لا يعلم أي شيء عن الاتفاق مع العوض.. فهما مقربان أحدهما من الآخر، ويعملان بعقل واحد".

وصل الوزير إلى نتيجة سريعة: "أن يظلّ محافظاً على وضعه بألا يفكّر في مجريات ما يحدث من حوله، فهو مهما فعل لن يقدر على تغيير الأحداث، لأنه يظلّ طرفاً ثانوياً، فهناك من هم أكثر نفوذاً وقدرة على تحريك دفة الأحوال".

كلّم نفسه من جديد، ولكن هذه المرة بصوت مسموع: "ما الذي يزعجني إذا كان اللواء قد بات لا يتذكر الماضي؟".

سرح مع ذاته يقول: "طوال أكثر من خمسين سنة، لم يتغير هذا البلد، وكأن التاريخ يتكرر بالطريقة السمجة نفسها.. هل من المعقول أن يظنّ الناس أنك مسؤول وفي أقوى المراكز بالدولة، وأنت لا تعرف في واقع الأمر أي شيء عن حقيقة ما يحدث من حولك؟!.. إنه لأمر غريب، لا يُصدق أبداً لمن هو بعيد عن الصورة!".

استرجع الوزير في ذهنه أكثر من حادثة تكاد تشبه الذي يحدث اليوم نفسه، كان وقتها في مركز قرار؛ ولكن بالاسم..

وصل إلى التالي: "هنا لا تعرف بالضبط أين يقع مركز القرار؟.. عليك أن تؤدي دورك وتغادر، وربما تعود مرة أخرى إلى النقطة نفسها التي خرجت منها، لتجد أن اللعبة تواصل ذاتها وبالطريقة نفسها".

***

شمس الدين هو الآخر، وبعد أن أغلق الخط في وجه الوزير، لم يكن مطمئناً بما يكفي، وكان يُفكّر مع نفسه في احتمالات الغد: "ما الذي يمكن أن يحدث إذا ما اتضحت الحقيقة: أن هؤلاء الشباب لم يكونوا المجرمين الذين قتلوا العربي؟!".

وذهب في سؤال ذاته عن جدوى ما يقوم به: "لماذا آثر أن يستمر في المنهج نفسه الذي رسمه العوض في تسيير الأمور، أما كان من الأفضل له أن يقرر طريقه الخاص؟!".

لم يطل تفكيره، حيث وصل إلى الخلاصة التي لا مفر من مواجهتها: "أن كثيراً من الأمور، بل كل الأمور ليست بيده، بل بيد أناس آخرين، سواء تعلق الحال به أو بالعوض أو بالوزير".

حدّث نفسه بانفعال وغضب، يتقاطعان مع حالة من عدم الرضا: "هل من الممكن أن يصل الإنسان إلى هذه الدرجة من التسليم للآخر، في سبيل أن يستمر في متاهة لا يعرف كيف بدأت ولا كيف ستنتهي؟!".

كان لديه الكثير مما يمكن أن يثرثر به لنفسه، لكن حالته النفسية، كانت قد تعثرت من حيث القدرة على الاستمرار في التفكير على نحو إيجابي.

... وفي اللحظة التي ظنّ فيها أنه سيطر على ذاته ليتخذ خطوة إيجابية بالانتصار لنفسه والمواجهة، مهما كانت النتائج.. في اللحظة نفسها كان غير واثق بالظروف التي تُشكّل ما حوله، وغير واثق بالناس الذين يصنعون هذه الظروف.

ضرب بقوة على طاولة المكتب، حيث ظلّ في مكتبه لا يغادره ليومين دون أن يفهم السبب الذي يدعوه إلى فعل

ذلك: "هل هو خائف؟ أم مجنون؟ أم محاصر بأحلام لا تتشكل إلا بتوجيهات الآخرين".

لم تمر سوى نصف ساعة على إحساسه بالانتفاض، وأن ذاته باتت مشحونة بالثقة، حتى دخل عليه في المكتب لؤي سليمان، دون سابق إبلاغ، ليتحول شمس الدين مجدداً إلى كائن تافه لا يملك قراراً ولا يثق بذاته.. فسرعان ما وجد أنه وقف بطريقة آلية، مرحباً بلؤي.

لم يجلس إلى أن جلس لؤي، الذي قال مع ابتسامة صغيرة:

- لقد آن الوقت لإغلاق ملف اغتيال العربي، والبدء بأمر جديد.

انتظر شمس الدين، ليسمع من لؤي ما هو ذلك الأمر الجديد، ولم يكن لديه أي فكرة مسبقة عمّا سيحكي عنه الرجل: "فدائماً تأتي مهام لؤي بشكل مستعجل ومفاجئ، دون أن يكون لدى قادة الأمن علم بها من قبل".

واصل لؤي كلامه، بعد أن صمت قليلاً، وأشعل سيجارة تشرّد دخانها عبر النافذة المفتوحة إلى الخارج:

- الآن فقط سيبدأ دوركم بالبحث عن المجرمين الحقيقيين.. هذا مهم بالنسبة إلينا، لا للشعب..

- ولكن سيدي!..

قاطعه شمس الدين لأنه رأى: "أن ما يقوله لؤي ليس أمراً جديداً كما كان يتوقع، بل هو انتقال لخطوة جديدة في

القضية نفسها".. لكنه استدرك: "أن لؤي في بعض الأحيان يتحدّث وهو يعني ما يقول، حتى لو كانت مفرداته غير موفقة في تقدير، من يستمع إليه".

قال لؤي لشمس الدين بلهجة انفعالية، وهو ينفث كمية من الدخان بغضب، عبر منخريه:

- من الأدب أن تتركني أكمل كلامي.

- عفواً تفضل سيدي.. آسف لمقاطعتك.

- إذا كنا قد نجحنا في تضليل الرأي العام، وإسكات أسرة المرحوم، فالتحدي الذي يواجهنا أن نُسكِت ضمائرنا.

كاد شمس الدين أن يضحك عندما سمع كلمة (ضمائر).. لكنه تمالك نفسه، في انتظار ما سيقوله لؤي:

- نريد خطوة عملية تثبت قدراتكم على تحديد من قام باغتيال العربي؟

- سيدي.. حتى الآن ومن خلال ما يتوافر لدينا من معلومات فإن خالد ورفيقيه هم من قاموا بالجريمة.

- ليست لديكم الأدلة الكافية.. هذا ليس أسلوباً جيّداً للعمل.. أريد إفادة جادة ومصحوبة بالأدلة.

- سنبذل ما بوسعنا سيدي لمعرفة كل شيء، أمهلنا ثلاثة أيام فقط..

- ثلاثة أيام ليست فترة طويلة، وسنرى.. على كل حال إذا لم تقوموا بخطوة عملية وناجحة في تقديري، فاستعد أنت شخصياً لتغادر منصبك، مثلما أجبرنا العوض على المغادرة..

صمت لؤي، وأضاف متأملاً عيني شمس الدين المرعوبتين:

- هل يعلم أحد مكانه الآن؟.. أنت نفسك لا تعلم، ولا سواك من وزراء أو حتى رئيس الجمهورية.. لؤي وحده الذي يعلم..

بالطبع لم يكن شمس الدين يعرف أين اختفى محجوب العوض، وهنا لم يكن يدرك أن لؤي يتحدّث كاذباً... يمارس لعبة استفزازية هدفها التخويف، الإيهام بأن كل شيء تحت السيطرة:

- إذا لم تسر في الخط الصحيح سوف تفقد كل أحلامك في تولي منصب مدير الأمن، خلفاً للعوض الذي تمت إقالته من طرفنا.. سيكون مثواك الذهاب إلى الشارع، والاختفاء، أن يكون اختفاؤك لغزاً كما حدث مع مديرك السابق..

ما فكّر فيه شمس الدين عندما سمع العبارات الأخيرة: أن صديقه قد تكون جرت تصفيته من قبل الكبار لأسباب غير مفهومة، بالنسبة إليه..

قال لنفسه: "كل شيء جائز وممكن.. وإذا ظننت أنني أفهم كل اللعبة فهذا مجرد كذب على نفسي.. أمثال هؤلاء الذين لا ضمير لهم، يمكن أن يقوموا بأي فعل من أجل مصالحهم.. ألم يأتِ إعدام الشباب الخمسة هكذا، ودون سابق إنذار أو علم لي، رغم وعد هذا السيد الذي يقف

أمامي بأنني سأكون على اطلاع على الخطوات كافة بخصوص قضية هؤلاء الشباب".

وجد شمس الدين أنه أمام موقف مُربِك للغاية، حيث تشتت ذهنه، ولم يستطع أن يتكلم بمفردة واحدة، أمام الرجل الذي لا يعلم ما هو منصبه في الحكومة بالضبط، لكنه قادر على فعل كل شيء، أكثر من أي مسؤول آخر، وقراراته نافذة..

أخيراً تكلّم:

- سيدي سمعاً وطاعة.. سنقوم بالواجب.

قبل أن يغادر لؤي وبعد أن وصل إلى باب المكتب، عاد من جديد ليسأل شمس الدين بطريقة ساخرة:

- هل تلقيت أي اتصال من هذا الذي يدعونه وزير الداخلية؟

- نعم وطلب التعاون معنا.. معه.. لم أفهم.

ضحك لؤي بصوت مسموع، أشعل سيجارة أخرى، قال:

- لا تهتم به كثيراً، ومن الأفضل أن لا ترد عليه، فقد انتهت مهمته، قريباً سيعود إلى بيته ليتفرغ لحكّ قضيبه المعطل.

استمر لؤي في الضحك، وكان على شمس الدين أن يسايره وأن يضحك مثله، لكن (المفاوض) لم يحفل بالضحكة التي كانت تأتي مثل صدى لضحكته.

خرج من الباب الخشبي الواسع، دون أن يقول وداعاً، تاركاً صاحبه يستمر في الضحك بشكل هستيري، فاقداً السيطرة على مشاعره وتصرفاته.

كان ذهن شمس الدين قد تعطل تماماً بتراكم أكثر من فكرة وأكثر من تصرف، كان يمكن أن يفعله أمام لؤي، لكنه لم يفعل أي شيء غير الاستسلام لكائن رآه متوحشاً، غير مفهوم، لا أحد يتكهن بدوره ولا موقعه، ولا من أين جاء، أو أين سيحط رحاله، هذا الغريب!!..

ارتفع صدى الضحك في المكان، وشعر شمس الدين برغبة مفاجئة في التغوط، حيث عادت مصارينه للهيجان، بعد أن تعافى من ألم المصران منذ أكثر من سنتين.

قبل أن يصل إلى الحمام، دهمه إسهال مستعجل، لم يطق الانتظار ليدعه يصل إلى المقعد.. ومع هذه الحالة وقف ينظر إلى بنطاله الذي تلوث، فيما انهمرت الدموع غزيرة من مقلتيه.. لقد كان يبكي دون أن يفكّر في أي أمر آخر في هذا العالم، سوى البكاء..

34

نهار إعلان نبأ إعدام الشباب الخمسة، الذي لم يعلم به ميسرة بعد، كان سفيان موسى يسير في وسط الخرطوم، منهكاً، مشغولاً بمصير القائد الذي تركه في وضع لا يسر.. في حين كان يقول لنفسه: "هذا الخبر السعيد لاشك أنه سيجعل القائد يعيش حالة من الفرح تنتشله مما هو فيه".

قبل أن يستغل المواصلات العامة ليصل إلى مكان سكنه بالخرطوم بحري، لمح أمامه شاباً لم يره منذ فترة، وبسهولة استطاع أن يتعرّف عليه من بعيد، وسط الزحام بميدان (أبو جنزير) الواقع في وسط العاصمة: "إنه منير أحد أعضاء الخلية، الذي التقى القائد قبل عدة أسابيع".. في الوقت نفسه كان منير قد لمح سفيان، فأسرع ليسلّم عليه.

لاحظ سفيان أن الشاب قد قلّ وزنه كثيراً، عن المرة الأخيرة التي قابله فيها، وهو يدخل للقاء ميسرة بصحبة شاب آخر لم يتذكّر اسمه الآن.

سأل سفيان، منير:

- أين اختفيت يا رجل.. لم أرك مرة أخرى منذ يوم لقائك العقيد؟، صديقك...

- شهاب.

- هل كان اجتماعكما مع القائد ناجحاً؟

لاحظ سفيان أن منير قد ارتبك بعض الشيء، عندما وردت كلمة (اجتماع)، لكنه لم يصل في باله إلى أي فكرة سلبية بشأن ذاك الاجتماع.. فقط تذكّر أن ميسرة كان قد أخبر القيادة بأنه سُيكلِّف الشابين مهمة سرية، سوف يُعلنها لاحقاً لمجلس قيادة الخلية، ولم يحدث ذلك حتى هذه اللحظة.

لم يكرر سؤاله، ليسمع إجابة محددة، فقط كان يتحدث بشكل روتيني، وما لم يتوقعه أن يأخذ منير السؤال على محمل الجد.

... وفي الوقت الذي ظنّ سفيان أن منير سيتكلم بإيجابية عن ميسرة، وعن الاجتماع، ويُعبّر عن سعادته لكونه حظِي بلقاء القائد لأول مرة، كما جرت العادة مع الأعضاء الذين يقابلون العقيد للمرة الأولى. إلا أن منير خيّب ظنّه عندما قال:

- لا أدري سيدي هل أنا سعيد لكوني قد أصبحت عضواً في الخلية أم لا؟

قال منير ذلك، وقد بدا عليه الحزن الشديد المصحوب بحالة من الخوف.. لاحظ سفيان هذا، أيضاً.. لكنه لم يقاطع الشاب وتركه يكمل ما بدأه من كلام.

منير لم يقل بعدها شيئاً حيث ظلّ صامتاً، وكأنه ينتظر

من سفيان أن يُوجّه له سؤالاً محدداً عن السبب الذي يجعله غير سعيد.

***

يدرك منير جيداً أن ما جرى في ذلك الاجتماع يجب ألا يقال لأحد من الخلية، حتى لو كان من مجلس القيادة، كما أوصى القائد بذلك، عندما شدّد بأن مصلحة الخلية تقتضي هذا الأمر، وقد التزم منير ذلك، مثلما التزم شهاب.

بعد عدة أيام من تنفيذهما مهمة الاغتيال، كان الاثنان قد التقيا، بعد قلق نفسي مُدمِّر حاصرهما، حيث وجد كل منهما أنه كان في حاجة للقاء رفيقه ليحكي له عن هواجسه.

قال منير لشهاب:

- رغم إيماني بما جاء في الكتاب التأسيسي للخلية وتعليمات القائد، إلا أن ما أقدمنا عليه يجعلني أشعر بألم شديد.. فما قمنا به ليس أمراً سهلاً.. تخيّل أنك تقتل إنساناً مثلك، ليس واحداً بل ثلاثة من البشر لهم حياة عريضة وأهل وقلوب ودماء تجري في عروقهم.

يبدو شهاب وبشكل ظاهر أقل توتراً من منير، وقد أحس بأن وجوده بجوار مُشارِكه في العملية يُشعِره بالطمأنينة، فتشجّع ليرى أن ما فعلاه لم يكن جريمة، كان يقول ذلك بكلام مبرر وواضح مستعيناً بفقرات من الكتاب التأسيسي،

غير أنه في حديثه الداخلي مع نفسه، قال شيئاً مختلفاً في بعض الأحيان: "لا أنكر أنني خائف ولا أدري ما الذي يمكن أن يحدث في الغد؟.. فإذا قبضوا علينا فسوف نجد أننا معلقون على حبل المشنقة".

استعاد منير ذلك اللقاء الوحيد، بينه وبين رفيقه، وبعدها لم يلتقيا قط إلى اليوم، وظلّ منير يعاني الضيق النفسي والألم بسبب ما أقدم عليه.

أحياناً يصل إلى يقين بأنه وفي ظلّ كُفرانِه بكل ما حوله في الحياة، يجد أن فعل القتل لا يعني شيئاً: "ماذا يعني أن تقتل إنساناً؟!.. لا أعتقد أن الأمر مخيف إلى هذه الدرجة، فأنت تُعطّل أحد أجهزة الحاسوب الموجودة في هذا العالم.. ذلك الحاسوب البيولوجي كما يُسمّيه ميسرة في الكتاب التأسيسي" ..

أحياناً أخرى، لاسيما في منتصف الليالي يشعر بالأرق وهو يخفي سراً مرعباً.. يجافيه النوم، أو ينام بشكل متقطع ليرى كوابيس يستيقظ منها بهلع شديد .

لاحظه أهله بالبيت، لكنه استمر في الصمت، والمقاومة، وحالة الدوران ما بين تبرير ما فعل، عندما يشعر بقوة غريبة تملأه، والنظر إلى فعل القتل كجُرم كبير، عندما يكون في لحظات لا يستطيع فيها أن يقاوم الخوف والانكسار الداخلي.

***

من الواضح لسفيان أن منير ينتابه أمر ما، فقد ظلّ واقفاً لأكثر من دقيقتين، دون أن ينتبه إلى أن هناك أحداً أمامه. ولم يكن سفيان يحتاج لكثير تفكير ليفهم أن الشاب يعاني وضعاً نفسياً غير مطمئن.. وتخيّل أنه: "يعاني مشكلة ما، قد تكون مرتبطة بالأوضاع العامة التي يعانيها الشباب في السودان، عندما يجدون أنفسهم أسرى للتبطل والفقر، وضياع الهدف بعد التخرج في الجامعات.. يحملون أوراقاً لا تفيدهم في مستقبل الحياة، تلك الجامعات التي لا هدف لمعظمها غير الابتزاز وجمع المال، حيث لا تنظر إلى الدرجة التي حصّلها الطالب، بقدر نظرها إلى كم ستجني منه".

انتبه منير فجأة إلى أنه يقف مع سفيان عضو مجلس القيادة التي كانت سبباً في حالته النفسية التي يدخلها لأول مرة في حياته، بعد أن أصبح قاتلاً.

... ولثوان ندم بأن عبّر لسفيان عن جزء من مشاعره بعدم السعادة بقوله (لا أدري سيدي هل أنا سعيد لكوني قد أصبحت عضواً في الخلية أم لا؟)..

قال لنفسه: "لم أكن مُوفّقاً بقول هذه العبارات التي تُفهم ببساطة على أنها تحمل صورة من صور عدم الرضا.. لقد كان الاتفاق مع القائد واضحاً بألا يعرف أحد بما دار بيننا".

أسرع يبرر لنفسه: "ليس ثمة خوف، فسفيان لن يدور بذهنه ما يدور بذهني".. ثم أسرع لسؤال ذهنه: "ولكن لماذا أراد القائد إخفاء الأمر عن الخلية؟".. عاد إلى الجواب:

"القائد هو الذي يعلم بكل شيء، وهو الذي يمتلك المفاتيح التي تأسست الخلية لأجلها.. لن أضيّع التفكير في هذا الموضوع مجدداً".

وجد منير أن سفيان يفاجئه بإعادته إلى السؤال الأول نفسه:

- لم تخبرني هل كان اجتماعكما مع القائد ناجحاً؟

ارتبك منير ماذا يقول: "فالأمر سري.. وسري للغاية بتعليمات العقيد ميسرة" ..

يتذكّر ما قاله القائد: "كل شيء سوف يُفهم في المستقبل لبقية الخلية، سواء للقادة أو الأعضاء العاديين.. ثقا أنكما تقومان بعمل هام سيجعلكما من الأعضاء الذين سيسجلون في تاريخ الخلية بحروف من ذهب.. ولن يمضي وقت طويل، حيث ستكونان من القيادات المهمة.. كل القادة الذين ترونهم أمامكما لم يصلوا هكذا إلى مجلس القيادة، فقد قاموا بمهام صعبة جداً، تستدعي تضحية نفسية في المقام الأول، وتتطلب من العضو أن يكون مؤمناً أشد الإيمان بالخلية وأهدافها، وإذا سقط العضو في الاختبار فهذا يعني أنه غير مؤهل للاستمرار.. لا مكان للخوف أو التراجع إلى القيم المتوارثة والتقاليد المتهالكة.. تدركان جيداً أن الإنسان قد يشعر بالحنين إلى الماضي، أي الجهل، إلى حياة خالية من التوتر النفسي والقلق.. هذا شيء غير طبيعي، فعلى المرء أن يلازم أن السؤال والقلق، وألا يتوقف عن الفعل الذي يجعله يصل

إلى أهدافه، وفي سبيل ذلك لا تنظرا إلى الوراء، كونا شاخصين ببصركما إلى الأمام، حيث تريان أن كل فعل تقومان به إيجابي، وفقاً للتعاليم التي تلقيتماها من الكتاب التأسيسي.. لا تدعا فكرة مجتمعنا عن الخوف تُدمّر خطواتكما".

بعد استعادة كلام القائد في الاجتماع السري، عاد منير إلى قوته، وردّ على سفيان:

- كان الاجتماع ناجحاً بكل تأكيد.

لم يزد على ذلك، لكن سفيان فهم أن منير لا يريد أن يفصح عن شيء، وقد غبطه على هذا التصرف الذكي، وردّ عليه:

- افتخر بك كأحد أعضاء الخلية المخلصين.

فهم منير ما يقصده، فشكره على ثقته به.. غير أنه كان لا يزال غير مسيطر على ارتباكه التلقائي، والذي ظلّ مُلاحظاً لسفيان، الذي لم يجد بُداً من سؤاله:

- هل أنت مريض؟

- لا أبداً.

- لكن ما الذي بك؟ لقد تغيّر شكل جسدك منذ المرة الأولى التي رأيتك فيها، أيضاً أجدك مضطرباً بعض الشيء.. إذا كانت لديك مشكلة فاحكها لي، ربما أستطيع مساعدتك.. فنحن من خلية واحدة.

لو كان منير يمتلك قراره لتكلّم وفضفض لسفيان عن مشاعره وخوفه..

"لكن القرار بيد القائد".. قال لنفسه وتابع: "يجب أن لا أتعجل في الأمور.. حتى لا أفقد مستقبلي في الخلية.. لن أجعل الخوف يُدمّر خطواتي كما أوصانا العقيد".

***

ودع سفيان منير، لكن الأمور لم تمض هكذا، حيث ظلّ منير يستعيد اللقاء في ذهنه، ودخل في سؤال مُحيّر مع ذاته: "هل كان سفيان يعلم بما قاما به أم لا؟!"..

الإجابة المبدئية أنه لا يعلم لأن ميسرة كان واضحاً في طرحه بأن العملية التي سُيقدِمان عليها سرية جداً..

"إذا كان قد أخفى الأمر عن عامة الأعضاء، فيمكن فهم ذلك، أما إخفاء الأمر عن القيادة فهذا ما لا يمكن فهمه!، خاصة أن الخلية لا تزال تنظيماً صغيراً لم يتوسع، بعد"

انتهى التفكير بمنير أن قال لنفسه: "يبدو لي أن هناك لغزاً ما، ينبغي الوصول إلى حله.. فمهما وصلت القناعة بي أن أثق بالقائد، فلا يعني هذا تبرير ما قمت به بشكل كبير.. أعتقد أنني وقعت في حالة من التوهان والانفعال الذي قادني ورفيقي لارتكاب ما حدث.. يظلُّ الأمر حماقة، بل حماقة يصعب الأسف عليها، لأن اكتشافها يعني النهاية ومغادرة العالم".

أمام محاورة عقلانية للذات، وجد أنه من الضروري له

أن يتحدّث مع شخص ما، عن الهواجس التي يحسُّ بها، وعما يقوله قلبه: "إن هناك سراً غريباً وراء ما جرى، وإن المستقبل غامض وغير مضمون.. وبناء على ذلك يجب التصرف بواقعية وعدم المُضي في هذه اللعبة (القذرة)".

كرر كلمة (القذرة) أكثر من مرة، أثناء طريقه للقاء شهاب، في فترة ما بعد غروب الشمس، بعد أن وصل إلى درجة لا تحتمل من شدّ الأعصاب وسيطرة أفكار سوداوية جداً على دماغه، تشير إليه بأن القائد لا يسلم من سوء النية.. حيث سأل نفسه: "كيف يمكن تفسير ذلك أو الوصول إلى أدلة دامغة عليه؟!".. لم يكن من السهل عليه تحديد أي إجابة تكون صحيحة مطلقاً.

ولأول مرة منذ يوم الحادث، رأى منير شوارع الخرطوم باهتة لا طعم لها، تلك الشوارع التي أدمن رضاعة مساءاتها، يجول فيها من ناصية إلى أخرى، دون أن يشعر بالملل، حيث كان يجد متعة في تصور خيالات لمدينة يمكن أن تنمو في هذا المكان ذات يوم بشكل مختلف.. مدينة لا تشبه إلا نفسها، يدخلُ بها السودان بوابة جديدة في الدنيا.

عندما انضمّ إلى الخلية كانت صورة المدينة الموعودة والتي لم تتشكّل بعد، في ذهنه، تتقاطع مع الأفكار التي يدعو إليها ميسرة نور الدين.. ويتذكّر أكثر أنه في لحظات النشوة الفائضة بفرح العثور؛ على فكرة ضائعة؛ كان يبحث عنها في متاهات الوجود؛ وجد: "أن الكتاب التأسيسي

للقائد يحلُّ مكان هذه الفكرة وأن العالم يبدو مختلفاً، بعد أن تغيّرت نظرته إلى كل القيم التي كان يؤمن بها في الماضي، بدخوله الخلية كعضو رسمي".

الآن يفهم معظم القناعات الجديدة بنظرة أخرى، تحمل الكثير من الشك.. حتى أنه قال لنفسه: "هل أنا مجنون؟.. كل ما قمت به من تصرفات لا يمكن أن أفهمه بعقلي الذي افترض فيه الذكاء والحكمة!.. ذلك العقل الذي كنت أثق به كثيراً".

***

واصل منير طرح سؤاله عن العقل لشهاب، الذي وجده يكاد يعيش حالته نفسها من الشك والجدل مع النفس بقوة، وبشكل أوضح من المرة السابقة:

- لا أدري كيف يمكن للإنسان أن يفهم أنه مجنون أم لا؟

ردّ عليه شهاب:

- هذا سؤال يتعلق بمفهومنا لماهية الجنون.. بالأمس كنت أفكر في الشيء ذاته تقريباً، وأعدت قراءة الكتاب التأسيسي كاملاً في الليل، لأجد أنه كتاب مليء بالتناقضات، فكل فكرة تُقال تناقض أختها في مكان آخر.. لا يوجد حبل واحد ينظم أفكار ميسرة.

لأول مرة يذكر شهاب اسم ميسرة، دون أن يذكر لقب "قائد" أو "عقيد".

انتبه منير إلى أن ما سمعه هو نفسه تقريباً، كان يسيطر على فكره قبل عدة ساعات.. وسأل نفسه: "كيف لم يتوقف عند هذا الأمر من أول مرة، أين كان عقله؟!.. هل يمكن أن يتعطّل العقل الواعي عن الإدراك في بعض الأحيان ويدخل هذه الحالة المسماة بالجنون؟.. وهل الجنون أن يصل الدماغ البشري إلى درجة الفكاك من العقل المنطقي، إلى منطق جديد للعالم، ينسف كل القيم والتقاليد والموروث؟".. قال لشهاب:

- ما تُفكّر فيه أعادني إلى السؤال عن مجمل الأفكار التي يصنعها (نخبة) من البشر على مرّ التاريخ، والتي ينظرُ إليها ملايين الناس على أنها قناعات نهائية غير قابلة للشك.. لو أعدنا التأمل فيها لوجدنا أنها أفكار باهتة، مجنونة، ولا معنى لها على الإطلاق.. هذا يعني أن معظم الناس في نهاية المطاف تتّبع ما هو مجنون وغير منطقي!.. لو توقف كل إنسان وناقش مكتسباته المعرفية، التي هي تراكم حادث عن مخزون المعرفة البشرية، لوجد أن أي فكرة لو تمت مناقشتها على نحو مستفيض، ما هي إلا نتاج لغياب العقل.. لأن حضور العقل يعني رفض كل الأفكار، يعني بشكل مطلق رفض كل العالم.

- إذن بهذا المعنى لن يكون التاريخ البشري إلا محصلة لما أنتجته عقول مجنونة، ليس إلا؟!

- نعم بهذا المنطق يُفهم العالم.. والتجربة التي مررنا بها أثبتت لي هذا الشيء..

قاطع شهاب، منير.. قائلاً:

- دعني أكن أكثر صراحة معك.. لا تتعلق المشكلة بالكتاب التأسيسي والتناقضات التي يحملها، بل تتعلق ببناء العقل الذي يُسيّرنا، ذلك العقل الذي هو بكل تأكيد نتاج ثقافة تراكمية.. فنحن في واقع الأمر نعيش أسرى ثقافة تُكرّس قيمة التناقض واللاوعي.. وقد وصلتُ إلى نتيجة مخيفة، بأنه مهما ظنّ الواحد منّا أنه تحرر فإن قمة تحرره هي الارتداد إلى حالة تغييب الوعي، ويمكن توصيف هذه الحالة بالمثال الصوفي الذي يذهب إلى أن قمة الشك هي الإيمان، وقمة الإيمان هي الشك، أو كما يقول الشاعر:

أنا مؤمن بالله لكن كافر بكتابه
أنا كافر بالله لكن مؤمن بكتابه
ماذا ترون وهذه.. أقوال فذّ نابه
الكفر والإيمان يصطرعان بين ثيابه؟
والكفر والإيمان بينهما عظيم تشابه
إن قيل إنك كافر بالله لست بآبه!

أكمل منير:

- أو قيل إنك مؤمن بالله لست بآبه!

وواصل:

- في تقديري أن الحياة ليست فيها حقائق مطلقة.. هذا أمر مفروغ منه، لكن الذي يدعو إلى السؤال: ما الذي يجعل الناس تتّبع التناقض.. وتُحوّله إلى عقيدة.. بالتأكيد ليس نحن الذين بدأنا هذا الأمر، أو أن ميسرة كان يقوم بفعل جديد ومدهش، إنه ببساطة يلعب على الطريقة المتوارثة نفسها، ولكن بشكل مبتكر.

بعد نقاش عميق إلى منتصف الليل، وصل منير وشهاب إلى درجة حاسمة من الرأي المشترك، بأن الانتصار الحقيقي الذي يمكن أن يحققاه معاً، أن يستمرا في اللعبة ولكن بطريقتهما الخاصة..

جاءت الفكرة المبدئية من شهاب، وعمل منير على تطويرها بخياله الفضفاض:

- ليكن ما يكون، ما دامت اللعبة قد بدأت فلنستمر، أليس هذا جزءاً من تعاليم الكتاب التأسيسي؟..]] ارتكاب جريمة ليس عيباً، لأن مصطلح الجريمة مضللٌ.. فالجريمة لا وجود لها إلا في الأعراف القديمة للإنسان البدائي.. وما يحلُّ بديلها هو المتعة التي يحققها الإنسان بانتصاره على العالم.. على الفراغ الذي يجب أن يُشغل بالمعنى[[.

وجد شهاب نفسه يضحك بصوت عالٍ، عندما سمع العبارات الأخيرة المأخوذة من الكتاب التأسيسي.. وما

أضحكه أنه فهم العبارات للمرة الأولى على نحو جديد، لم يخطر على باله من قبل.. قال لمنير:

- أخطر ما يمكن أن يتضمنه أي مشروع فكري، هو قدرته على فتح مساحات التأويل، بحيث يجعل من الممكن للإنسان أن يؤمن بالشيء ونقيضه في الوقت نفسه، ويكون إيمانه في كلا الحالتين قائماً على مبررات عقلانية يمكن أن تقنع مجموعتين مختلفتين، ليكون مصير هاتين المجموعتين أن تحارب كل منهما الثانية، بحيث تتحرك كل مجموعة على أنها تمتلك الحق المطلق.. إذا كان ميسرة قد نجح في شيء، فقد نجح في هذا الجانب، فالكتاب التأسيسي ينجح في هذا الأمر تماماً.

- بالتأكيد هذه هي النقطة الأقوى في عقل ميسرة.. وهذا ما يجعلني أحترم هذا العقل الجبار.

- لسنا مشغولين الآن بالاحترام أو عدمه، ما يجب أن ننشغل به هو التفكير على نحو مجنون للخروج بأكبر مكاسب من خلال (الجريمة) التي قمنا بها..

نطق بكلمة جريمة دون الانتباه إلى أنه يفهم الآن الجريمة على نحو مختلف.

قاطع منير شهاب فجأة، سأله:

- ألا تلاحظ أننا نُفكّر من داخل منظومة الكتاب التأسيسي، بمعنى أننا لا نخلق أفكاراً جديدة.. هل توقفت عقولنا عن التفكير بعد إيماننا بأفكار ميسرة ؟

من جديد وجد شهاب نفسه يضحك بشدة.. وشعر براحة نفسيه عميقة، أنه بدأ في مغادرة حالة الخوف التي سيطرت عليه طوال الأيام الماضية.

كان منير في انتظار أن يفهم السبب الذي جعل شهاب يضحك على هذا النحو، لكن شهاب لم يتركه يسأل حيث أوضح له:

- أعتقد بأن الأفكار القوية والخالدة هي: تلك التي تمتلك القدرة على النفاذ والتغلغل في خلايا الدماغ وتستوطنه، بحيث يصعب على الإنسان التفكير من خارجها، وهذا ما فعله ميسرة معنا.. فمهما حاولنا أن ننظر إليه بغضب أو باحتقار، لن ننجح في هذا الشيء.. هذه النماذج من الناس قد تنال الاحتقار من البعض، ولكن الذين ينظرون إلى العالم بالمقلوب سيفهمون على الفور أن الاحتقار لا مكان له في قلوبهم، وأن عليهم إبداله بالمحبة.

قبل أن يكمل شهاب، قاطعه منير الذي يكاد يحفظ كل الكتاب التأسيسي عن ظهر قلب.. حيث قام باستحضار عبارات تتحدث عن هذه الجزئية الأخيرة التي تتعلق بمدلول المحبة بتأويل ميسرة:

- [[المحبة أن تجد الكون أجمعه، ينبع من قلبك ويصبُّ فيه.. أنت الوحيد الذي تتحكم في مصائر العالم.. إذا فعلت أي فعل فلا تندم عليه، لأن الفعل الذي حدث لم يولد عن كراهية للكون، وإلا لما كان أبداً.. كل فعل كائن،

هو دليل محبة، مهما كان ذلك الفعل، أو كانت النظرة التقليدية إليه.. قد يراه عامة الناس منكراً، لكن عليك أن تراه معروفاً.. الحبّ الحقيقي يجعل الذات مشحونة بالأنانية المفرطة والعالية.. لكنها تلك الأنا التي تنطلق من قاعدة المعرفة لا الأنا المشحونة بالجهل وإدمان النظر إلى العالم على أنه يكرر نفسه[[.

سمع شهاب العبارات أيضاً، وكأنه يسمعها لأول مرة.. قال:

- لا فكاك إذن من هذا الفكر الذي غمر قلوبنا وعقولنا تماماً.. سنجد أنفسنا نتعامل مع ما قمنا به على أنه معروف جميل..

كاد أن يضحك.. لكنه توقف فجأة، وأكمل:

- دعنا نُفكّر بجدّية في الخطوة القادمة.

35

"الانتصار الحقيقي الذي يمكن أن يحققاه معاً، أن يستمرا في اللعبة ولكن بطريقتهما الخاصة".. آمنا بالمبدأ.. حبكا الخطة، بعد أن جعلا العقل دليلهما، وهما يقولان: "لا يوجد من هو أكبر منك.. ثق بذاتك..".

(العقل دليل الناجحين).. اقتطف منير العبارة من الكتاب التأسيسي، وضعاها عنواناً للخطوة التالية.. عنوان يتمثل في مقابلة فضل الله الذي رشّحهما من قَبل لميسرة للقيام بالمهمة السرية، التي كانت نتيجتها حالة الدوران التي دخلا فيها.

الهدف المبدئي.. مشوش.. يقوم على الاستكشاف.. توقع كل شيء.. بعدها سيفهمان!..

هكذا قررا.. انطلقا.. رسما خطتهما على هدف مبدئي يتمثل في محاولة زعزعة ثقة النقيب فضل الله بالعقيد ميسرة.. ومن ثم الانطلاق للأهداف الأخرى للعبة ترسم تفاصيلها وفق ما ستصنعه الظروف والأحداث.. لن ينسيا أبداً: "كل شيء متوقع.. لن نخسر أي شيء.. لا يوجد ما سنخسره، لنلعب ونر.. لنجرب عقولنا.. لنرى كم هو مفيد أن تعشق كتاب التناقضات الجميلة".

شرعا في الخطوة الجديدة دون تردد، بعد أن شحنا ذاتيهما بجرعة عالية من اليقين تقول بأن الاستمرار في اللعبة أجدى من الاستمرار في الخوف، وبعد أن تأكدا أنهما باتا أكثر خفة مما مضى، ولم يكونا يشعران بحرج أن يستندا إلى أفكار ميسرة نفسها، في تطويل اللعب.. بقناعة تقول بأنه: "على مدى التاريخ كان هناك من يستندون إلى الأفكار المُؤسّسة، في محاربة الذين اقترحوها أنفسهم".

هل يعلم فضل الله بما قاما به؟، لم يكونا متأكدين.. "..وليس مهماً .."، هكذا قالا بكل شجاعة وغرور، وهما يذرعان الطريق، في صباح خرطومي غادره المطر الليلي.

... وذهبا للقاء، وهما يحملان الاحتمالات الممكنةكافة: فقد يسمع لهما الرجل ولا يُلقِي بالاً لما يقولان، وقد يحدث أن تكون نتيجة قولهما سلبية.. ليجدا أنهما زجّا بذاتيهما في متاهة جديدة.. فبخلاف ما كانا يعتقدان في الماضي، بأنهما يفهمان الخلية جيداً، باتا الآن أكثر شكاً في كل شيء.. لذا قررا وضع هذه النتيجة في الاعتبار.. ليكون الاحتمال الثالث والأضعف في تقديرهما، أن يتضامن فضل الله معهما، ليخرجا منتصرين ضد ميسرة..

لو كانا يعلمان أن فضل الله وصل إلى قناعة: "أن القائد لم يعد ذلك الشخص الذي عرفه لأول مرة، صاحب الكاريزما القوية والتأثير الشديد في مُحدِّثه"، لما وضعا أكثر من احتمال واحد.. أن النقيب سوف يتجاوب معهما بأسرع

من المتوقع، ولكن دون أن يعلما بتجاوبه لأنه سيخفي هذا الأمر.

ما سيحدث أن فضل الله الذي بات يرى نفسه أقوى شخصية في الخلية بعد أن رأى ما وصل إليه القائد من انهيار؛ أصبح يُفكّر في احتواء الأعضاء لجانبه، دون أن تتضح له الطريقة التي سيتحرك بها تماماً.. سيكون سريع الاستجابة للعناصر الشابة التي سيُقدِّر أنها قد وثقت به، دون أن يشعرهم بهذا التجاوب علناً.

ظلّ فضل الله يتحرك دائماً بإيمان تام بالتعاليم التي يدعو إليها الكتاب التأسيسي، لكنه لم يعد ذلك الشخص الذي يربط بين الكتاب وكاتبه، حيث كوّن قناعة تكاد تشابه قناعتي منير وشهاب: "إن الفكر بمجرد أن يسطره صاحبه، يصبح مِلكاً لكلِّ الناس.. وإنه من العبط الربط بين صاحب الفكرة وأفكاره.. فكوني أستعين بفكرة معينة، أو أؤمن بها وأتخذها كمسار لي في حياتي، لا يعني ذلك بأية حال من الأحوال أنه من الواجب عليّ أن أُقدّس صاحبها".

طوال جلوس الشابين معه أثناء عرضهما بشكل غير مباشر للموضوع الذي جاءا من أجله؛ كان فضل الله يفكّر في هدفه الجديد، دون أن يُبدي أي إشارات ظاهرة تدلُّ على مشاعره الحقيقية: "هل كان يصدقهما أم لا؟.. هل هو يكره القائد أم يحبه؟.. هل لديه أهداف وطموحات ذاتية بالسيطرة على قيادة الخلية أم لا؟".. كلّ تلك النيات المستترة في ضميره ظلّ

يخفيها عن منير وشهاب، لنيته بألا يبدأ مشروعه بشكل مهزوز.

حدّث نفسه سراً: "يجب أن تبدأ الأشياء بتأسيس صحيح"، وفق تفسيره لما تعنيه هذه الحالة، من داخل الكتاب التأسيسي:

]]أن أُشعِر من حولي بأنني في موقف المحايد، في الوقت الذي أكون مُسيطراً على أهدافي تماماً.. أراها من بعيد وكأنها قائمة أمامي، حيث يظلُّ موقفي الشخصي يخصني ويصبُّ في خطتي، دون أن أُعلن هذا الموقف أبداً[[.

***

احتفظ فضل الله بمشاعره، ولم تدل ردة فعله الواضحة على أي موقف محدد، عندما كان يستمع إلى شهاب، وهو يقول:

- لقد سعدنا جداً سيدي النقيب بثقتكم بنا في الاجتماع بالقائد وإنجاز المهمة الأولى لنا في الخلية بنجاح.

حتى تلك اللحظة لم يفهم ما الذي ينوي الشابان الخوض فيه، ردّ عليهما:

- هذه ثقتنا بأعضائنا المتنورين الذين يتفهمون تعاليم القائد جيداً.

كان تعليقه عادياً في تقدير عضوي الخلية، ومضى لدقائق

مستمراً في الردّ بطريقة دبلوماسية، رغم أنه في قرارة نفسه، رغِب في أن يفهم ما هي تلك المهمة!، والتي كان ميسرة قد وعد بتوضيحها لاحقاً لمجلس القيادة.

في تفكيره لم يكن يتخّيل البتة أن تلك المهمة كانت نتيجتها أن عضوين من الخلية قاما بالتخلص من الأعضاء الثلاثة الذين شاركوا في المهمة ذات الرقم واحد المعروفة لدى القيادة باسم (عربي)..

لم يكن خيال فضل الله قد وصل إلى أن ميسرة يمكن أن يُنفّذ ما أورده في الكتاب التأسيسي بحرفية، فقد كان يعتقد: "أن الأفكار تظلّ مجرد أفكار في الكتب، لاسيما لخلايا تنشأ في دولة من دول العالم الثالث".

... لكنه قبل أن يستطرد في تأملاته فوجئ بالإشارة التي أوردها منير، عندما قال دون سابق مقدمة أثناء الكلام:

- شعور جميل أن تقتل إنساناً.. لم أفهم ما ذكره القائد في الكتاب التأسيسي بدقة، إلا ساعة وجدت نفسي أتسلى بقتل كائن مثلي، تعطيل حاسوب بيولوجي!

كان ترتيب التسلسل في الحوار، مقصوداً من قِبل منير وشهاب، بهدف دفع النقيب للتساؤل، حول ما حدث.. غير أن فضل الله التزم تغافل ما ذكره العضوان، حتى لا يشعرهما بأنه حريص على معرفة ما قاما به بالضبط أو على الأقل يخدعهما بأنه يفهم كل شيء.. وقد بدا من الواضح له أنهما يعملان على إثارته بشكل غير مباشر، وبالفعل نجحا

في هذا الأمر، حيث جعلاه بعد مدة لم تطل من الحوار، يتحرك داخلياً بعدد من الاستفهامات حول ما جرى في الاجتماع مع القائد، وما ترتب عنه بعد ذلك.

حدّث نفسه: "هل من الصحيح أنهما نفّذا جريمةً قتل فعلاً كما يشيران في كلامهما؟"..

كاد أن يُوجّه لهما السؤال مباشرة، لكنه تراجع، حتى لا يُخرّب خطته السرية بالتزام موقف الحياد.

مرة أخرى، فكّر أن يقوم بدور آخر بأن يدافع عن القائد، ويُحرج الشابين: "بأنه كان يجب عليهما أن يحترما تعاليم الخلية، فمجرد ذِكر إشارات عابرة في الكلام لما تمّ في ذلك الاجتماع السري، يعني أنهما عضوان غير موثوق بهما" .

أراد أن يقول ذلك، وآثر التراجع، بعد أن فطن إلى: "أن أي خطوة من هذا النوع ستكون غباءً منه، وستعمل على تخريب ما يحرزه الآن من تقدم بشأن احتواء شهاب ومنير لمصلحته"، فقد بات هذا الأمر وشِيكاً في تقديره.

***

انتهت المقابلة بين الطرفين، في الوقت الذي كان كل طرف يعتقد بأنه تقدّم خطوة ملموسة تجاه هدفه السري. وبالنسبة إلى شهاب ومنير فقد كانا يفكّران بأنهما ربما عملا

فعلياً على زعزعة ثقة النقيب فضل الله بالقائد كما كانا يرغبان، لكنهما لم يكونا متأكدين جداً.

كان رأي شهاب: "أن المسألة أصبحت واضحة الآن"، قال لمنير بعد أن غادرا:

- في تقديري أن عدم اعتراض فضل الله على ما طرحناه، وأيضاً كونه لم يُبد أي دفاع عن ميسرة، يعني نتيجة واحدة.. أن ثمة خللاً ما في القيادة.. وهذه نتيجة في مصلحتنا في أول خطوة لنا في اللعبة.

- راقبت بعض تعابير وجهه أثناء كلامنا معه، كان يحاول أن يُخفِي سروره في بعض الأحيان، لكنني فهمت كل شيء، كانت الأمور سهلة الرؤية بالنسبة إلي.

- أنا لم ألتفت لذلك.. وما أُركِّز عليه مسألة عامة، يمكن أن تُفهم فيما بعد بشكل مُفصّل.. هناك انعدام ثقة بين الأعضاء الكبار، لكن ليس بإمكاني أن أفهم السبب الآن!

رغم هذه النتيجة، إلا أن شهاب كان يرى أنهما لا يزالان يفتقدان هدفاً محدداً من وراء ما شرعا القيام به.

واجه شهاب منير، في اليوم التالي.. بعد أن أطال التفكير في ما أطلقا عليه (الخطوة الثانية):

- أسوأ ما تعلمناه من الكتاب التأسيسي]]أن الإنسان قد يفعل أشياءَ كثيرة دون أن يعرف ما هو هدفه منها[[.. لقد قابلنا فضل الله وعُدنا بزعمِ أننا حققنا مكاسبَ من هذا

اللقاء.. أي مكاسب؟! ونحن لم نحدد ماذا نريد أن نفعله بالضبط؟

- أعتقد أن هدفنا كان قياس نبض فضل الله، هل بإمكانه أن ينجر للتعاون معنا أم لا؟

- هذا واضح، ولكن لأي هدف؟

- لكي يتضامن معنا.. أو نلعب معاً ضد القائد..

- تعني إحداث انقلاب على العقيد ميسرة.. لنقل إننا نجحنا في ذلك.. هل الخلية هي هدفنا.. أي أننا إذا أصبحنا قادة للخلية مثلاً، ما الذي سنفعله فيما بعد؟

استغرق منير في التأمل لثوانٍ قبل أن يردَّ على شهاب، بانفعال:

- أتعرف ما هي المشكلة التي تعانيها؟. إنك تقوم بتحليل الأمور أكثر من اللازم، بتكثيف الأسئلة، حتى تضيع الخيوط ونجد أننا لم نصل إلى ثمرة من الحوار.. هذه واحدة من الإشكالات التي تُسيطر على طريقتنا في التفكير كسودانيين.. وللأسف فإن الخلية لم تُخلّصنا من هذا الإشكال، بل كرّسته فينا.

- سأكون الآن أكثر تركيزاً...

صمت شهاب لدقيقة ونصف، قبل أن ينظر إلى الطاولة المجاورة في المقهى الذي كانا يجلسان فيه بوسط الخرطوم.. ليقول بعد أن رتّب أفكاره:

- هل تريدني أن أكون صريحاً معك؟. لا أرى أي هدف واضح لنا..

استغرب منير الطريقة التي يُفكّر بها شهاب.. وامتدّ به الاستغراب إلى الشعور بالغبن نحو صاحبه، دون أن يجعله ينتبه للمشاعر التي بدأت تسيطر عليه.

منير الذي يحفظ الكتاب التأسيسي جيداً، قد استحضر في ذهنه سريعاً فقرة من الكتاب تقول:

]]إذا رأيت أن طرفاً ما يشاركك في مصلحة معينة، قد خالفك الرأي.. فلا تُضيّع الوقت بالمُضي معه، لأن المصلحة تكون قد انتهت.. ابدأ على الفور السير بمفردك وثق أنك سوف تصل.. فقط كنْ واثقاً بنفسك.. وتذكّر أن الإنسان الذي يُكثر الأسئلة يُضيّع الوقت ولا يرغب في تحقيق خطوة للأمام[[.

سيطرت ظلال هذه الفقرة على منير، ومثّل على شهاب بأن الوضع لا يزال طبيعياً، لكنه أسرع في مغادرة المكان حيث قال له:

- نلتقي غداً أو بعد غد، لأننا نحتاج إلى المزيد من الوقت للتفكير بشكل أفضل.

***

الطريقة التي غادر بها منير أشعرت شهاب بأن تحولاً ما،

حدث لصاحبه، ولم يكن متأكداً من ذلك التحول.. فقد استغرق في تفكير مُطوّل مع نفسه وهو يسلك طريقه عائداً إلى البيت، بأن: "نقطة خلاف ما قد بدأت في التولُّد.. قد يكون سببها الرئيسي الاختلاف حول تحديد الهدف". وقاده التفكير إلى السخرية من كل تفاصيل الحياة وما يمكن أن يُورّط الإنسان نفسه فيه، كالذي حدث معه بأن يقتل.

عاد بذهنه إلى ما قبل عدة أيام من وضع نفسي سيء وغير مطمئن وشعور بالخوف من القادم.. ورأى أنه: "لن يكون قادراً على مواصلة اللعبة كما اتفق مع صاحبه".. انتابه هذا الشعور فجأة وسيطر عليه، لدرجة أنه بات يرى الأشياء من حوله بصعوبة، جراء التشتت الذهني الذي طرأ عليه.

قبل أن ينام بعد أرق طويل، قال لنفسه: "يبدو أنني كائن ضعيف!. لا أدري من أين يستمد الآخرون قوتهم عندما يكونون قادرين على العيش سعداء؟".. كان يعني بالآخرين، أولئك الذين يرتكبون جرائم معينة، وقحة.. ويكون في استطاعتهم المُضِي في الحياة بكل ثقة وشجاعة وكأن شيئاً لم يكن.

على العكس من الحالة التي وصل إليها شهاب، كان منير قد وصل إلى حالة من الصفاء الذهني، وقرر سريعاً في باقي الليل أن يمضي في اللعبة، ولكن بمفرده وبشكل مغاير لما اتفقا عليه.. بعد أن رأى بتفكير بسيط: "أن شهاب ليس

ذلك الشخص الذي يمكن الاعتماد عليه لرحلة طويلة، مجهولة النتائج.. رحلة لم تتضح ملامحها بعد".

كلّم نفسه بصوت مسموع في شارع خالٍ من المارة قريباً من المنزل نفسه الذي دار فيه الاجتماع السري مع القائد: "أن عليه أن يستمر في خطوته القادمة.. ولكن بعد أن يجري عليها تعديلاً لمصلحته"، قال: "مهما تكن النتائج فلن أخسر لأن التضامن مع الطرف الأقوى أفضل من التضامن مع الضعفاء.. يظلُّ ميسرة هو الحلقة الأقوى".

دون تردد كانت قدماه قد حملتاه إلى الوقوف أمام الباب الصغير في البيت القائم في شارع شبه منسي، ليجد نفسه يدفع الباب المتهالك ويدخل إلى الغرفة التي لا يزال يتذكّر بعضاً من تفاصيلها المحدودة: سرير قديم ومنضدة عليها كتب متناثرة، وبعض من الكتب مرمي على الأرض بعشوائية، لوحة على الجدار ممزقة الأطراف مثبتة بالصمغ البلدي، لا يعرف منير من رسمها.. عليها صورة لرجل يقف ورأسه إلى أسفل.. "هل اللوحة رُسِمت بهذا الشكل أم أنها عُلّقت مقلوبة؟" ليس بإمكانه أن يحدد الآن!

لن يدع دماغه يستغرق في هذه التفاصيل: "التي لا جدوى منها في هذه اللحظة"...]]هذه مشكلة العقل البشري أنه يحاول دائماً أن يسرق الإنسان من الأفكار التي يحاول القبض عليها وتطويعها، لينتصر على العالم، ليضعه أمام أفكار هامشية ولا قيمة لها[[..

كانت الفكرة الأخيرة المأخوذة من الكتاب التأسيسي آخر ما عبر في ذهنه، قبل أن يدخل إلى الغرفة، ليقف وجهاً لوجه أمام القائد الذي لم يره منذ ذلك اليوم.. يوم الاجتماع الذي لا يُنسى.

***

كان ميسرة قد تعافى تواً، من الأزمة النفسية التي مرّ بها، بعد أن غاب عنه فضل الله وسفيان، وبعد أن شعر بـ: "أن الوقوع في أَسْر الخوف، لا يحمل الإنسان لغير التشتت والهلاك".. ورأى أن: "الأجدى له أن يُفكّر في مواصلة اللعبة التي بدأها ولكن بطريقة جديدة وصافية النيات، بعيداً عن أسلوب الماضي الذي سيطرت فيه فكرة الانتقام". حيث سأل نفسه بعد تأمل: "ما الذي سيخسره الإنسان؟.. وما الذي سيكسبه؟.. الأفضل أن يعمل الكائن على إعادة بناء العالم برغباته الحقيقية التي حاولت الحياة دفنها وسط الضغوط والأزمات المتلاحقة"، حدّث نفسه بهذه اللهجة، وتحمّل جسده الثقيل، ليراه الآن أكثر خفة.. كأنه كان يتوقع أن أحد أعضاء الخلية سوف يصل إليه بعد قليل.. لم يكن يدري، لكن الحاسة السادسة عنده عملت دون علمه، لتجعله مستعداً للقاء سيظل مهماً في تقديره، حيث سيتخذ أثناءه مجموعة من القرارات التي سيراها حاسمة ولا تراجع عنها، تتعلق بمستقبل الخلية.

بقدر ما كان ميسرة يعتقد: "أن النفس البشرية تعمل بناء على نمط معقد في إدارة الحياة"، حاول أن يُفسّره في الكتاب التأسيسي، إلا أنه في هذه اللحظة يشكّ في أنه استطاع أن يصل إلى أدنى علاقة بالتفسير المطلق للذات الإنسانية، وتحرّكت في ذهنه أفكار كثيرة وسوست له برغبة مُلحّة في تطوير الكتاب التأسيسي كأطروحة جمالية، يُعلن فيها تَحوُل الخلية من العمل في الخفاء إلى العمل المعلن.. هذه الفكرة كانت قد واتته من قَبل لكنه لم يستجب لها في الفترة التي كانت تُسيطر عليه، فيها، فكرة الانتقام للأمس، أما الآن فقد ولى الأمس، في تقديره، ويبقى الرجاء في سيطرة الكائن على المستقبل.

... "ليس الأمس إلا قوة تدميرية تعمل على زعزعة ثقة الذات بالعالم.. وهذا هو الخطأ الذي وقع في الماضي، ويجب إبداله الآن برغبة الحب الصحيح.. تلك التي تفيض بالمعاني الإنسانية الصادقة.. لكن كيف سيتقبّل الأعضاء هذه الأطروحة الجديدة؟.. وكيف سيكون بإمكاني إقناعهم بأن مرحلة قد انقضت في تاريخ الخلية ويجب الآن الانتقال لمرحلة جديدة من العمل الذي سيُكفِّر عن الماضي، وينطلق فعلاً نحو استيعاب المعاني الكونية"...

استغرق ميسرة في هذه التأملات في الوقت الذي كان يعود، بذاكرته، إلى الوراء ليكتشف: "أن المسار الذي قطعته الخلية منذ أن كانت فكرة إلى أن تبلورت ونفّذت ما نفّذت..

ذلك المسار كان من الممكن أن يكون شيئاً مختلفاً، يقوم على القراءة الجمالية والواعية للعالم، بدلاً من الأفكار المطروحة عن الجريمة والكراهية".

تكلّم مع نفسه: "ما فعلته أنني حاولت أن أُظهِر القبح على أنه شيء جميل، كنت ألعب على التناقضات التي تشتت روحي من الداخل.. أسوأ ما يمكن أن يفعله الإنسان أن يحاول صوغ العالم الخارجي على هواه، قبل أن يتأكد من جدوى ما يقوم به على المستوى الإنساني الراقي.. إنه يعمل على تدمير الجمال ويجعل العالم يسير على منظومة الكراهية والشعور بالأسف اللامتناهي".

استغرب ميسرة من جديد: "كيف أن هذه الذات التي كانت قبل ثلاثة أيام مشغولة بالمزيد من الانتقام، تحوّلت دون مقدمات إلى قوة تريد تنمية الحياة السودانية بالجمال والحب؟".

لم يدم استغرابه طويلاً عندما أدرك أن "تلك هي ذاته الحقيقية التي كان يبحث عنها، فكل ما جرى طوال السنوات الماضية لم يكن سوى حالة عارضة لا تشبهه". لكنه خشي أن يكون هذا التحول الذي بات يشغله: "نوعاً من الرِّدة والحنين إلى الأمس البعيد، أزمنة الطفولة والصبا، ساعة كان المرء تقوده أهواء المجتمع".. لذا سأل نفسه: "هل تعني الاستجابة للحالة الجديدة عودة إلى الاحتفاء بتلك القوة

التدميرية المسماة الأمس، والتي حاولتُ قبل قليل أن أمحوها من الذاكرة".

***

استقبل ميسرة، منير، بروح غير تلك التي كان يستقبل بها أعضاء الخلية، وفي البداية ظنّ منير كما لو أنه أمام شخص آخر غير العقيد الذي عرفه في لقائه الوحيد معه، خاصة مع بدء الحوار بينهما.. فالرجل الذي أمامه الآن كثيرُ الابتسام، مرحٌ.. بعكس ذلك الشخص الذي قابله في المرة الأولى، كما أن كلامه يبدو مختلفاً عمّا جاء في الكتاب التأسيسي.. الأمر الذي أدخل منير في حيرة من أمره، وسأل نفسه: "ما الذي يجري في هذا العالم؟"..

جاء منير مدفوعاً بفكرة أن يُحدّث ميسرة بأن ثمة مؤامرة ما تُحاك ضدّه، من داخل الخلية.. مجرد لعبة كان يريد أن يمضي فيها ويرى ما الذي سوف ينتج منها.. حَبَكَ الصورة في ذهنه أثناء الطريق: "سوف يَفهم القائد أن شهاب أراد نقل المعلومات بشأن الاجتماع الذي تمّ لنا معه، إلى فضل الله.. وسيرى أنه من الضروري إعادة هيكلة الخلية، وقد يصل إلى قرار مفاجئ بالتخلص من شهاب.. ليضمن أنني الوحيد الذي يُدرك السر إلى جانبه، هنا أكون قد تخلصت من الخوف إلى الأبد".

"المفاجأة أن ما يقوله القائد الآن يزيد من المخاوف، ويجعل السير في اللعبة المخيفة إلى الأمام، أكثر صعوبة"، هذا ما شعر به منير بمجرد أن بدأ ميسرة الحديث بطريقة لم يتوقعها منير بتاتاً، وبدت له مختلفة عن تقديراته.

كان ميسرة ذكياً بما يكفي ليفهم تماماً النفسية التي تقود منير، حيث أدرك ذلك من خلال إيحاءات الجسد والأطراف، ومن خلال الإشارات في الكلام الذي تفوّه به منير، عندما قال:

- لقد أملى عليّ الواجب أن تراني هنا دون سابق موعد.. قد يكون ذلك ضد الأعراف التي تتبعها الخلية، لكن كان عليّ أن أُرضِي ضميري.. أعني الضمير بالمفهوم الذي تدركه جيداً سيدي..

انتهى منير من سرد هذه العبارات، ليرى أن نظرات ميسرة غير مطمئنة، رغم أنها بدت له ودودة ولطيفة. وانتابه شعور بأن هذا ما لا يريده، فالطمأنينة التي كان يبحث عنها من نوع آخر: تلك التي تحمل داخلها صوت القائد الخفي، الذي يتخيل منير أنه من المفترض أن يقول شيئاً مختلفاً، ويعمل على الاستجابة بشكل إيجابي، يخدم اللعبة التي يعتقد منير أنه سينجح فيها بما يدفعه لتحقيق هدفه. لكن ردّ القائد جاء بغير المتوقع:

- فكرة الضمير التي تتحدث عنها، لم تعد صحيحة!

لم يتوقع منير هذا الرد ورآه غريباً، وظهرت على وجهه

علامات الدهشة بشكل بائن، حيث أسرع ليسأل ميسرة بارتباك:

- ولكن سيدي.. هل يعني ذلك أنني أخطأت فهم ما ورد في الكتاب التأسيسي؟

- لا.. أنت لم تخطئ الفهم، لكن المفهوم يجب أن يتغير الآن، فكل فكرة تظلّ صالحة لمدى زمني معين، بعدها تكون قد شاخت وماتت.. لتحلّ محلها فكرة جديدة.. يشبه الأمر تعاقب الأجيال، كل جيل عليه أن يصوغ مشواره وفق معطيات المرحلة التي يعيشها.

- لم أفهم سيدي!

- لن تفهم كل شيء الآن.. سيكون عليك الانتظار بعض الوقت، لأن هناك تغييرات جوهرية سوف تشهدها الخلية، وبعدها تستطيع أن تفهم معنى ما أقصده.

شعر منير بالخوف، لكن القائد كان يرى كل شيء، حيث أسرع في طمأنته:

- منير.. قد يرتكب الإنسان حماقة أو حماقتين في رحلة حياته.. لكن الدرس الذي يجب أن يتعلمه، ألا يتمادى في الحماقات.. أنت قتلت إنساناً له روح ودم مثلك، أليس كذلك؟. كانت تلك حماقة منك أن تقوم بعمل إجرامي كهذا، لكن بإمكانك أن تُكفِّر عن الذنب، وتبدأ المشي في درب جديد بعد أن تُطهِّر روحك.

لم يعرف منير ماذا يقول، واختلطت عليه المشاعر، ما

بين الرضا عن الذات والسخط، الحب والكراهية للقائد، الرغبة في الموت والاستمرار في الحياة.

راقب ميسرة كل ذلك بابتسامته الجديدة، ورأى أن الفعل المناسب الذي يجب أن يقوم به: "أن يجعل منير يعيش الحقيقة، قد يكون الأمر مفاجأة غير سارة بالنسبة إليه، خاصة أنه سيكون الشخص الأول من الخلية الذي يعلم ذلك".. لكن النتائج لن تهمّ القائد، حتى لو فقد كل شيء.. فالآن بات همّه الأساسي: "الانتقال إلى ذاته الجديدة" التي رأى أنها: "كانت كامنة فيه من قبل، كانت مثل بذرة آن الوقت المناسب لأن تخرج شجرة جميلة وارفة، قد يسرع حطاب متهور لقطعها أو قد تأكلها أغنام الطريق، يبقى أن ما ستحسه الشجرة هو الرضا أنها أصبحت ذات فائدة في هذا العالم، وذلك هو شأن الإنسان الذي يجعل لحياته هدفاً، فهو يعمل من أجل الإنسانية، لا من أجل الأنانية التي تكاد تشغل العقل وتسيطر عليه، إنْ تهاون الإنسان أمامها وتركها تسيطر عليه لتدفع به كيفما شاءت".

أنهى ميسرة تأمله مع ذاته، ليقول لمنير:

- مهما كان الدافع الذي جعلك تقابلني اليوم، فلتكون مستعداً لسماع خبر لا أعرف مدى تأثيره فيك، وقد تستغرب أن يُحدّثك من يسمي نفسه بالعقيد أو القائد، بمثل هذا الخبر.. وقد تشعر بالدهشة أكثر أن أُخاطب عضواً عادياً بمثل

هذا الخبر، حيث من المفترض أن يعلم به أولاً مجلس القيادة.. لكن كل ذلك لن يكون مهماً حيال ما سأعلمك به..

صمت ميسرة لثوانٍ، وواصل:

- لقد كنت أحد الذين وثقوا بي في مهمة صعبة، واستطعت أن تنفذها بدقة، هذا شيء جميل في وقته، ومحل تقديري.. سنمسح الأمس، ونفتح كتاب الغد الجميل، الذي ستكون فيه الخلية كائناً جديداً، طفلاً بريئاً يستقبل العالم بالحبّ الصادق والحقيقي.

إلى تلك اللحظة، لم يكن منير قادراً على الاستيعاب جيداً، وفكّر: "هل الخلل في عقله المشوش، أم في الطريقة التي يتحدّث بها القائد؟ ". وساوره الشك: "أن ميسرة يُمارس عليه لعبة نفسية ما".. قال لنفسه: "شخص مثل هذا الذي أمامي، ليس من السهل عليك أن تعرف كيف يقود أفكاره؟.. هل هو يا ترى دائماً على هذه الشاكلة؟".

لم يكن منير قادراً على الإجابة: "فمجرد لقاء واحد، لا يعتبر كافياً للوصول إلى إجابة دقيقة أبداً".. وصل منير إلى هذه النتيجة، وواصل سماع ما يقوله ميسرة:

- قد تعتقد أنني أتلاعب بك، أو أُمارس عملاً تخيلياً بحضورك.. أبداً لا.. أنت عضو صادق، وهذا ما يُكسبك قيمتك في الخلية، وبالتالي في العالم.. استعد لتكون منير الجديد، واعلم أن الكتاب التأسيسي لم يكن إلا مجرد مرحلة انتهت، وقد آن الوقت للبدء.. لن أقول بشكل جديد.. ولكن بشكل صحيح..

لم تمض سوى دقائق، حتى كان فضل الله قد دخل منزل القائد، ليجد نفسه أمام مشهد شَعَر بأنه مُركّب ويصعب تفسيره، الأمر الذي جعله يقول لنفسه: "القائد الذي كان في أسوأ حالة نفسية، ها هو الآن يبتسم ويبدو قوياً مثل الأسد.. ومنير الذي قابلته مع شهاب وفهمت أنه ربما سيكون قريباً جداً في صفي مع صاحبه، يجلس الآن مع القائد وبشكل ودي وغير مفهوم!".

"ما الذي جاء به وماذا كانا يقولان؟"، سأل نفسه سريعاً..

أجاب: "يبدو أن هناك أمراً غير مفهوم يجري في الخلية!"..

ذهب عقله إلى سيناريوهات كثيرة، كانت جميعها تقوم على عقلية المؤامرة التي عشّشت أخيراً في رأسه، بدرجة مربكة. لكن السيناريو الوحيد الذي لم يكن بإمكانه تخيّله قط أن القائد بدأ مرحلة مختلفة وجديدة من التفكير، سيفهمها فضل الله بعد قليل: "على أنها رِدّة وتراجع عن كل المكتسبات التي تحققت للخلية، خاصة بعد اغتيال السيد العربي وتنفيذ الإعدام بمجموعة لم تقم بهذا الاغتيال، بما يعد أول انتصار حقيقي للخلية".

... وإلى تلك اللحظة لم يكن ميسرة قد سمع بخبر الإعدام.

36

سيضطرّ منير للاعتذار للقائد، والقول بأنه ينوي الخروج الآن.. فهو لم يستطع أن يحتمل نظرات فضل الله النارية، التي جعلته يشعر بالخوف لجزء من الزمن.. تلك النظرات التي تشبه بدرجة ما، نظرات ميسرة في اللقاء الأول، والتي لم تعد قائمة الآن.

قال ميسرة لمنير:

- ابقَ قليلاً فإنني لم أكمل حديثي معك..

لا يرغب منير في البقاء، ففضل الله لم يعد ذلك الشخص الذي قابله مع شهاب: "إنه كائن مريع" في تقديره، الآن.. ليس بإمكانه الارتياح له.

لاحظ ميسرة ببصيرته: "أن ثمة أمراً غير عادي يدور في المكان، وأن هناك نظرات ومشاعر غير مطمئنة"، ولم يُشغِل باله بالتفكير طويلاً في الاحتمالات الممكنة، حيث واصل حديثه، وكأن فضل الله غير موجود:

- نعم يا منير.. لن تعود المرحلة الجديدة تعتمد على التأويلات القديمة نفسها للكتاب التأسيسي، حيث سيعادُ التفكير في كل شيء.. كل شيء تقريباً.

لثوانٍ ظلّ فضل الله صامتاً، ومستغرباً في الوقت ذاته، الطريقة التي يتكلّم بها القائد، وما يقوله: "هل جُنّ ميسرة؟.. وكيف سمح لنفسه أن يُكلّم عضواً من عامة الأعضاء عن أمور يجب أن تكون محور نقاش القادة فقط؟!.. لكن عليّ ألا أستعجل وأن أسمع بقية الحديث.. ما الذي سيحدث بالضبط؟!".

أيضاً فكّر في هذا القائد الذي تركه في حالة من الوهن والضعف النفسي: "كيف استطاع أن يتجاوز هذه الحالة؟!.. فهو يبدو الآن قوياً، بل أقوى من كل الفترات الماضية التي رآه فيها من قَبل".

لاحظ ميسرة أن فضل الله في وضع المُستغرِب، الذي يود أن يفهم.. فوجه الحديث إليه:

- سندخلُ مرحلة جديدة في الخلية، وسنعيد تشكيل مجلس القيادة، هذا بعد الاستماع إلى آرائكم.

لم تعجب فضل الله الطريقة التي يطرح بها ميسرة الأفكار: "هكذا على علاّتها، وأمام عضو عادي". استشاط غضباً، وقال بانفعال دون أن يستمع إلى ما يود أن يقوله داخلياً مع نفسه، قبل التفوّه به:

- أعتقد أن أي تغيير من المفترض أن يتمّ، يجب أن يناقش أولاً في مجلس القيادة قبل أن يكون معروفاً للعامة..

من جهته لم يرض ميسرة بالطريقة التي تدخّل بها فضل الله في الحوار.. أخبر نفسه: "لو كان مثل هذا الموقف، قد

حدث في الماضي، لكان لي رأي مختلف، أما وبعد أن تغيرت، فسوف أردُّ بهدوء ودون انفعال" :

- جزء من التحوّل الذي ستشهده الخلية، أن الآراء سوف يشارك في صنعها الجميع، حيث لن يكون القرار للقيادة فقط.

قاطعه فضل الله بانفعال أكبر:

- ولكن أليس من المفترض أن يتم ذلك، بقرار صادر من القيادة؟

- سنطلع القيادة، دون شك.. وسنأخذ بما يقولون.. عموماً لا أعتقد أنهم سيرفضون التحول إلى المرحلة التالية التي ستكون أهم في تقديري، وأكثر فائدة للمجتمع.. أنت بالتحديد لن ترفض هذا الشيء.

- سيدي (لأول مرة ينطق فضل الله بالكلمة، بعد أن هدأ بعض الشيء).. أنت الذي تقرر مستقبل الخلية، في كل الأحوال.. لكنني أشعر بغبن أن يتمّ تهميشي هكذا ومعاملتي كعضو عادي.. أنت كنت تُحدّث عضواً عادياً بخبر مفاجئ وجديد، دون أن أعلم أنا أو سفيان أو أي عضو آخر من القيادة بذلك.

فاجأ ميسرة فضل الله بردّه:

- منير ليس عضواً عادياً، لقد تصدى لمهمة، ستظلُّ في تقديري أهم بكثير من كل الأعمال التي قام بها القادة!. ماذا

قدّمتم (أنتم) غير التنظير.. في الوقت الذي قام هؤلاء الصغار في تقديركم، بأمورٍ مهمة جداً، لا تعلمون عنها شيئاً.

تنفس القائد بعمق، وواصل:

- هذا الكلام الذي أقوله ينطبق على الجميع بمن فيهم أنا.. ثانياً أطلب منك، لو سمحت لي أن لا تستخدم مرة أخرى مفردة (سيدي) في مخاطبتي، هذا جزء من التحول الجديد في الخلية، سنُلغِي كل الألقاب التي كانت سائدة بيننا، وسنكون مجتمعاً صغيراً للفضيلة الغائبة في المجتمع الكبير.

لم يعرف فضل الله ماذا يقول، وعاد إلى الحديث مع نفسه: "إن ثمة أمراً غير مفهوم، يجري!.. ما هو ذلك الأمر؟.. يجب أن أفهم وبأي شكل كان؟"..

وفكّر: إن الفترة الأخيرة وما بعد اغتيال العربي ومنذ اختفاء القائد ثم عودته، باتت تشهد أحداثاً غير مفهومة.. مثل: "الحالة التي عاد بها ميسرة.. ولقاء منير وشهاب معي، ذلك اللقاء الذي يمكن أن يُفسّر الآن على أنه ربما يكون مدبراً من قبل ميسرة لإثارة نوع من الفتنة، خاصة إنه يفكّر الآن في التخلص من الأسلوب التقليدي للقيادة".

واصل فضل الله حديثه مع ذاته: "ما الذي يفكّر فيه هذا الرجل بالضبط؟.. إنه لأمر مزعج، ويجب أن أفهم!".

خرجت العبارة الأخيرة (يجب أن أفهم؟)، بصوت عالٍ

من فمه، دون أن ينتبه، حيث لم يقدر على تمالك أعصابه، بعد أن ارتجف جسده كاملاً وتغيّرت ملامح وجهه الطويل.

ارتفع صراخ فضل الله في الغرفة الصغيرة، وظلّ عقله يثرثر بشكل سريع وعشوائي أن نياته بخصوص استقطاب الأعضاء الشباب لجانبه، والتفكير في إزاحة القائد والحلول مكانه، لم تعد الآن واردة أو ستنجح، بعد أن فهم: "أن النسر الجريح شبّ من جديد وبقوة هائلة".

حدّث نفسه: "هذا الرجل من الصعب التكهن بالخطوة القادمة التي يمكن أن يقوم بها.. كان ذلك الأمر صعباً في الماضي، قبل اغتيال العربي، ويبدو أن المسألة باتت الآن أكثر تعقيداً.. فبعد أن ظننت أن الأمور سوف تجري لمصلحتي وأن ميسرة ضعف ودخل في الوهن النفسي، ها هو ينتفض وبتصور غير وراد في الذهن من الأساس".

ظلّ ميسرة يستمع إلى الصراخ، دون أن يعلّق أو ينفعل. في حين غمر الخوفُ منيرَ، وانتابه شعور بـ: "أن اللعب مع هؤلاء الكبار غير مجدٍ".. فلأول مرة يرى فضل الله يصيح بشكل غير متوقع.."كأنه مجنون حقيقي أو مريض يعاني ألماً مبرحاً".

انتهى الصراخ بأن قال فضل الله بغضب، مُوجّهاً كلامه لميسرة:

- لقد قتلوا اليوم شباباً لا ذنب لهم!.. نفّذوا فيهم حكم

الإعدام، وأنت السبب!.. وتأتي الآن لتتحدث عن الفضيلة أيها (الوغد).

لم يتمالك فضل الله نفسه، ساعة نطق بكلمة (الوغد)، في أول مرة يشتم فيها القائد، بشكل علني.

لم يهتم ميسرة بالشتيمة المُوجّهة له من قبل نائبه في الخلية، لكنه استغرب داخلياً دون أن يُبدي تأثره، الخبر الذي زفّه فضل الله: "إعدام الشباب!!".. فطوال اليومين السابقين لم يكن يعلم شيئاً عمّا يدور في العالم.. وقد حاول ألا يُبدي أي مشاعر محددة أمام منير، لسبب لم يكن قادراً على تحديده، في لحظة صفاء ذهني شردت عنه بالأمس.. وواتته في الحاضر والمستقبل.

لم يتركه فضل الله يعيش حالة عدم اللامبالاة كما وصفها باطنياً، حيث واصل بغضب متزايد:

- بعد أن وصلنا إلى خطوات ناجحة في مهمتنا، تريدنا أن نعود إلى ما قبل هذا الذي يسمى الكتاب التأسيسي.. أن نعود إلى كلمات كالفضيلة، وإعادة هيكلة الخلية.. ما هذا العبث الذي تقوم به يا ميسرة؟!

تضاعف شعور منير بأنه محشور وسط كائنين غير مفهومين بالنسبة إليه، بعد أن سمع ما يتفوّه به فضل الله بشكل غير مهذب.. دون أن يكون قادراً على الفهم، ما الذي يعنيه الرجل؟!.. كذلك بعد أن تحوّل القائد في منظوره إلى لغز يصعب تفسيره. ولم تكن أمامه فرصة ليسأل، أو يفهم،

أمام ثورة فضل الله الغاضب، وفكّر على الفور في مغادرة المكان بأي شكل كان، وبسرعة.

لكن كيف سيفعل ذلك ويترك السرَّ الذي يعرفه ميسرة: "أنه شارك في قتل ثلاثة أشخاص لا يعلم إلى هذه اللحظة ما هو ذنبهم بالضبط؟!.. ذلك الخطأ الذي وقع فيه والذي سيظل يطارده إلى نهاية عمره.. وربما كانت النهاية بسببه!".. استغرق منير في هذه الأسئلة المقلقة، وقال لنفسه: "إذا غفرت لذاتي، فلن يتركوني وحالي، ستأتي اللحظة التي أُقاد فيها إلى فصيلة الموت.. هؤلاء الناس الذين يكرهون بعضهم بعضاً بهذا الشكل.. لا أمان لهم".

مضى في التفكير: "إنه حال لعبة السلطة في هذا البلد، ثمة قادة يسيطرون على الأشياء، وعامة يتحركون كالدمى، أنا لم أكن سوى دمية.. ومصير الدمية أن تمزق ويرمى بها في الزبالة.. أما صانع الدمية فيستمر في اللعب بغيرها.. بالطريقة نفسها تماماً تسير لعبة السياسة في السودان منذ أكثر من خمسين سنة، قادة يتربعون على قيادة التنظيمات وطبقة عامة من الأعضاء التي يجب أن تُنفِّذ، ويُرمى لها بالفتات".

راقب ميسرة حالة عدم الارتياح التي سيطرت بشكل واضح على منير، وفهم ما يمكن أن يكون قد فكّر فيه.. فقال له، دون أن يهتمّ بردة فعل فضل الله الذي بات من الواضح أنه خرج عن طوره:

- أي تفكير منك في العودة إلى الوراء، يعني أنك تتنازل

عن حق من حقوقك، وهذا خطأ.. لم تكن الخلية ذات يوم من الأيام ملكاً لشخص معين.. قد تكون هناك أخطاء حدثت في الماضي، وقد جاء الأوان لنصحح تلك الأخطاء بمشاركة الجميع، لاسيما الأعضاء المخلصين أمثالك.

خُيّل لفضل الله أن ميسرة يحاول جرّه إلى المزيد من الاستفزاز بالكلمات التي وجّهها لمنير، وقد كان مخطئاً في فهمه، فهو لم يتصوّر أن القائد بات يُفكّر بأسلوب مختلف عن الأمس، وأنه أصبح يرى روحه وقد اغتسلت تماماً من كل درن الليالي المظلمة التي كانت تشغل الماضي.

اعتقاد فضل الله الخاطئ قاده إلى التمادي في الغضب، والخروج عن السكون، حيث تحول إلى وحش لا يطاق في عيني ميسرة ومنير، لاسيما عندما شرع في تمزيق نسخة من الكتاب التأسيسي كانت مرمية أمامه على طاولة صغيرة متهالكة بالغرفة، وهو يضرب بقوة وبكلتا يديه على الحائط، مواصلاً الصياح بصوت عالٍ. وكان أن تحوّل كلامه إلى شتائم مستمرة، ليرى ميسرة في فضل الله، شخصية لم يرها من قبل.. لدرجة أنه بدأ يسأل نفسه: "هل هذا هو فضل الله الذي أعرفه أم شيطان يتلبس روحه!؟".

تدخّل منير لتهدئة الوضع، فكانت النتيجة أن لطمه فضل الله وركله أرضاً، في حين ظلّ ميسرة صامتاً ينظر إلى ما يجري أمامه، وانهمرت الدموع من عينيه، فهو لم يكن يتمنى أن تصل الأحداث إلى هذا المستوى المؤسف في تقديره:

"أن يتبدد الحلم الذي بناه". وقال القائد لنفسه: "رغم أن الأساس جاء بشكل خاطئ إلا أنه بالإمكان تعديل كل شيء.. فالحياة تظلّ سلسلة من المحاولات المفتوحة.. الشجاع والذكي هو الذي يقطع الرحلة إلى النهاية، بعد أن يكون قد حقق الانتصار على العالم.. هذه الصورة من الانتصار التي تقوم على المحبة والعدل، بخلاف ما كنت أعتقد من قَبل أنها قائمة على المواجهة والمصلحة والأنا المفرطة التي تسعى لأن تقبض على كل العالم بيد واحدة".

في تلك اللحظات الصعبة والمؤلمة للقائد المكسور الخاطر، كانت الخواطر تتشتت في ذهنه، بحيث يصعب السيطرة على فكرة معينة، فقد غاص في بحيرة من الحزن الجارف، التي جعلته يؤمن بـ: "أن الإنسان قد يُساءُ فهمه، دون أن يكون مذنباً.. أو قد يحدث العكس أن يتمّ تمجيد المذنب".. وسأل نفسه: "هل يمكن أن يُصدّق أن فضل الله الذي كان يراه أقرب الناس إليه في بناء الخلية، سوف يتّخذ طريقه الآن بعيداً عنه، ويتصرف بهذا الأسلوب غير المتوقع أبداً؟!".

رغم هذه الحيرة، إلا أن ميسرة قرر ذاتياً: عدم الاستعجال في إطلاق الأحكام، أن يترك لفضل الله فرصة الهدوء والتفكير مع النفس، بعمق، وفيما بعد...

بعد ثوانٍ توصّل إلى أن قراره الأخير، غير موفق، فقد اكتشف أنه: "أمام شخص آخر لم يكن يعرفه بتاتاً.. كائن

مليء بالرعونة ولعنة لا يمكن أن تُوصف!".. حدث ذلك في لحظة خارجة من الزمن، شعر فيها القائد (وربما لم يشعر)، بأن ثمة جسماً حاداً يخترق جسده الممتلئ، بقوة، ليُعلِن نهاية مشهد حياته.

لم ينتبه منير: "هل كان فضل الله يحمل تلك الآلة الحادة معه ساعة دخوله مما يعني أنه جاء بنية قتل القائد بغضّ النظر عن الحوار الأخير، أم أنه أسرع لالتقاطها من مكان ما بالغرفة؟!".. فمنير كان غير قادر على الرؤية تماماً في اللحظة التي صرخ فيها ميسرة صرخة شبه مكتومة (أو غائبة).. آآهههه ه ه ه.. ليراقب بصعوبة آخر تفاصيل العالم: "صوراً مزعجة لا يكاد يفرزها، وعيوناً لأشخاص عرفهم في سنوات متفرقة من الحياة".

كان الجرح الأخير مؤلماً وأقوى من كل جراح الماضي، لكنه جاء مصحوباً بنزف الدم، ولم يكن مصحوباً بالصراخ المرتفع، فقد غاصت الآلة الحادة الصغيرة في الصدر بسرعة كبيرة، لم تترك لميسرة فرصة أن يُصدِر آخر شهيق في العالم مصحوباً بآهة الحسرة.

أقل من ثلاث ثوانٍ كانت كافية لأن يتعطل الجسد تماماً، وتنتهي حياة الرجل الأول في الخلية.. تلك الثواني التي استعرض فيها دماغ ميسرة، رحلة الخلية من البدايات إلى هذه اللحظة، عندما يكون الزمن عاملاً غير مهم في تَصوُّر الأشياء وحركاتها، بإمكان ما حدث في سنة كاملة أن يختصر

في أقل من الثانية.. فليس الزمن إلا صورة خارجية لوقائع لا مكان لها إلا خارج الزمن.

حتى لحظة الموت، كان ذهنه مشغولاً بـ: "السؤال عن جوهر العالم!.. عما هي الحقيقة؟.. أين يكون الصحيح وأين يقع الخطأ؟.. و(هل القتل فِعلٌ جمالي؟) كما كتب في الكتاب التأسيسي!".. وحدّث الروح الشاردة عن الجسد، في الأفق البعيد: "ربّما كان الأمر كذلك.. أن تنتهي حياتي بمنتهى الجمال.. أن أموت قتيلاً!".

37

مضت صباحات عدة، قبل أن تسافر زينب.. كانت قد أنهت مكالمة هاتفية سريعة مع زوجها في لندن.. بعد أن أخبرته أنها ستكون هناك مساء اليوم:

- الساعة السادسة بتوقيت الخرطوم.. يعني الخامسة بتوقيت غرينتش.

- أعتقد أنك أخطأت فالفرق بين الخرطوم ولندن ساعتان.

- لم أخطئ، ربما لا تعرف أن الزمن يتقدم هنا، بساعة، عن التوقيت الحقيقي.. تمّ ذلك بقرار حكومي منذ عدة سنوات.

لم يكن مجذوب يعرف ولم يهتمّ بذلك، فالسودان لم يعد يمثل له سوى عالم قديم، حيث إنه يكاد يحتفظ بجزء من تفاصيل الماضي في ذاكرته التي سرعان ما تطحن الأمس، وترمي به في مزبلة الأيام العجولة.

انتهت زينب من ترتيب حقيبتها الصغيرة، ولم تنس أن تضع ألبوماً يتضمن مجموعة من الصور التي التقطتها لطفلها مهند؛ في البيت غالباً، حيث إنها طوال الفترة الماضية التي

قضّتها بالخرطوم منذ أن جاءت لوفاة الوالد، ظلت جلَّ وقتها في البيت الكبير لا تغادره.

مثل زوجها مجذوب، باتت لا تعني لها الخرطوم شيئاً مهماً.. حتى صديقتها القديمة سارة التي زارتها لعدة مرات، انقطعت أخيراً عن زيارتها، واكتشفت زينب أنها لا تعرف لها عنواناً ولا هاتفاً وتناست أمرها على الفور، فزينب من نوعية الناس الذين لا يهتمون بأمر إلا في محيطه، فإذا خرج منه، لم يعد مهماً بالنسبة إليها البتة.

بعد ربع ساعة وصل بروك إلى البيت ليودّعها، عرفت ذلك من الضجيج الصادر من غرفة الصالون الكبيرة.. فبمجرد أن يصل بروك، يتحول المكان إلى صخب متصاعد، حيث تعود الحيوية إلى الجدران وقطع الأثاث وحتى الدمى الخاصة بمهند.

سمعته يناديها من الصالون:

- هاي زينب.. مورننغ..

- هاي بروك..

سألها:

- هل ما زلت مُصرّة على العودة؟

لم يتركها تجيب، قال:

- يبدو أنك لا تطيقين البقاء هنا.. لكنني أعتقد أن مستقبلكم هنا لا في لندن..

لم تعجبها العبارة الأخيرة التي قالها بروك، ولذا لم تهتم بالردّ عليه.. حيث واصلت الانهماك في تفاصيل نسوية، تعديل تسريحة الشعر، الماكياج.. ولم يكن هناك ما يشغلها في تلك اللحظات سوى أمر واحد.. أن تكون في لندن مع أول المساء، فقد اشتاقت إلى المدينة التي أصبحت تُشكّل جزءاً كبيراً من مخيلتها، واشتاقت أكثر إلى مجذوب الذي لم تنم معه منذ فترة رأتها طويلة، وقد استغربت حالها: "كيف استطاعت أن تصبر طوال الأسابيع الماضية، وكيف تناست أنها أنثى في حاجة إلى من يدغدغ مشاعرها وحواسها، وتدفن صدرها في صدره؟!".

رغم أنها استحمت قبل نصف ساعة، إلا أنها دخلت الحمام من جديد برغبة أن تتأمل جسدها، بعد أن استرجعت في ذهنها صوراً متناثرة لمجذوب وهو يُقبّلها ويضمّها إلى حضنه متحسساً حلمتيها النافرتين.. ليبدأ رضاعة ثدييها مثل طفل صغير، قبل أن يخلع ملابسها دون أن تعي ذلك، لتدخل في نشوة لا تكتمل إلا بغرس أسنانها الأمامية في كتفه، وهي تتأوه مثل لبوءة جائعة.

إذا كان باولو كويلهو قد حدد "أن الفراغ من الشهوة الجنسية ينتهي بإحدى عشرة دقيقة فقط"، كما جاء في روايته (إحدى عشرة دقيقة)، فإن زينب كانت ترى: "أن تلك الدقائق لا تعدّ، ربما هي قرون طويلة ممتدة يكون فيها

جسدها قد تلاشى تماماً، وتكون روحها قد صعدت إلى الكواكب البعيدة التي جاء منها أجداد البشرية"، كما يُصوّر فيلم خيال علمي شاهدته قبل أكثر من سنة، في السينما بصحبة مجذوب.

لا تنتهي تلك القرون التي يمّحي فيها الزمن، ويصبح نسياً منسياً إلا مع الفجر، لأن زينب وبمجرد أن تحسَّ بقضيب زوجها وقد ولج ما بين فخذيها، تكون قد غاصت في بحر من النوم العميق المطرز بالأحلام الجميلة.

رأت جسدها تحت الدش كما لو أنه حديقة ذابلة الأزهار، تفتقد الماء الذي يرويها.. كما لو أنه صحراء جرداء تفتقد المطر، رغم أن خريف السنة كان قوياً وشرّد مئات الأسر التي فقدت منازلها.

... وسمعت داخل الحمام صوت عبد الحفيظ يناديها من الصالة الخارجية، ليقطع عليها سرحانها اللذيذ:

- زينب أعتقد أننا تأخرنا.. يجب أن نذهب إلى المطار.

- أوكي.. أنا جاهزة.

انطلقت السيارة بزينب وطفلها إلى المطار يقودها عبد الحفيظ، ورافقهم بروك ليصلوا إلى صالة المغادرة قبل حوالى الساعة فقط من الصعود إلى الطائرة.

كانت زينب تتأمل الأشياء من حولها ووجوه الناس، من مسافرين ومودعين دون أن تُركّز على أي شيء.. فقد كان

قلبها هناك، في لندن، وجسدها، هنا، في مطار الخرطوم الدولي.. ولم تكن متأكدة: "هل ستعود ذات يوم مرة أخرى إلى هذه المدينة التي ستغادرها بعد أقل من ساعة أم لا؟.. إذا قررت العودة ولأي سبب كان فليس ثمة سبب أقوى من رحيل والدها ليجعلها تعود إلى السودان".. فكّرت بهذا الشكل، "وأن مجذوب لن يعود أبداً إلى هنا، كما يكرر دائماً: من يخرج من الجحيم لن يعود إليه".

ودّعت عبد الحفيظ بدموع تدفقت دون حساب، أغزر من تلك التي انهمرت ساعة علمت باغتيال والدها.. وشعرت بإحساس غريب: "أنها قد لا تلتقي أخاها مرة أخرى"، ولم تفهم من أين نبعت تلك الخاطرة المخيفة التي حدّثتها: "أن شقيقها قد يموت مقتولاً كوالدهما.. ربّما يحدث هذا وربّما لا يحدث!.. لا أحد يعرف المقادير!".. فقط كانت مشاعرها مرتبكة وهي غير قادرة على التركيز، والانتماء إلى المكان، ترى نفسها كما لو أنها طائرة في أفق مجهول وغامض.

قال لها عبد الحفيظ بصوت مبحوح من البكاء:

- لم يعد العالم سوى قرية صغيرة، وسأكون معكم دائماً.

بصعوبة ردت عليه:

- منذ سنوات حدث ذلك، أن تحوّل العالم إلى قرية، لكنك كنت طوال الوقت مشغولاً بحالك.. أنا خائفة..

احتضنها بقوة مُتذكّراً أنها الشخص الوحيد الذي تبقى له في هذا العالم المشغول بالألغاز، وتمنى لو أن حياته انتهت في هذه اللحظة بالتحديد، ليس من قبيل التشاؤم بل لأن عقله توقف تماماً عن التفكير في أي شيء، ولم يشتغل سوى القلب، بعاطفة جارفة لم يشعر بها من قبل، تخبره بأن له إنساناً يمكن أن ينتمي إليه في هذا الوجود، وعليه أن لا يبخل عليه بالحبّ والحنان والمودة.

إلى أن صعدت الطائرة، لم تكن قد أغلقت هاتفها الجوال.. سمعت صوت موسيقى حزينة، أدركت أنه الهاتف ينبهها لمكالمة من عبد الحفيظ، كان يقول لها:

- تذكّري أنني معك.. إذا كان الوالد قد رحل فأنا موجود.

صمتت لثوانٍ قبل أن تبتسم أخيراً، مداعبة شقيقها:

- غداً تختطفك بنت الحلال ولا نعود نراك.

دقيقتان وارتفعت الطائرة في سماء الخرطوم، تبدو من تحتها المنازل متراصة، حزينة، وغائصة في وجع عميق.. كل منزل يحكي عن حكاية تطول، عن ألم وجرح.. بعض المنازل كان ضاحكاً لكنه غير قادر على تحديد المدة التي سوف تستغرقها تلك الضحكة.. فالحزن خيّم على المكان في تقدير زينب، التي أسرعت في إخراج المنظار الصغير المُقرِّب للأشياء، من حقيبتها لتمارس هوايتها في ساعات السفر..

تأمل الأرض من السماء.. مراقبة تفاصيل الوديان والأنهار والجبال والمزارع والصحارى والناس الذين يظهرون من علٍ وكأنهم بلا عقول أو أفكار، كأنهم مجردون من الأحزان والأفراح والمشاعر والذكريات.

أدركت: "أن الإنسان لا يفهم أي شيء ما لم يقترب منه، ويكون جزءاً منه، ولهذا السبب ربما لم تعرف كيف تتعايش مع المدينة التي ولدت فيها ذات يوم، وعاشت فيها سنوات الطفولة والصبا وذكريات الجامعة، لأنها كانت بعيدة عن الناس، كانت تنظر إليهم من أعلى جبل وهمي"، هذا ما شعرت به الآن.

تناست الحزن الذي سيطر عليها، وبدأت متابعة (النهر) الذي يبدو من الطائرة التي استقامت في وضع أفقي فوق سحابات متناثرة، وكأنه لا يتحرك.

قرّبت مشهد النهر بتحريك الجزء الأمامي من المنظار الذي يُمكّنها من ضبط الرؤية.. تقريب الأشياء وإبعادها.. رأت مياه النهر فوّارة قوية.. وعلى الضفتين شاهدت قرى بكاملها وقد غسلها الطوفان.. أناساً يعيشون في العراء، وبعض أشجارٍ لا تزال واقفة تقاوم وتستمد قوتها من روح خفية تسكنها، لا أحد يدرك سرها.

توقفت فجأة على مشهد غريب.. لم تتبينه في البداية بسهولة.. عدّلت المنظار، ركّزت أكثر فأكثر، لترى جثة منتفخة

لفظها النهر إلى ضفته الشرقية، في منطقة خالية من السكان.

اقتربت من المشهد قليلاً، قليلاً.. نسيت أنها داخل طائرة، تنظر من خلال منظار، من خلال نافذة زجاجية.. كان المشهد مؤلماً، وواضحاً جداً.

لم تكن تدري أن تلك الجثة لرجل لا يزال مصيره مجهولاً.. محجوب العوض!..